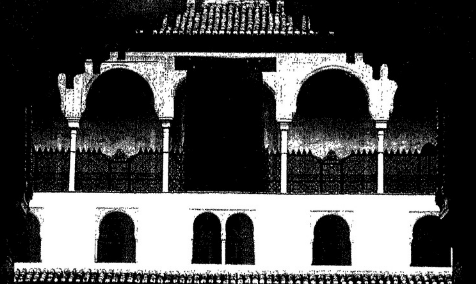
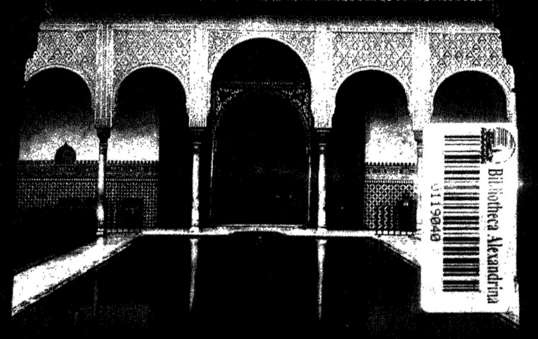
للدراسات
والنشر

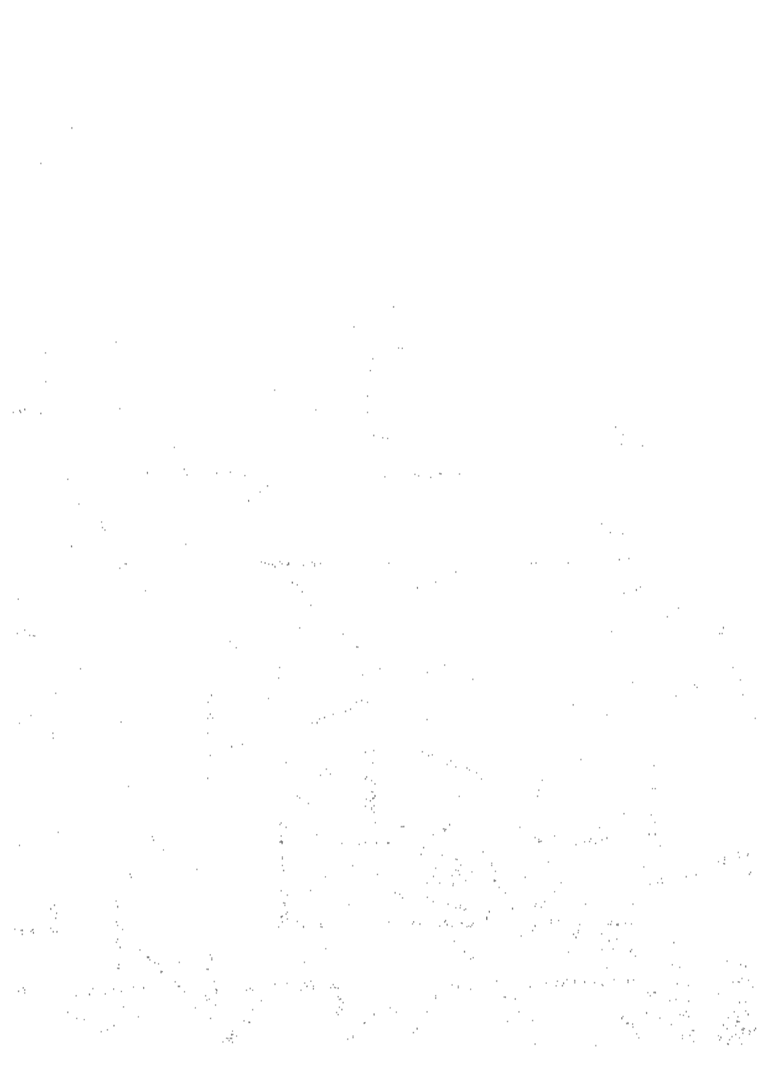
عدنان فائق عنبتاوي

حكايتنا في الأندلس









منشورات [illegible] الأندلس

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١، برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى ١٩٨٩

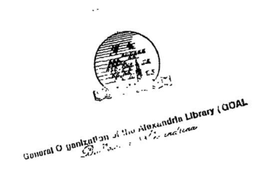
الماكيت وصف الأحرف (التنضيد)
المجموعة الطباعية (ناصر عاصي)

فرز الوان ـ فيلماج ـ بلاكات

فوتوآرت
للتصوير الطباعي والطباعة

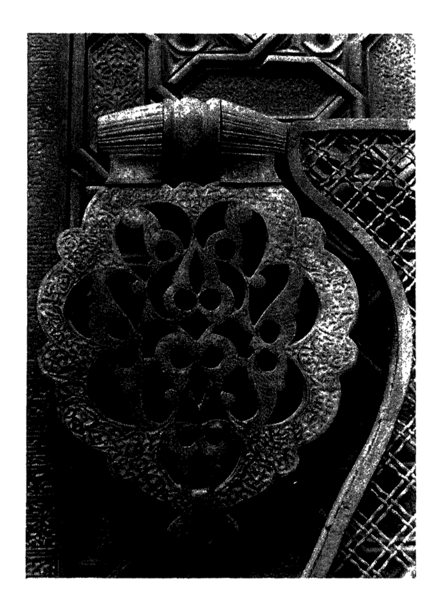
عدنان فائق عنبتاوي

حكايتنا في الأندلس



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهـــداء

الى المتوجسين خوفاً من غدهم
الضائقين ذرعاً بحاضرهم
الذين انستهم مرارةُ واقِعهم إشراقةَ ماضيهم
اهدي هذه الحكاية . . . من حكـايات أمسِهِم ،
لعلها توقظ فيهم بعضَ الأمل . .
لعل فيها بعض العبر . . .

المؤلف
روما
1989/1/1

مقدمـــة

عندما بدأت جحافل الاسلام تتجه بعد مصر غرباً ، لم يكن في تصور أحد أنها ستنعطف عند حافة القارة الأفريقية شمالاً ، فتقطع المضيق ، وتقيم في شبه الجزيرة الايبيرية دولة ظلت تحمل مشعل النور والهداية قروناً ثمانية ، دكت خلالها أوكار الهمجية والتخلف ، وأقامت صروح الحضارة والمعرفة ، وغرست بذور الايمان والمحبة .

وما كان في تصور أحد ان ذلك العربي القادم من الصحراء ، الذي تصلبت يده على مقبض السيف سنوات وسنوات ، ستنفرج عن حساسية مرهفة ، تركت للتاريخ بعضاً من أجمل ما عرفه من فن العمارة والزخرف .

وما كان في تصور أحد كذلك أن عقيرة العربي هذا ، التي اعتادت صيحة المعارك ستنطلق بأجزل وارق ما عرفه الشعر والأدب والغناء .

بل وما كان في تصور أحد أن ذلك العربي الأمي سيصبح خلال ومضة من الزمن ، المعلم الذي فتح أعين البشرية على أسرار عالمها وأخرجها من غياهب الظلمات الى اعراس المعرفة .

ولئن امكن فرضاً ، تصور كل ذلك إلا أن امرأ واحداً كان يصعب تصوره بل ويستحيل ، وهو أن هذا العربي ذاته ، الذي شيد بيديه ذلك الصرح العظيم ، واضاء بمشعله ظلمات الجهل والهمجية ، ورصع جبين التاريخ

بأحلى ما عرفه من فن وابداع ، هو الذي سيهدم بمعوله امجاد اجداده ، ويجتث الغرسة الطيبة التي انبتها اسلافه بدمهم وعرقهم ، وينقلب عائداً مغمد السيف جنوباً ، ليقطع البحر عند حافة القارة الافريقية ، ذليلاً مقهوراً بعد ثمانية قرون عبقت بأمجاده ، وتغنت بمآثره ، وترصعت بلآلىء فنه ومعارفه وأدبه .

تساؤلات ترددت في أذهان الكثير ممن وقفوا على هذه البصمات العربية في الأندلس ، اعتصرت من البعض دموع حسرة ، ومن البعض الآخر بسمات فخر واعتزاز . ووقفت كغيري في رحاب تلك الصروح مشدوهاً فاغر الثغر ، أغالب دمعة واكبت زفرة . ورأيت يدي تمتد الى زخرف في جدار قصر الحمراء تتلمس حقيقته . وسمعتني أتساءل : ايعقل ان يكون هذا حقيقياً ، من صنع الانسان ، من صنع اجدادي ؟ .

وامسكت بآلة التصوير محاولاً التقاط بعض الصور . ارتعدت يداي . عبثاً حاولت . جلست في ركن قصي وعيناي مشدودتان الى الجدار تتأملان نقوشه . والنقوش تأخذ بي من طرف الى آخر ، ثم لا تلبث أن تعيدني الى حيث بدأت . عشرات المرات سرت في ذلك المسار من طرف الى آخر ، تارة اسبر غور اللانهاية ، وأخرى اعيش رتابة الاستمرار . . . التكرار . . . العودة .

وأفقت من تأملاتي على صورة العودة . . . العودة الى وطني السليب . . . الى ارضي المغتصبة . . . الى بيتي ، حيث ولدت وولد من قبلي ابي ومن قبله جدي . . . الى كروم الزيتون وشذى زهر البرتقال . . . الى شدو البلابل وعبير النرجس البري يطالعنا كل ربيع بين صخور الجبال الشماء . . . الى حيث يختلط صوت الأذان برنين النواقيس . . . الى مهد الرسل ومرتع الأديان السماوية . . . الى بلد السلام الذي اغتيل فيه السلام .

أفقت على صورة العودة . . . وقد ضجت في اعماق

اعماقي تساؤلات ترددت اصداؤها في أركان قصر اجدادي : أيعقل أن نصحو . . . نعود الى امجاد ماضينا . . . ايعقل ان نصحو من غفوتنا . . . من تخلفنا . . . من فرقتنا ، فنعيد بناء صرحنا الذهبي ، ونقيم فوق خرائب المذلة منائر العزة والشموخ ، وننشد فوق مقابر الحسرة تغريدة الرفاهية والسلام .

أمسكت بآلة التصوير وقد هدأت نفسي وآليت أن احكي لاخوتي ، ابناء ذلك الفارس العربي ، الذي تصلبت يده على مقبض السيف ، ثم انفرجت عن معجزة الابداع والخلق هذه ، أحكي حكايتنا في الأندلس ، بايجاز ، حيث يصعب الايجاز ، وببساطة ، حيث يعز التبسيط. وأن أنمقها بصور أُلتقطها بنفسي، محاولاً بالصورة ، ان أفي بالقدر الممكن لهذا الجمال حقه ، وان اعبر عنه بصدق يعجز قلمي دونه .

وبدأت اتلمس طريق المعرفة ، وتراكمت لدي المصادر ، ودخلت في متاهات التاريخ ، وقرأت ما كتبه الكثير من مؤرخينا ، وما كتبه البعض من المؤرخين الاجانب . وتكررت زياراتي الى الاندلس ، محاولاً استكمال معلوماتي ، والتقاط المزيد من الصور التي اخترت منها ما دخل بين هذه الصفحات . وجمعت القليل من درر الأدب الأندلسي ، رأيت ان أنثرها عبيراً يفوح على القارىء وهو يقرأ حكايتنا في الأندلس .

إذن ستكون هذه الصفحات « حكاية » وليس تأريخاً ، رأيت أن احكيها ، كما اسلفت ، بايجاز وتبسيط ، واضمنها خرائط ورسوماً بيانية ، القصد منها شمول الصورة ، من حيث الزمان والمكان .

المؤلف

الباب الأول

تمهيـد

العالم عشية الدعوة

كـان العالم تتنـافس في سيـادتـه قـوتـان عـظميـان : امبراطوريـة الفرس وامبـراطوريـة البيزنـطيين . كـانت امبراطورية الفرس تنشر ظلالها على ما يعرف الآن بايران والعراق . اما الامبراطوريـة البيزنـطية فكـانت تضم ما يعرف الآن بتركيا وسورية وفلسطين واليـونان والشمـال الافريقي وغيرها . إلا ان هاتين الامبراطوريتـين كانتـا عشية الدعوة ، قد أصابها الارهاق والوهن واستشرى في اركانها الفساد والتفكك .

وكانت أوروبا عموماً غارقة في بحر من الظلمـات ، يفتـرسهـا الجهـل وتعمّهـا الفـوضى ، وتنهشهـا أنيــاب الهمجية والوحشية ، ويسودها قانون الغاب ، وتطحنها الحروب والفتن .

وكانت الجزيرة العربية تدين بالوثنية ، باستثناء بعض الجيوب اليهودية والمسيحية . وكان سكان شبـه الجزيـرة العربية يتكونون من قبائل ، يغلب عليها طابع الترحال ، وان كـان فيها بعض المراكز المستقرة كمكة ، التي كان أهلها يمارسون التجارة، والمدينة التي كان يعتمد اقتصادها على الزراعة . ولم تعرف هـذه البلاد أي نـوع من أنواع الحكم المركزي يوحد فيها بينها . بل كان الطابع المتغلب هو طابع القبلية ، بما ينطوي عليه من العصبية والتناحر والغزو ، الذي كـان بالنسبـة لافراد هـذه القبائـل طراز معيشة واسترزاق . وكان البدوي قانعاً بما قسم له ، غير آبه بما يجري خارج المنطقة التي ظلت توفر له اسباب العيش والبقاء ، ولا بألوان الحضارة التي عرفها العـالم الخارجي آنئذ .

وفي شبه الجزيرة العربيـة كانت مكـة المركـز الرئيسي لقوافل التجارة التي تحمل خيرات الشرق الى بلاد الشام ، وتعود الى حيث اتت مثقلة بنفائس هـذه البلاد من سلع

وبضائع ، مارة دائماً بمكة ، وتاركة ، لبعض من أهلها ، رسوم العبور والحماية ، معززة بذلك من نفوذ هؤلاء البعض ، وداعمة سلطانهم ومسهمة في ترفهم ومجونهم .

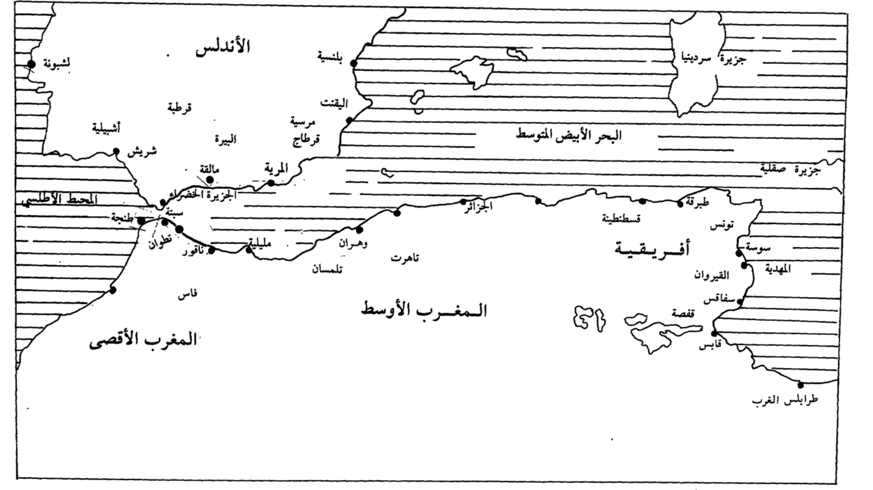
وفي مكة بدأ محمد بن عبدالله ، ﷺ ، دعوته الى الاسلام . ولقي ما لقي في دعوته من رفض وسخرية في بلده مكة، فهاجر الى المدينة وأنشأ فيها أول جيش عربي مسلم للدفاع عن عقيدته من تهديد رافضيها ، ثم للانقضاض عليهم منعاً لمقاومتها . ودخلت القبائل في الدين الجديد .

وما ان قُبض محمد حتى كان الجزء الأعظم من الجزيرة قد اعتنق الاسلام . إلا أن موته شجع المترددين على الافلات من هذا المعتقد الذي اخذ ينظم من فوضى حريتهم ، ويقلص من نفوذ سادتهم . ولولا شجاعة أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ، واستبسال قائده خالد بن الوليد ، وايمان جنوده لكان الاسلام قد انتهى أمره .

وتعززت جيوش المسلمين بعد انتصارهم على أهل الردة ، فانتشرت تفتح أصقاع الأرض داعية الى الدين الجديد بادئة بالشام والعراق ، ثم بمصر ومنها الى الشمال الأفريقي .

وكان الشمال الافريقي ، الذي عرف بالمغرب ، تقطنه قبائل من البربر غرفت بقبائل الوندال (Vandals)، كانت تقطن شبه الجزيرة الايبيرية الى ان جاءت قبائل بربرية أخرى عرفت بقبائل القوط الغربيين (Visigoths) ، فطردتهم من شبه الجزيرة الى المغرب ـ فانتشروا بين طنجة وطرابلس . غير ان هؤلاء الوندال وجدوا انفسهم امام جيوش البيزنطيين التي دفعت بهم الى المناطق الداخلية ، واحتفظت لنفسها بالشريط الساحلي ، وقصرت وجودها فيه على الجانب العسكري . اما السكان الأصليون ، أهل افريقية ، فكانوا قلة ، وكان ارتباطهم بالدرجة الأولى بالبيزنطيين .

كان هذا باختصار هو المسرح الذي ستدور على خشبته الأحداث التي سبقت فتح شبه الجزيرة الايبيرية .



المغرب العربي وجنوب الأندلس

فتح المغرب :

عندما استتب الأمر لعمرو بن العاص في مصر ، بعد ثلاث سنوات تقريباً من دخولها ، أخذت ابصاره تتجه غرباً ، لا للفتح ، ولكن لتأمين حدوده الدفاعية في ذلك الاتجاه . وسار جيش عمرو عام (642/21) بمحاذاة الساحل ، الى أن بلغ برقة (ليبيا) فسقطت بدون مقاومة ، وواصل سيره فبلغ طرابلس ، التي سقطت هي الأخرى بعد شهر واحد من الحصار ، رغم مناعة حصون البيزنطيين فيها .

وفي هذه الأثناء ، وبعد سقوط برقة ، اتجهت بعض قوات عمرو ، بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، جنوباً تحسباً لانقضاض القبائل على الحاميات الاسلامية التي تركها عمرو في المواقع المحتلة . وقد لعب هذا القائد الفتي دوراً على جانب كبير من الأهمية اذ استطاع أن يتغلغل في قبائل البربر ، وان يدخل الكثير منهم في دين الاسلام .

وفي غياب سياسة ثابتة لفتح المغرب ، توقف الزحف ، واقتصر وجود المسلمين على حاميات عسكرية في المواقع الاستراتيجية

وتتوالى الأحداث فيقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، ويأخذ عثمان بن عفان البيعة ، فيقيل عمرو بن العاص من منصب الحاكم في مصر ، ويعين احد اقربائه عبدالله ابن ابي سرح حاكماً مكانه . ثم يبدأ هذا ، بالاتفاق مع الخليفة ، في الإعداد لحملة جديدة لمواصلة غزو المغرب . وحقق هذا الحاكم القائد سلسلة من الانتصارات بعد معارك طاحنة أوصلته الى سبيطلة (تونس) .

وتوقفت عملية الغزو الى حين . فطلائع القوات العربية أصبحت متوغلة جداً في الشمال الافريقي ، كما ان الخلافة أصبحت تغرق في متاهات سياسية شغلتها عن التفكير في مواصلة الغزو .

وانتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وبدأ الامويون ، بعد أن استتب لهم الأمر ، بالاعداد لعمليات غزو منتظمة في المغرب. بل إن الغزو لم يعد هدف الخلافة الأموية، التي أصبحت تتطلع الى ما هو أبعد ، الى الفتح . وكان أول ما فعلته في هذا السبيل اعادة عمرو بن العاص الى منصبه السابق في مصر .

ولكن عمرو بن العاص توفي بعد ذلك بقليل ، وفصلت ولاية افريقية عن مصر وأصبحت مرتبطة بمقر الخلافة مباشرة ، وعين معاوية بن خديج والياً عليها ، فقاد عدة حملات موفقة ضد البيزنطيين وهزمهم ، وقيل انه تعقبهم الى قاعدتهم في صقلية ، وان كان هذا القول يعوزه الاثبات .

غير أن معاوية بن خديج لم يعمل على ارساء قواعد حكم مستقر في هذه المناطق ، واقتصر نشاطه على عمليات غزو ناجحة ، ما كاد يفرغ منها حتى جاءه من كان يحمل أمر عزله وأمراً بتعيين خلف له . وكان خلفه عقبة بن نافع .

انتهج عقبة استراتيجية جديدة لا تقوم على الغزو ، وانما على الفتح والاحتفاظ بالأرض وبالمكاسب ، وارساء قواعد السيادة. وقد أفاد آنذاك في تضعضع اركان الامبراطورية البيزنطية ، التي كانت تعاني من ازمات داخلية خطيرة .

وكانت أولى الخطوات العملية التي اتخذها عقبة ، تنفيذاً لهذا النهج الجديد ، اقامة قاعدة عسكرية ادارية تبشيرية ، في موقع استراتيجي لا يبعد كثيراً عن قرطاجنة ، الميناء البيزنطي ، اطلق عليها اسم القيروان، وهي كلمة فارسية معناها المعسكر . وقد نمت القيروان مع الوقت ، وقدر لها أن تلعب دوراً خطيراً كقاعدة وعاصمة للمغرب لمدة طويلة من الزمن .

وهكذا ارسيت قاعدة الوجود العربي الاسلامي في شمالي القارة الافريقية ، بما أصبح يعرف ، حتى يومنا هذا ، بالمغرب العربي . وتوالت الأحداث ، كما توالى الحكام والقادة على مركزي الادارة والقيادة العسكرية مع تعاقب الخلفاء في دمشق وتباين اهوائهم ومخاوفهم تجاه الفاتحين البعيدين عن متناول أيديهم . فيعزل عقبة ، ثم يعاد ، وجنود المسلمين يقارعون عدوين شرسين ، أحدهما

على الساحل والآخر في الداخل . ويقارعونهما معاً احياناً ، عندما كانا يتحالفان ضد العرب .

وظلت الأحداث تتوالى بين كر وفر ، وهزائم وانتصارات ، سالت أثناءها انهار من الدماء وسجلت بطولات لم تشهد الفتوحات العربية لها مثيلاً ، واستشهد فيها الآلاف ، بمن فيهم القائد الأعلى عقبة وبعض من قادته . وانحسر المد العربي إثر الانتفاضات التي قام بها البربر ، إما وحدهم ، أو بمشاركة أعدائهم البيزنطيين ، فاحتلوا القيروان وأبعدوا العرب الى برقة عام 684/64 حيث بدأوا مسيرتهم الأولى غرباً ، قبل أكثر من أربعين عاماً .

ظل الوضع هذا على حاله نحواً من عشر سنوات . كانت الخلافة في دمشق تمر اثناءها بفترة من أخطر فتراتها حرجاً ، حيث نشبت ثورة ابن الزبير ، وما تبعها من فتن ومتاعب ، إلى أن استقر الأمر لعبد الملك بن مروان ، الذي عهد بقيادة الجبهة الغربية الى القائد الموهوب حسان بن نعمان .

زحفت قوات حسان عام 694/74 ، فاستعادت طرابلس والقيروان ، وقضت على معقل البيزنطيين البحري في قرطاجنة ودمرته تدميراً ، فحمت بذلك ظهرها من الطعنات التي طالما سددها البيزنطيون اليها خلال حملاتها السابقة ، وتابعت مسيرتها فاستولت على بنزرت (تونس) .

غير أن البربر قاموا بهجمة مفاجئة ، هزموا فيها العرب ، واعادوهم مرة أخرى الى حيث بدأوا . . . الى برقة . غير أن هذه الهزيمة لم تكن قاصمة . ذلك ان المعارك التي سبقت هزيمة العرب على يد البربر كانت قد قصمت ظهر البيزنطيين وكسرت شوكتهم في ذلك الجزء من العالم الى الأبد . أما البربر ، فقد بدأت الخلافات تدب بين صفوفهم فتفتتت وحدتهم ، إثر صراعات داخلية نشبت بين زعمائهم . وكان حسان يستعد في برقة لجولة اخرى .

وفي عام 700/81 ، أي بعد أول غزوة قام بها العرب بقيادة عمرو بن العاص لبلاد المغرب بستين عاماً ، بدأت قوات حسان تسير غرباً ، غير عالمة بالمفاجأة التي كانت بانتظارها . ذلك ان البربر لم يمتشقوا الحسام هذه المرة ، بل مدوا يد الترحيب ايقاناً بأن العرب مصممون لا محالة على بسط سلطانهم على المغرب مهما كلف الأمر . ولم يقتصر موقفهم هذا على الترحيب فقط بل انهم امتشقوا الحسام هذه المرة في نصرة العرب ، أعدائهم السابقين ، واخوانهم اللاحقين في الدين وفي المصير . فقاتلوا معاً فلول البربر التي أبت الاستسلام ، وقضوا عليها ، واجتثوا ما تبقى من جذور بيزنطية في المغرب . وبذلك دخلت عملية الفتح العربي مرحلة جديدة تميزت بالبناء ، بناء الجهاز الاداري والجهاز التبشيري والجهاز العسكري ثم القوة البحرية ، التي قدر لها أن تلعب بعد ذاك دوراً أساسياً ، لا في حماية السواحل من الهجمات البحرية فحسب ، ولكن في الانقضاض على مواقع بحرية في عِرض البحر ، كما سنرى .

وهكذا بدأ الوجود العربي في المغرب يقوم على أساس سياسة محددة ، ترمي الى تثبيت اركان الاسلام في هذه الأرض الجديدة ، وصهر العناصر المحلية من بربر وافريقيين في بوتقة العهد الجديد . فتم تطعيم الجيش بعناصر قتالية من البربر ، وايفاد الفقهاء لتعليم اصول الدين واللغة العربية ، وارسال الجباة لجمع الخراج ، والشرطة لحفظ الأمن .

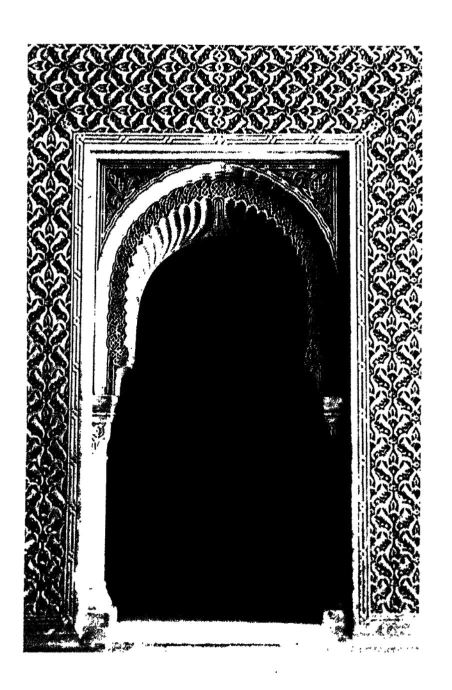
كانت هذه سياسة حسان بن النعمان التي انتهجها بذكاء وفطنة ، الى أن نُحّي عن القيادة وطواه النسيان ، وهي السياسة التي سار عليها ، منذ عام 707/86 خليفته موسى بن نصير ، الذي كان له شأن عظيم فيما تلا ذلك من تطورات أدت الى فتح شبه الجزيرة الايبيرية .

كان موسى قائداً متمرساً ، وسياسياً محنكاً ، له خبرة واسعة في فنون الحرب البحرية ، وهي ناحية لم يعرها ، من سبقه من قادة ، ما تستحقه من أهمية . فانكب ، بكل ثقله ، على انشاء اسطول قوامه نحو مائة قطعة بحرية حربية ، جعل من تونس قاعدة لها . وهي قاعدة كان لها دورها الحاسم في الاستراتيجية العربية حينذاك ، اذ

استخـدمت في الانقضاض عـلى بعض الجـزر كصقلية وسردينيا (في ايطاليا) وجزر البليار (اسبانيا) .

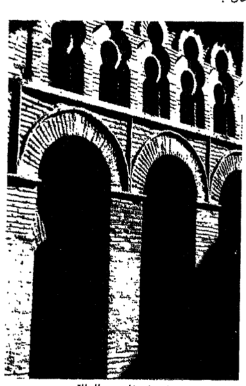
وكان قد مضى الآن نحو سبعين عاماً منذ بدأ العرب محاولتهم الأولى للسيطرة على المغرب العربي ، في حين لم يستغرق قهر امبراطورية الفرس أكثر من عشر سنوات ، ومصر أكثر من ثلاث سنوات .

وكان موسى في هذه الأثناء قد قضى على ما تبقى من جيـوب المقـاومـة ، بـاستثنـاء جيب واحـد هـو سبتـة (Ceuta) . وليس من المعروف ان كـان امهـال سبتـة يرجع الى عدم الاحساس بوجود حاجة ملحة الى أخذها ، أو الى مخطط بدأ موسى ينسج خيوطه في رأسه ، وهو يتطلع من طنجة الى الشاطىء الآخر شمالاً .



فتح الأندلس

عرفت شبه الجزيرة الايبيرية بثلاثة أسماء هي ايبيريا (Iberia) ، وهي تسمية يونانية ، واسبانيا (Spania) وأصلها (Hispania) ، وهي تسمية رومانية ، والأندلس (Andalucia) وأصلها (Vandalucia) نسبة الى الوندال (Vandals) ، اسم القبائل المتبربرة التي استوطنت شبه الجزيرة ، الى أن طردها منها القوط الغربيون (Visigoths) الى شمال افريقيا ، كما رأينا فيما تقدم . وكان « الأندلس » هو الاسم الذي عرف به العرب اسبانيا ، وان كان يقتصر الآن على ذلك الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، الذي يضم أهم البلدان التي اتخذها العرب عواصم لهم أو استقروا فيها ردحاً طويلاً من الزمن ، أي المنطقة التي تضم قرطبة (Cordoba) وغرناطة (Granada) واشبيلية (Sevilla) والمرية (Almeria) ومالقة (Malaga) حتى الحدود مع البرتغال .



جامع باب المردوم بطليطلة .

ومع ان القوط استطاعوا اقامة قوة عسكرية لا يستهان بها في اسبانيا ، إلا أن الحكم الذي اقاموه فيها كان حكماً كريهاً يقوم على الطبقية والاستعباد والظلم . وعشية الفتح الاسلامي انقضّ أحد قواد الجيش واسمه لذريق (Rodrigo) على الملك غيطشه (Witiza) واعتلى العرش . غير ان انصار الملك السابق واصلوا محاولاتهم استعادة العرش، الأمر الذي أدى إلى المزيد من الاضطراب المستفحل أصلاً في البلاد.

وعلى الشاطىء المقابل لجنوب اسبانيا ، التي كانت تئن تحت وطأة مشاكلها الداخلية ، وترزح تحت اثقال الفتن التي كانت تنخرجسدها،كان رجلان ، احدهما في طنجة ، والآخر في سبتة ، ينظران الى الشاطىء المقابل ، شاطىء اسبانيا .

كان رجل طنجة ـ موسى بن نصير، وهو يمعن النظر في الشاطىء المقابل يسترجع احداث غزوات حسان بن النعمان يوم قضى على قرطاجنة ، القاعدة البيزنطية، وهروب فريق من الناجين منها الى صقلية وجزر البليار قبل عشرين عاماً، مما استرعى أنظار العرب الى أهمية هذه البلاد استراتيجياً.

وتلفت موسى حوله ليرى الجند الذين احترفوا القتال ، وقد أصبحوا يشعرون بالقلق بعد أن توقفت المعارك ، فغدوا كخيولهم الجامحة لا يعرفون الى الاستكانة سبيلا . وتذكر النزعة القتالية التي يتسم بها جنود البربر المتوثبون ابداً للقتال والانقضاض والتحرك ، وشرد بذهنه الى مقر الخلافة ، الذي اصبحت تختمر في أرجائه نزعة الى التوسع والانطلاق . واستدار جنوباً فلم ترق له مجاهل الصحراء ، ولم يجد فيها ما يستحق المخاطرة . أما هناك . . . وقد عاد بأنظاره الى الشاطىء المقابل . . .

هناك أراض تزخر بالخيرات ، وتشكل درعاً لولاية المغرب . والجند متحفزون ولهم فيها اسلاب وغنائم . . .

أما رجل سبتة ـ جوليان ، الذي تضاربت في أصله الأقوال، والذي يغلب الظن على أنه يرجع بأصله الى البيزنطيين ، والذي بسط سلطانه على رقعة ساحلية ،

عندما أخذت تهوي دعامات الامبراطورية البيزنطية فيها ، فكان هو الآخر يحدق النظر الى الشاطىء المقابل ، شاطىء اسبانيا ، واخذ يستعرض الأحداث التي تعرضت لها اسبانيا ، حيث سقط الملك غيطشة الذي كانت تربطه به مصالح أصبحت الآن في مهب الريح . فماذا لو امكن اعادة العرش الى ابنائه ؟ ألن يكون في ذلك خيره وفلاحه ؟ . ومن سبتة التفت يساراً الى طنجة .

كان رجل طنجة قد عاد الى مقر حكمه في القيروان ، بعد أن عيّن حاكماً بربرياً لطنجة اسمه طارق بن زياد ، كان قد خبره في قيادة حملات الفتح الأخيرة ، وعمليات التمشيط النهائية . ولكن موسى بن نصير ، إذ عاد الى القيروان ، فقد ظل يرقب في مخيلته ذلك الشاطىء المقابل الذي طالما حدّق اليه النظر .

وذات يوم جاء من سبتة من همس باذن طارق في طنجة قولاً لقي في نفسه صدى طيباً ، فاستشار القيروان ، فاستجابت . وتواصلت الاتصالات بين طنجة والقيروان ودمشق من ناحية ، وبين سبتة وحلفاء رجل سبته في اسبانيا من ناحية اخرى . ومن القيروان انتقل موسى بن نصير الى طنجة ، للاشراف على التخطيط . وكان الدور الذي تعهد بالقيام به جوليان ، رجل سبتة ، هو اعطاء المعلومات اللازمة لتخطيط الحملة ، وايجاد حلقات الصلة اللازمة في الأرض الجديدة . وقد استطاع جوليان اقناع الجانب الاسباني الناقم على الحكم ، بأن العرب اذا غزوا بلادهم ، فهم غير باقين فيها ، وان رائدهم الوحيد هو المغنم العابر ، وانهم ، وهم في سبيل ذلك ، سيقضون على النظام القائم وتعود الحالة الى ما كانت عليه لما فيه مصلحتهم .

ولربما كان وراء نقمة جوليان على لذريق ، وحرصه على إطاحته دوافع أخرى . فقد ورد في بعض الروايات ان لذريق كان قد اعتدى على ابنة جوليان التي كانت تعيش في قصر الملك السابق غيطشة عندما اطاحه لذريق ، شأنها في ذلك شأن كريمات العظماء والقادة اللاتي كن يقضين جزءاً من حياتهن في قصر الملك كوصيفات .

سبقت عملية الفتح ، غارات شنها الاسطول العربي من تونس ، استهدفت جزر البليار (Islas Baleares) الواقعة الى الشرق من شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي ميورقة (Mallorca) ، ومنورقة (Menorca) ، ويابسة (Ibiza) ، وذلك عام 708/89 . أما عملية الفتح فقد بدأت عام 710/91 بارسال سرايا استطلاعية ، قوامها نحو خمسمائة رجل ، بقيادة طريف بن مالك المعافري ، نزلت في جزيرة بالوما (Islas de las Palomas) ، وعرفت فيما بعد باسم جزيرة طريف (Tarifa) . وقيل ان طريفاً التقى فيها ببعض مؤيدي الملك السابق غيطشة ، وعاد بما سعى اليه من معلومات ، وكان في ما جاء به طريف ما طمأن موسى بشأن نيات جوليان .

وفي شهر رجب / نيسان 711/92 أبحر طارق بن زياد القائد البربري على رأس جيش قوامه نحو سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر . وكان لهذا النهج نتائج فورية ايجابية ، اذ كرس بذلك العلاقة الطيبة التي بدأت تشتد أواصرها بين العرب والبربر ، وعبأ الطاقة القتالية الهائلة لدى البربر ، واشركهم في لعبة المصير الذي كان ينتظر هذه المنطقة . وأنشأ موسى ، ربما بدافع التوازن ، مجلساً عسكرياً قيادياً معظم اعضائه من العرب . غير ان هذا النهج شكك في مقاصده بعض المؤرخين ، اذ رأوا فيه دفعاً بالبربر الى اتون المجهول في اعظم مغامرة قام بها العرب في تاريخهم ، وابقاء السادة العرب في مواقع القيادة الآمنة .

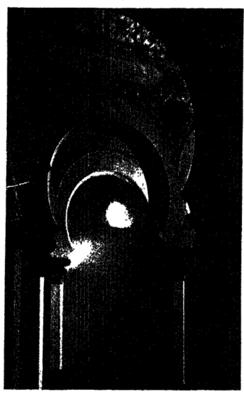
ومن سبتة اقلعت سفن طارق التي قدّم بعضها جوليان ، وان كان معظمها من الاسطول العربي ، الذي كان يتخذ من تونس قاعدة له . ورست سفن طارق عند شاطىء الجبل الذي اصبح يعرف باسمه حتى الآن ، جبل طارق (Gibraltar). وانطلق من هناك في جولات استكشافية ثم استولى على الجزيرة الخضراء (Algeeiras)، حيث وقعت معركة انتصر فيها طارق، قارعاً بذلك نواقيس الخطر لدى الملك القوطي لذريق، الذي كان غارقاً في حملات ضد البشكنس (الباسك) الثائرين في شمال شبه الجزيرة.

وكان لذريق قد استخف بالغزو العربي ، بادىء ذي بدء ، ظاناً أنه لا يتعدى ان يكون غزواً عابراً ، لا بد وان ينحسر بعد تحقيق مآربه من الأسلاب والمغانم . وكان موسى ابن نصير ، الذي ما فتىء يرقب الشاطىء المقابل من طنجة ، قد بعث بعدد آخر من المقاتلين البربر كذلك ، قيل انه بلغ نحو خمسة آلاف مقاتل ، بعد ان بلغه من طارق ان العدو بدأ يزحف من الشمال بجيش ربما بلغ عدده مائة الف من المقاتلين المتمرسين المدججين بالسلاح .

وانطلق طارق بقواته شمالاً (راجع الخريطة) إلى أن بلغ نهر برباط، عند اتصاله ببحيرة لاخوندا فالتحم الجيشان حيث كان لذريق على رأس جيشه الهائل بانتظار الغزاة. ودامت المعركة التي عرفت بمعركة « وادي لكة » اسبوعاً ، قاتل الجانبان فيها بشجاعة وشراسة ، الى أن انقشع اليوم الثامن عن نصر للمسلمين مبين ، فر بعده ملك القوط او قتل إذ اختفى اثره الى الأبد. أما كيف انتصر المسلمون على القوط ، رغم تفوقهم العددي والتجهيزي ، فمرده أولاً الى انضباطهم وايمانهم برسالتهم، والى الروح المعنوية العالية التي تحلوا بها إثر انتصاراتهم المتلاحقة في المغرب . اما الطرف الآخر ، فبرغم تفوقه العددي الخارق فإنه ، على خلاف خصمه ، كان يفتقر الى الايمان بقضيته ، ولا يكن لملكه المستبد الظالم أي محبة أو احترام بعد أن آثر القلة المستفيدة على السواد المحروم ، فباتت صفوفه ممزقة وانسلخت عنها قوات موالية للملك السابق غيطشة ، قدمت يد العون للمسلمين ، بفضل اتصالات جوليان ، رجل سبتة ، الذي زود المسلمين بقدر كبير من المعلومات العسكرية .

اذهلت نتيجة معركة « وادي لكة » جنود القوط الذين لم يعثروا حتى على ملكهم وقائدهم ، وتبعثروا في الأرض مذعورين ، فتابع طارق فلولهم وقضى عليها في استجة (Ecija) .

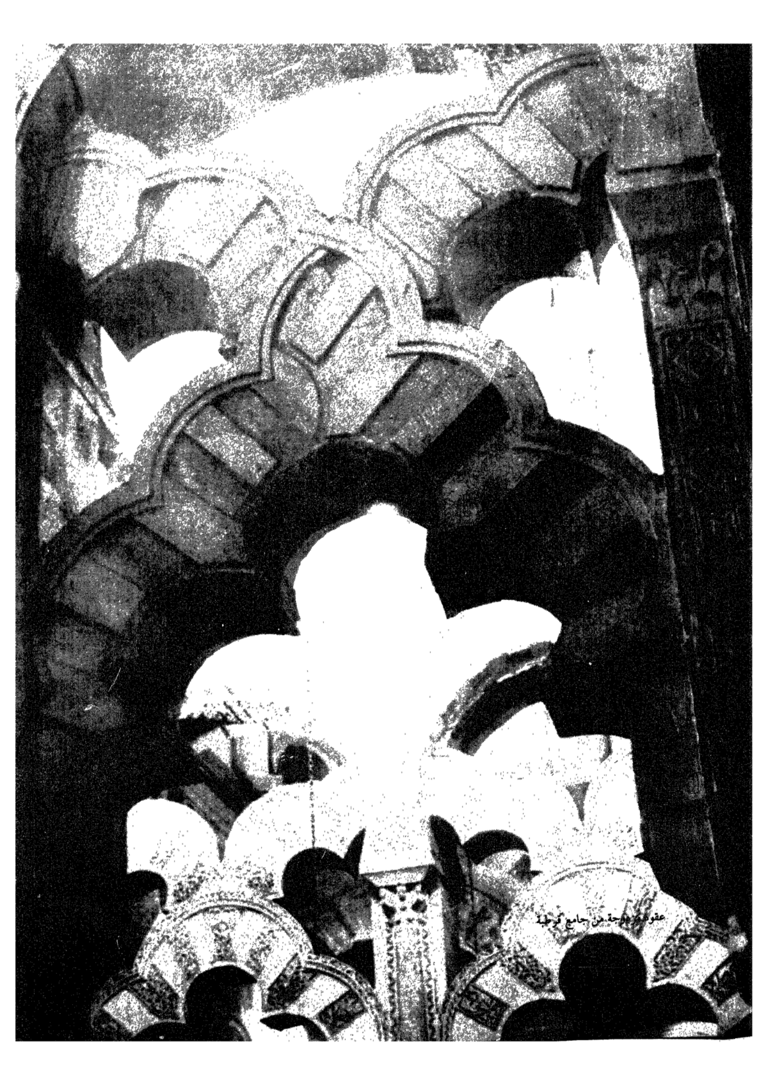
وما كاد الجند يلتقطون انفاسهم حتى كان طارق يأمرهم بالسير . فأي وقت انسب من الآن لمتابعة المسيرة . فالطريق أصبح ممهداً بعد ان تمزقت جيوش العدو وهامت على وجهها بدون قائد وبدون راية . ولم يلق طارق من بعد ذلك أية مقاومة تذكر عندما وصل الى قرطبة (Cordoba) ، ثم الى طليطلة (Toledo) التي كانت معقل الأسر النبيلة ورجال الحكم ، فضلاً عن أنها كانت تعتبر خزانة اسبانيا ، لما فيها من كنوز تعود الى الدولة ، والى



الكنيس اليهودي بطليطلة .

الكنيسة . ولم يجد طارق كبير مقاومة هناك ، اذ كان فيها عدد لا يستهان به من اتباع الملك السابق ، ناهيك باليهود الذين ابتهجوا لما حل بلذريق الذي اضطهدهم واثقل على كاهلهم الضرائب .

ولم يسترح طارق ولا جنوده طويلاً ، اذ كان لا بد من



عقود مزدوجة من جامع قرطبة

القضاء على الناجين الهاربين من طليطلة ، قبل أن يتمكنوا من اعادة تنظيم صفوفهم ، فطهر المنطقة المحيطة بوادي الحجارة (Guadalajara) ، وعاد الى طليطلة ، استعداداً للوثبة التالية ، وقد مضى على دخوله اقل من سنة ، استطاع خلالها ان يصل الى قلب شبه الجزيرة ، ويفرض سيطرة العرب عليها تماماً . وأخذ طارق يخطط ويتشاور مع قائده الأعلى المقيم في القيروان بشأن التحرك التالي .

أما انصار الملك غيطشة ، فسرعان ما ادركوا ان المسلمين مقيمون ، وانه لا بد من التفاهم معهم ، فتفاوضوا معهم ونالهم نصيب من الأرض وقسط من الاستقلال .

وفي غمرة هذه الفتوح والانتصارات بدأت تساور موسى بن نصير ، بعض المخاوف من انتشار قوات طارق القليلة في تلك المواقع النائية من هذه البلاد الجديدة ، فأقلع عام 712/93 على رأس جيش قوامه ثمانية عشر الف مقاتل معظمهم من العرب وحل بالجزيرة الخضراء (Algeciras) . وبعد التشاور مع جوليان ، الذي اصبح يقيم فيها ، وحصوله منه على المعلومات الضرورية ، بدأ مسيرته متخذاً طريقاً غير الطريق الذي سلكه طارق . وكان قصده من وراء ذلك فتح مدن جديدة وبسط السيطرة العربية عليها ، وليس كما ورد في بعض الكتابات المغرضة ، التي قالت ان ذلك كان من قبيل التعالي عن عبور المعابر التي مهدها مولاه طارق من قبله . وليس صحيحاً ، كما يؤكد بعض المؤرخين العقلاء ، ان موسى ذهب ليقتسم المجد مع طارق ، أو انه ذهب ليكبح جماحه أو ليغنم الكنوز التي لم تطلها بعد يد طارق . فموسى بن نصير حقق من الامجاد ما لم يحققه غيره ، وطارق ما كان سوى أحد قادته ، له ان يعزله متى شاء ، فضلاً عن أن ما غنمه طارق كان يذهب الى القيروان .

سلك موسى طريقاً آخر (انظر الخريطة) مبتدئاً بمدينة شذونة (Sedona) فاستولى عليها واكمل سيره شمالاً الى قرمونة (Carmona) الحصينة ، فحاصرها الى



باب غرناطة بقرمونة .

ان سقطت ثم انعطف غرباً الى اشبيلية (Sevilla) أهم أهداف مخططه .

لم يكن الاستيلاء على هذه المدينة العريقة ، التي تقع على نهر « الوادي الكبير » (Guadalguivir) بالأمر السهل . فقد كانت دار الملك قبل ايام القوط ، وأصبحت معقلاً لرجال الكنيسة الذين الهبوا الحماس الديني في صدور اتباعهم من أجل الدفاع عن بلدهم ومعتقداتهم . وطال حصار المدينة شهوراً عديدة ، وكان لليهود يد في سقوطها ، اذ تعاونوا مع قوات موسى . وعندما انهارت المقاومة انخرطوا في صفوف المقاتلين . واشتركوا مع البربر في الحامية التي بقيت في المدينة ، بعد القضاء على المدافعين عنها عام 713/94 .

وتابع موسى مسيرته الى ماردة (Merida) ، التي كبدت جيش المسلمين عدداً لا يستهان به من الضحايا قبل اختراق اسوارها الحصينة عام ٧١٣/٩٤ بعد حصار يقال انه استغرق ستة شهور ، وأقام فيها حامية عربية خالصة ،

مؤذناً بذلك ، بدء ارساء اركان السيادة العربية في كل ما يسيطر عليه العرب من بقاع .

ومن هناك اتجه الى طليطلة ، مقر طارق ، الذي ذهب لملاقاته قبل وصوله ، وعادا معاً الى طليطلة لتخطيط المرحلة التالية . ثم سارا معاً في حملة مشتركة الى سرقسطة (Zaragoza) عاصمة اقليم اراغون (Aragon) ، في الشمال الشرقي ، وبعد الاستيلاء عليها ، اتجه موسى شرقاً فاستولى على لاردة (Lerida) ثم على طركونة (Tarragona) الساحلية ، في حين سار طارق باتجاه الشمال الغربي الى ليون (Leon) ثم استورقه (Astorga) ، وطارد ما تبقى من فلول المقاومة .

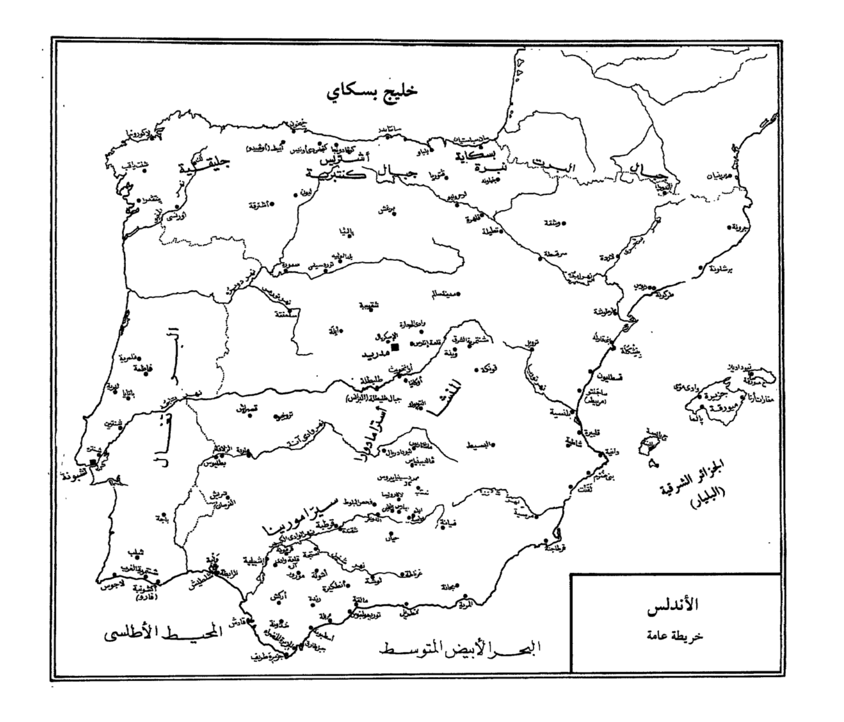
وفي غمرة هذه الدفعة العارمة من الحماسة ، ونشوة الفتح والانتصار ، جاء من يحمل الى موسى بن نصير واحداً من اقل القرارات حكمة في تاريخ العرب ، ألا وهو وقف التوسع ، ثم عودة القائدين موسى وطارق الى دمشق . كان ذلك عام 714/95 .

واتجه موسى بنظره شمالاً ، بعد أن قرأ قرار استدعائه الى دمشق ووقف الانتشار ، اتجه بنظره شمالاً الى المرتفعات الوعرة التي لم يطهرها بعد من المقاومة القوطية ، حيث ترعرعت بذور القومية الاسبانية فيما بعد ، وسببت الكثير من المتاعب للدولة العربية . ومنها امتد بصره عبر جبال البرت الشاهقة (البيرنيه) حيث دولة الفرنجة (فرنسا)، التي كانت تعاني ما كانت تعانيه اسبانيا من التمزق والفوضى ، والتي ربما لقيت نفس المصير الذي لقيته جارتها القابعة الى الجنوب على يد الجندي العربي ، الذي ما كان ليكبح جماح اقدامه كابح ، بعد جذوة الحماسة التي أوقدت روحه وشعلة الايمان التي عمرت صدره . وفاتت فرصة العمر التي لن تعود بعد ان تيقظ الفرنجة للخطر الداهم ، وبدأت أواصر النزعة الدينية توحد بين صفوفهم وتمدهم ، كما سنرى ، بالمؤازرة والتأييد من ممالك مجاورة .

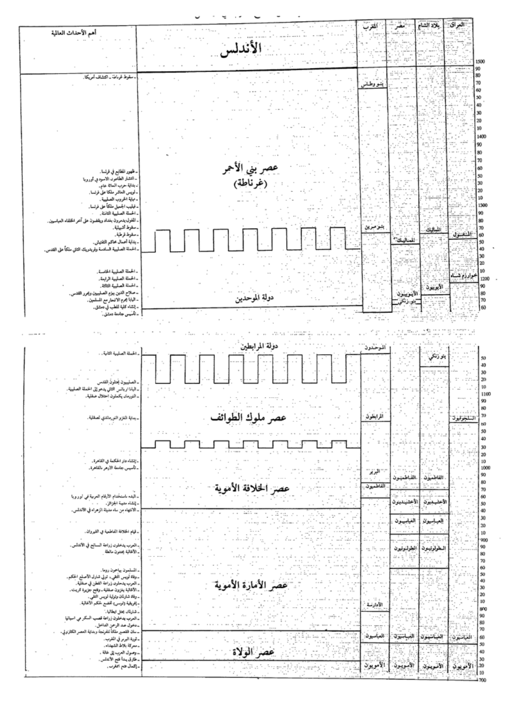
ولم يكن لموسى بد من الامتثال لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذي كانت تربطه به اواصر الصداقة والاحترام . فعاد ، ومعه طارق ، مروراً بطليطلة ، فقرطبه ، فاشبيلية ، حيث اتخذ ما كان عليه أن يتخذه من تدابير ادارية وعسكرية ، تضمن للوجود العربي بقاءه ، فجعل اشبيليه أول حاضرة لهذه الولاية الفتية ، وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وسار في موكب عرم زاخر بالغنائم والكنوز وبالأسرى والسبايا ، وقطع المضيق الى القيروان فمصر ففلسطين الى ان وصل الى دمشق ليقدمها للخليفة الوليد بن عبد الملك عام 715/96 قبل وفاة هذا الخليفة بنحو أربعين يوماً .

ولقد قيل في موسى الكثير . اتهم بالاختلاس وبالطموح وبالعصيان . غير أن شيئاً من هذا لم يثبت ضد هذا القائد العظيم . وقيل ان الخليفة استدعاه وكان يشعر بقرب منيته فأراد أن يضمن وصول الغنائم والكنوز اليه قبل موته لتظل لذريته ، دون أخيه سليمان بن عبد الملك ، الذي لم يكن بينهما كثير من الود . وقيل ان الخليفة الوليد ربما استدعاه ليعرف منه شخصياً ما وصل اليه الوضع في اسبانيا . ولكن لو صح هذا فلماذا استدعى أيضاً طارق وغيره من القادة ، إلا اذا كان قد بدأ يخشى من استقلالهم بهذه الأصقاع البعيدة عن قبضة الخلافة . ولربما كان هذا هو الدافع الحقيقي ، وهو الدافع ذاته وراء ابعاد الكثير من عظماء القادة عبر العهود ، وتغييبهم في زوايا النسيان .

غاب البطلان العظيمان موسى وطارق ، كما غاب من قبلهما حسان بن النعمان وغيره ، وكان لغيابهما عن الساحة الجديدة أثره النفسي البالغ بين الجنود الذين عملوا تحت إمرتهما وانضبطوا في ظل قيادتهما الحازمة الحكيمة . وما كان أشد حاجة هؤلاء الى يد قوية توحد ولا تفرق ، وتمسك بدفة الحكم وتدرأ عنه اخطار الطامعين، وتضرب على يد العابثين . وما كان أشد حاجة هذه الدولة الفتية الى الاستمرار ، استمرار القيادة المحنكة الخبيرة ، التي خططت لهذا الفتح ونفذته مما يشبه الإعجاز ، تلك القيادة التي كانت تعلم ما يكمن في تلك المرتفعات المطلة عليها من الشمال ، والخطر الرابض خلفها ، القيادة التي كانت تتأهب للوثوب في ما كان عدوها يلهث ويجرّر ذيول هزيمته وعاره .



الأندلس
خريطة عامة
خليج بسكاي
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
الجزائر الشرقية (البليار)
جليقية
أشتريس
جبال كنتبرية
بسكاية
نبرة
مدريد
طليطلة
قرطبة
سيرا مورينا
أشبونة
بلنسية
سرقسطة
برشلونة
ميورقة



أهم الأحداث العالمية
الأندلس
المغرب
مصر
بلاد الشام
العراق
سقوط غرناطة ـ اكتشاف أمريكا.
ظهور المطابع في فرنسا.
انتشار الطاعون الاسود في أوروبا
بداية حرب المائة عام.
لويس العاشر ملكاً على فرنسا.
نهاية الحروب الصليبية.
فيليب الجميل ملكاً على فرنسا.
الحملة الصليبية الثامنة.
المغول يدمرون بغداد ويقضون على آخر الخلفاء العباسيين.
سقوط أشبيلية.
سقوط قرطبة.
بداية أعمال محاكم التفتيش.
الحملة الصليبية السادسة وفريدريك الثاني ملكاً على القدس.
الحملة الصليبية الخامسة.
الحملة الصليبية الرابعة.
الحملة الصليبية الثالثة.
صلاح الدين يهزم الصليبيين ويحرر القدس.
البابا يحرم الاتجار مع المسلمين.
إنشاء كلية للطب في دمشق.
تأسيس جامعة دمشق.
عصر بني الأحمر
(غرناطة)
دولة الموحدين
بنو وطاس
بنو مرين
المماليك
الأيوبيون
بنو زنكي
المغول
خوارزم شاه
الحملة الصليبية الثانية.
الصليبيون يحتلون القدس
البابا اربانس الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية.
النورمان يكملون احتلال صقلية.
بداية الغزو النورماندي لصقلية.
إنشاء دار الحكمة في القاهرة.
تأسيس جامعة الأزهر بالقاهرة.
البدء باستخدام الأرقام العربية في أوروبا
إنشاء مدينة الجزائر.
الانتهاء من بناء مدينة الزهراء في الأندلس.
قيام الخلافة الفاطمية في القيروان.
العرب يدخلون زراعة السبانخ في الأندلس.
الأغالبة يحتلون مالطة
المسلمون يهاجمون روما.
وفاة لويس التقي، تولي شارل الأصلع الحكم.
العرب يدخلون زراعة القطن في صقلية.
الأغالبة يغزون صقلية ـ وفتح جزيرة كريت.
وفاة شارلمان وتولية لويس التقي.
إفريقية (تونس) تخضع لحكم الأغالبة.
شارلمان يحتل ايطاليا.
العرب يدخلون زراعة قصب السكر في اسبانيا
دخول عبد الرحمن الداخل.
بان القصير ملكاً للفرنجة وبداية العصر الكارلوني.
ثورة البربر في المغرب.
معركة بلاط الشهداء.
وصول العرب إلى غالة.
طارق يبدأ فتح الأندلس.
إكمال فتح المغرب.
دولة المرابطين
عصر ملوك الطوائف
عصر الخلافة الأموية
عصر الأمارة الأموية
عصر الولاة
الموحدون
المرابطون
البربر
الفاطميون
الأدارسة
العباسيون
الأمويون
الإخشيديون
الطولونيون
السلجوقيون
1500
90
80
70
60
50
40
30
20
10
1400
1300
1200
1100
1000
900
800
700

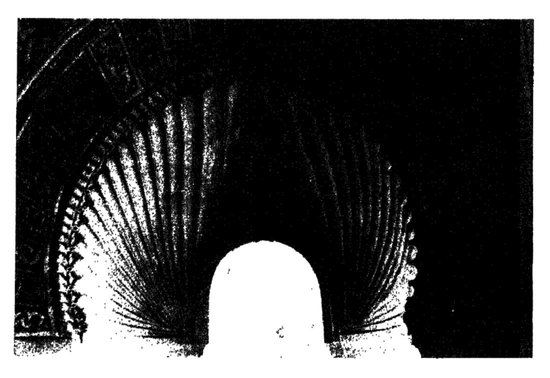
الفصل الثاني

«الفجر»

لم يخيّب عبد العزيز آمال ابيه موسى بن نصير . فما كادت مواكب النصر التي سارت في ركاب ابيه نغيب عن ناظريه ، حتى تحرك على رأس قواته ، مستكملا ما بدأه أبوه وطارق من قبله ، فاتجه غربا (انظر الخريطة) نحو ما يعرف الآن بالبرتغال، بادئاً بمدينة يابره (Evora) ومنها الى شنترين (Santarem) وقلمرية (Coimbra) ، ثم اتجه الى الشمال الشرقي ، فأخذ استورقة (Astorga) القريبة من ليون ، حيث وصلت من قبله طلائع جيش طارق . واتجه من هناك جنوباً فاستولى على مالقة (Malaga) ، التي قيل انها سلمت اليه من اليهود بعد استيلائهم عليها من الداخل، ومن هناك انعطف الى الشمال، ففتح مدن الساحل، الى أن وصل الى طركونة (Tarragona)، آخر المعاقل التي اكتسحها أبوه من قبله، ومنها إلى الشمال الغربي، عبر وشقة (Huesca) حتى بنبلونة (Pampalona) .

وبنظرة واحدة الى خريطة شبه جزيرة ايبيريا كما كانت، بعد نحو ثلاث سنوات تقريباً منذوطىء طارق ارضها ، يتضح ان القبضة العربية قد امسكت بالبلاد بكاملها ، لولا بعض الجيوب في أقصى الشمال ، اهملها العرب أو امهلوها ، أو أن الأحداث التي تعاقبت أدت الى تأجيل الاهتمام بها ، وبالتالي الى تزايد صعوبة تطهيرها ، ثم الى تحولها الى سيف ظل مسلطاً ، كما سنرى ، على رقاب العرب ، الى أن هوى عليها وأطاحها في آخر الأمر .

وما كادت تمر سنة واحدة على ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير، حتى هوى سيف الخلافة عليه، فأودي برقبته في واحدة من حوادث الاغتيال السياسي العديدة التي شهدها الحكم العربي آنذاك في شبه الجزيرة ، والتي يرجع معظمها لأسباب نابعة من القبلية ، المرض العضال الذي عانى منه العرب منذ الأزل ، وما زالوا يعانون منه ، وان كانت تسميته قد اختلفت الآن. وقد قيل في عملية الاغتيال هذه ان الخلافة كانت تخشى من قبضة اسرة موسى ابن نصير، بعد أن غاب رئيسها الذي توفي قبل ابنه بسنة



قصر مالقة داخل القصبة حُوِّل الى متحف .



بوابة سوق مالقة .

واحدة ، وانها اصبحت تساورها الشكوك في اخلاص عبد العزيز الذي كاد يخضع لتأثير القوط بعد ان تزوج من أرملة الملك لذريق .

وهكـذا سقط أول رأس في سلسلة الـرؤوس الـتي تجندلت خلال عهد الولاة وبعده ، تزاحماً على السلطة او انتصاراً لقبيلة ، أو انتقاماً من أخرى، فضلاً عن عوامل اخرى عنصرية كما حدث بين البربر والعرب وبين طلائع المستوطنين المحليين والمستجدين من أهل الشام ، وما الى ذلك من تناقضات كانت لها آثارها الوخيمة على استقرار أوضاع هذه الولاية الفتية .

ولعل أبرز عيوب الاستيطان العربي ، فيما أصبح يسميه العرب بالأندلس ، كان الافتقار الى مخطط لصهر مختلف العناصر المتدفقة من افريقية والمشرق أولاً بأول في بوتقة واحدة اندلسية . غير ان القبلية التي فطر عليها كل من العرب والبربر ، والتي ظل يرعاها ويعززها الحاكم بعد الآخر ، إما لحمايته واستمداد سلطانه منها ، أو لتطويقها والتسلط عليها وكسر شوكتها ، كانت، على ما يبدو، اصلب من ان تنصهر في بوتقة المجتمع الجديد الذي لم تكن اركانه قد توطدت بعد على أي حال .

ولعل السبب في ذلك أن فكرة الاستيطان في هذه الأرض الجديدة لم تكن قد رسخت في الاذهان بعد ، بل ان أوائل هؤلاء المستوطنين ربما ظنوا ان فتح الأندلس لم يكن سوى حلقة جديدة في سلسلة الفتوح التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية ، وجاءت بهم الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وانهم ربما كانوا في طريقهم الى فتح بلدان جديدة أخرى .

وفي غياب مثل هذا المخطط ، ظلت القبلية هي الرباط الاجتماعي الوحيد الذي كان يشد القُطاعات الاجتماعية ذات الانتماء القبلي الواحد بعضها الى البعض الآخر ويباعد في الوقت ذاته بين القطاعات ذات الانتماءات الأخرى .

غير أن هذه التناقضات القبلية لم تقتصر على أوائل المستوطنين في الأندلس ، ولم تنحصر في الناحية الاجتماعية ، ذلك أن جذور القبلية كانت تمتد تحت رمال الشمال الافريقي الى حاضرة الخلافة حيث الانتماء القبلي ظل المعيار الأهم في اختيار الحاكم والوالي . وبالتالي فإن اتجاهات القطاعات القبلية في المجتمع الاندلسي كانت تتحدد حسب الانتماء القبلي لكل حاكم من الحكام .

فلا عجب اذن ان يتعاقب على الحكم اثنان وعشرون من الولاة خلال اثنين واربعين عاماً وان سبعة من هؤلاء الولاة لم تزد مدة ولاية أي منهم عن ستة أشهر وخمسة منهم عن سنة واحدة .

بيد أن عهد الولاة لم يكن قاتماً كما توحي به هذه الخلفية . فقد تواصلت عمليات الجهاد والفتح ، واقتحمت جيوش العرب جبال البرت، وتوغلت بعيداً في بلاد الفرنجة (فرنسا) ، الى جانب حملات تطهيرية كثيرة في مختلف أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية .

وفي بداية ولاية الحاكم الجديد ، ايوب بن حبيب

اللخمي ، الذي جاء بعد عبد العزيز ، والذي يقال انه كان له ضلع في اغتياله ، قام بنقل مقر الادارة من اشبيلية الى قرطبة ، وجعلها عاصمة الولاية الجديدة ، التي قدر لها أن تظل عاصمة الدولة ، ابان عهد الامارة ثم الخلافة حين بلغت قمة مجدها .

وتعاقب الولاة على الولاية ، كما تأرجحت تبعية الولاية ، بين القيروان ودمشق مقر الخلافة . وكان ذلك انعكاساً لعدم الاستقرار الذي شهدته الخلافة الأموية ولأهواء الحكام في قرطبة والقيروان ودمشق .

ولعل أول من تصدى لإرساء قواعد الادارة السليمة من هؤلاء الولاة ، السمح بن مالك ثالث الولاة . وكانت منجزاته الاصلاحية حجر الزاوية فيما عرفته الأندلس من نظم ادارية وعمرانية واقتصادية . غير ان مدة ولايته كانت قصيرة ، اذ نال الشهادة في طلوشة (Toulouse) ، في احدى الحملات التي قادها الى بلاد الفرنجة عام 721/102 ، حيث هزم العرب هزيمة نكراء .

غير ان هذه الهزيمة لم تفل من عزيمة العرب ، اذ بادر خليفته عنبسة بن سحيم الى الجهاد فسقط هو الآخر شهيداً عام 726/107 . وكان قد حاول اصلاح ما أفسدته العنعنات القبلية ، وسعى الى جعل المجتمع الاندلسي أكثر توازناً وانسجاماً . ولكن هيهات والقيروان قد غدت مسرحاً لاحقاد قيس ويمن ، تهب عليها رياح الكراهية والفتن ، التي كانت تصل الى الولاية الفتية وهي ما زالت تحبو نحو الاستقرار والبناء ، فتعصف بتلك النبتة الهشة ، قبل ان تترسّخ جذورها ويقوى عودها فتصمد لتلك الرياح وتلك الاخطار التي كانت تحدق بها من الشمال .

سبعة ولاة جاءوا وذهبوا بعد ذلك خلال فترة لم تزد عن سبع سنوات . وحتى الغافقي أعظم الولاة ، وأوسعهم خبرة ، وأرحبهم صدراً ، وأكثرهم شجاعة ، لم يطل بقاؤه اذ اختاره سبحانه وتعالى للشهادة في واحدة من أضخم حملات الجيوش العربية وأبعدها عمقاً في بلاد الفرنجة . سقط الغافقي في معركة بواتييه (Poitiers) عام 114 / 732 التي يمكن اعتبارها نقطة تحول في تاريخ أوروبا، بعد أن بدأت مقاومة الفرنجة للفتح العربي تأخذ شكل وحدة عسكرية أوروبية صليبية، هزمت جيش المسلمين وقطعت عليه سبيل العودة مرة أخرى، بل انها شجعت هذه العناصر المتحالفة على محاولة غزو المناطق الشمالية من الدولة العربية في الأندلس، والتحالف مع جيوب المقاومة الاسبانية، التي ظلت خارج السيطرة العربية.

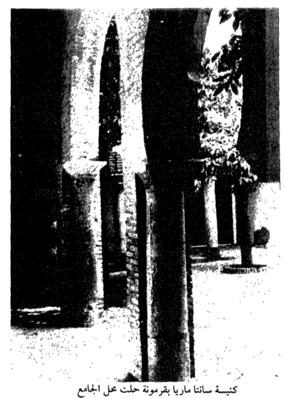
وكأن هذه الهزيمة ، وهزيمة عقبة بن الحجاج في معركة سبتمانيه (Septamanie) بقيادة شارل مارتل ، لم تكن كافية لقصم ظهر الولاية العربية في الأندلس ودفعها الى حافة الهاوية . فبالاضافة الى ما كانت تعانيه القيروان من مآسي الصراع والفتن ، التي بددت قواها ونخرت عظامها والقت بظلالها القاتمة على الأندلس ، وما كانت تشهده عاصمة الخلافة الأموية من تفتت وانهيار جعلها تقترب بسرعة من مرحلة النزع الأخير ، اتسع نطاق مرض العرب الأزلي فبلغ الأندلس ، بعد ان تطور الى مرض مركب جمع ، بالاضافة الى القبلية ، اعراض العنصرية ، فلم يعد مقتصراً على قيس ويمن بل تعداه الى شام وحجاز وإلى عرب وبربر والى وطنيين ومستجدين .

وكان مرجل الاحقاد يغلي بين البربر والعرب . وبدأت بذور التذمر تنبت بين البربر بُعيد استكمال عمليات الفتح الأولى التي قاموا بها هم وبقيادة واحد منهم . فقد غاب قائدهم الفاتح في متاهات الشرق العربي، وأسدل عليه ستار النسيان ، وهم قدموا من الشهداء آلافاً ولم يحظوا من مغانم الفتح إلا بأكفان موتاهم ومواقع جرداء يقتلعون عيشهم من صخورها . أما العرب فقد تبوأوا مراكز القيادة والسلطة ، وآلت لهم مراتع العيش الهنيء . وسواء كان سبب تذمرهم هذا يقوم على أساس صحيح ام لا ، إلا أن معاملة العرب للبربر ، في ما تلا من تطورات أدت ، ولا شك ، الى اشعال سلسلة من الثورات أقل ما يقال فيها انها اقضت مضجع العرب سواء في المغرب أو في الأندلس ، وسببت لهم الكثير من المتاعب ، وكبدتهم عدداً كبيراً من الأرواح .

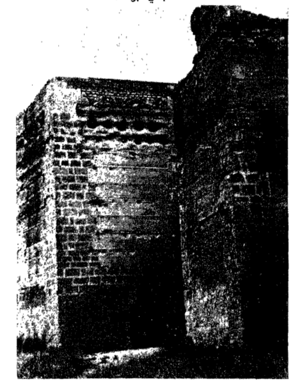
فقد كان المغرب يئن تحت وطأة التعسف الذي مارسه



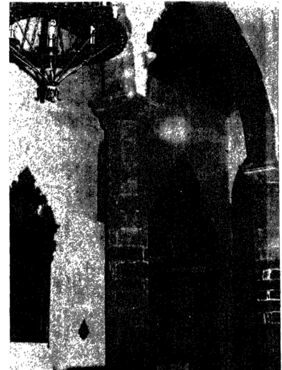
قلعة شلب في البرتغال



كنيسة سانتا ماريا بقرمونة حلت محل الجامع



قلعة جابر بالقرب من اشبيلية



جامع شلب حُوِّل الى كنيسة .

الوالي الذي كان من غلاة المتعصبين القيسيين . فقد أخذ يطبق نظاماً ضرائبياً مرهقاً ، ويعامل خصومه وكذلك البربر معاملة اتسمت بمنتهى القسوة والاحتقار ، الأمر الذي أثار ضغينة البربر على الحكم العربي ، وأشعل فتيل ثورة ضارية ، لم تقف عند حدود المغرب ، بل تعدته عبر المضيق الى الاندلس .

وفي الأندلس انتصر البربر لاخوانهم الذين كانوا يعانون القهر والاذلال . وكانت قد تسربت أفكار بثتها جماعات من الخوارج والاباضيين بين بربر المغرب ، داعية الى التحرر من نير العرب وظلمهم . ووجد تململ البربر في الأندلس ، وخاصة في الأجزاء الشمالية من البلاد ، تجاوباً عظيماً لدى بعض فئات الاسبان ، التي لم تخضع للحكم العربي ، فتحالفت معها وبدأت زحفها الجريء على أهم مواقع العرب في ثلاثة جيوش استهدفت طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء .

وكان العرب قد لقوا على يد البربر في المغرب ، الهزيمة تلو الأخرى ، بالرغم من القوات الهائلة التي بعثت بها الخلافة من دمشق ، وقدر عددها بثلاثين الفاً من المحاربين الشاميين الأشداء . غير أن عدم الانسجام بين الجيوش العربية القادمة ، التي كان جزء منها يتكون من الشاميين والآخر من أهل افريقية ، احبط محاولات العرب في القضاء على هذه الثورة الخطيرة . وهكذا لم يستطع العرب، حتى في احلك ظروفهم، وأكثرها خطورة ان ينسوا قبليتهم وعنصريتهم ، ولو الى حين . . . الى أن يدرؤوا الخطر الجاثم فوق صدورهم ويهدد وجودهم ومنجزاتهم .

واندحر العرب في عدة مواقع كان أهمها موقعة الاشراف، التي فقد العرب فيها كبار قادتهم واشرافهم وعدداً لا يحصى من الشهداء . وتوالت هزائمهم ، وفقدوا سيطرتهم على المغرب باستثناء جيب صغير استعصى على البربر ، قدر له ان يلعب دوراً حاسماً في ما بعد في الأندلس ، كما لعب في ما سبق ، عشية الغزو الا وهو « سبتة » .

غير ان العرب لم يستسلموا لليأس . فقد بعث الخليفة هشام بن عبدالملك بجيش قوي وصل الى المغرب حينما كانت قوات البربر مبعثرة على مسافات شاسعة من المواقع التي اغتصبوها من العرب . واستبسل العرب في دفاعهم وفي هجومهم ، الى أن تمكنوا من القضاء على ثورة البربر ، التي ظل اوارها يستعر في المغرب أكثر من سنوات ثلاث .

أما في الأندلس ، فكانت قوات البربر تشدد الخناق على اهم المواقع العربية بما فيها العاصمة قرطبة . ولم يكن عرب الأندلس افضل حالاً مما كان عليه اخوانهم عرب المغرب ابان المد البربري، بل لعلّهم كانوا أسوأ حالاً، تنهشهم القبلية وتفترسهم الأحقاد والكراهية والفتن ، وتطبق عليهم قوات البربر والاسبان بدون هوادة ولا رحمة ، حتى اخذت المواقع يسقط الواحد تلو الآخر ، والجيوش تندحر امام زحف البربر .

وكاد اليأس يأخذ من الوالي عبد الملك بن قطن مأخذه ، لولا ان تذكر صرخات الاستنجاد التي عبرت المضيق اليه من سبتة الواقعة على الحافة الغربية من شمال افريقية ، التي انطلقت منها سفن طارق . تذكر هذه الصرخات التي انطلقت من حنجرة بلج بن بشر القائد العربي الذي اعتصم بسبتة ، ذلك الجيب الذي استعصى على البربر عند ملاحقة فلول الجيوش العربية المندحرة . تذكر صرخات الاستغاثة التي وجهها اليه ، باسم العروبة والاسلام ، رأفة بجنوده الذين يتضورون جوعاً بسبب حصار البربر لهم . تذكر هذه الصرخات التي أدار لها ظهره ولم تحرك فيه عاطفة ، لا لشيء إلا لأن المستغيث شامي وجنوده شاميون ، والشاميون اعداؤه . تذكر كل ذلك وتذكر ان مع بلج سبعة آلاف مقاتل محاصرين يمكن الاستعانة بهم في محنته . وفي غمرة محنته هذه ، لم ينس أن هؤلاء الذين يريد الاستنجاد بهم شاميون ، وأنهم اذا ما عبروا ربما بقوا هناك . فاشترط خروجهم بعد انتهاء الفتنة حتى لو انقذوه ، فقبل بلج ، وما كان له غير القبول .

وما ان وصل بلج وجنوده ، حتى أخذ عبد الملك بن قطن منهم عدداً من الرهائن واحتجزهم في جزيرة صغيرة

ليضمن وفاء الشاميين بوعدهم بمغادرة الأندلس بعد انتهاء مهمتهم . وسارت القوات الشامية جنباً الى جنب مع القوات الاندلسية تحت قيادة واحدة ، بادئة بمنطقة الجزيرة الخضراء ، حيث قضت على جيش البربر ، وقطعت عليه سبل الاتصال بالمغرب ، ومن ثم الى قرطبة ، فانقذوها من براثن البربر واحاقوا بجيشهم ، ثم انطلقوا شمالاً الى طليطلة ، التي كانت تحاصرها قوات البربر لأشهر عديدة ، ففكوا الحصار عنها وقضوا على جيش البربر ، واخمدوا ثورتهم عام 741/124 التي عبأوا لها جميع قواتهم ، والتي استبسلت فيها القوات العربية ايما استبسال وخاصة القوات الشامية ، التي عرفت بشدة بأسها وشجاعتها وبراعتها القتالية .

وما ان انقشع غبار المعركة حتى راح عبد الملك بن قطن يطالب بلج بالرحيل حسب الاتفاق . فأين يذهب هؤلاء وقد طاب لهم المقام في هذا البلد الطيب . ألم يكن الفضل لهم في انقاذ الأندلسيين من الهلاك؟

تأزم الوضع بين البلديين الأصليين والشاميين الدخلاء، وتمخض عن صدام دفع بالشاميين الى الانقضاض على العاصمة، والى القبض على واليها وحبسه وتنصيب رئيسهم البلج حاكماً. ومن الطبيعي يتكتل أعوان الوالي المخلوع مع غيرهم من الرافضين للشاميين. , فقام حلف ضمّ كل من كان يخشى على كيانه من الخطر الجديد، حتى البربر. غير أن الوضع تفجر تماماً عندما مات، تحت وطأة التعذيب، أحد الرهائن الذين احتجزوا في الجزيرة، الأمر الذي دفع بالشاميين الى اقتحام دار الوالي المحتجز وقتله دون مراعاة سنه وقد جاوز التسعين.

وتوالت المعارك بين الشاميين والبلديين، وسالت دماء غزيرة بين الأخوة ، كان لا بد من وقف نزيفها . فاتجه بعض العقلاء الخيرين الى القيروان بحثاً عن حل لهذه الحرب الأهلية البشعة ، التي ازهقت ارواح الآلاف من الاشقاء ، وشجعت الاسبان في الشمال على تنظيم صفوفهم استعداداً للاندفاع جنوباً حيث الفاتحون القاهرون ، ينهش بعضهم البعض الآخر . وتدخلت الخلافة فعينت والياً جديداً هو ابو الخطار الكلبي ، الذي لم يعترض احد عليه ، فانتهج سياسة حكيمة قامت على التوازن والمصالحة . ولعل أهم ما تنبه اليه هذا الوالي الجديد ، ضرورة تفتيت التكتلات ، وتوزيع افرادها على مختلف المناطق ، واقصاء دعاة الفتن والاحقاد عن البلاد .

غير أن هذا الوضع لم يدم طويلاً . فإن هدأت حدة الضغائن بين البلديين والشاميين ففي الأندلس قيسيون ويمنيون . الوالي المصلح الوقور ابو الخطار اشعلها من جديد لأن صديقاً له يمنياً قتل على يد قيسي . نسي اعتداله ونسي مهمة الموازنة والمصالحة التي عين من اجل اقرارها لمجرد ان قيسياً قتل يمنياً . وبدأ تسلطه على القيسيين. وأخذ مرجل العصبية يغلي من جديد، الى ان حكم الوالي لصالح يمني في خلاف كان له مع قيسي ، فقامت قيامة القيسيين ، وبدأت تدخلات قيسية اشترك فيها زعيم قيسي كبير هوالصميل،غير ان الوالي رد مطالبه وأهانه . فاذا الدنيا تنقلب ، وتعود المعارك ، ويطيح القيسيون الوالي اليمني ، ويسيطرون على الحكم .

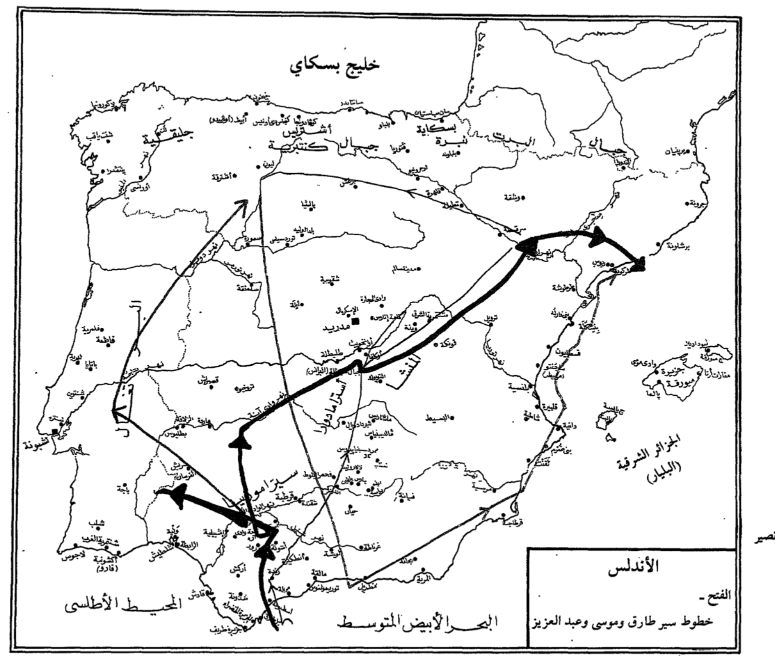
ويخرج الصميل من ذلك كله ملكاً غير متوج للأندلس. وكان الصميل شجاعاً وفارساً وكريماً، وكان داهية ومزاجياً لعب بمقدرات الأندلس بذكاء خارق من خلف ستار . اما الوالي الجديد يوسف الفهري فقد كان منصبه رمزياً ، ذلك ان خيوط اللعبة السياسية كانت مشتبكة باصابع الصميل الذي قنع بحكم مدينة سرقسطة في الشمال ، وكان العرب يطلقون عليها اسم المدينة البيضاء . وظل الوضع على هذا الحال بين محاولات الفهري الرامية الى تعزيز حكمه ، ومحاولات اليمنيين استعادة نفوذهم وسلطتهم ، فقامت التكتلات ونشبت المعارك . وحبكت المؤامرات التي لم تختلف عن غيرها من المؤامرات والصراعات التي شهدها حكم الولاة منذ أول والٍ عرفته الأندلس خلال عهد الولاة .

في هذه الأثناء اطاح العباسيون الحكم الأموي ، فغربت شمسهم في المشرق ، لتشرق في المغرب .

1 ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير	714/95
2 ـ أيوب بن حبيب اللخمي	716/97
3 ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفي	716/97
4 ـ السمح بن مالك الخولاني	719 /100
5 ـ عبد الرحمن الغافقي (الولاية الأولى)	721/102
6 ـ عنبسة بن سحيم الكلبي	721/103
7 ـ عذرة بن عبد الله الفهري	725/107
8 ـ يحيى بن سلمة الكلبي	726 /107
9 ـ حذيفة بن الأحوص القيسي	728/110
10 ـ عثمان بن أبي نعسة الخشعمي	728/110
11 ـ الهيثم بن عدي الكلابي	729/111
12 ـ محمد بن عبد الله الأشجعي	730 /112
13 ـ عبد الرحمن الغافقي (الولاية الثانية)	730/112
14 ـ عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الأولى)	732/114
15 ـ عقبة بن الحجاج السلولي	734/116
16 ـ عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الثانية)	742/123
17 ـ بلج بن بشر القشيري	742 /124
18 ـ ثعلبة بن سلامة العاملي	742/124
19 ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	743/125
20 ـ ثوابة بن سلامة الجذامي	746/128
21 ـ عبد الرحمن اللخمي	746/129
22 ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري	747/129

جدول بياني لعصر الولاة

	الخلافة الأموية في دمشق	فتح المغرب والأندلس ـ وعصر الولاة	الخلفية السياسية والعسكرية في العالم
770			ـ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام: سكانها قبائل غير خاضعة لأي نوع من الحكم المركزي، تعيش على الغزو وتدين بالوثنية كانت مكة المركز الديني والتجاري حيث كانت تمر بها قوافل التجارة بين الهند والبحر المتوسط وكان الصراع والتنافس قائماً بين امبراطوريتي الفرس والبيزنطيين على سيادة العالم. وفي عام ٥٧٠ (عام الفيل) أرسل الفرس جيشاً إلى اليمن فأخرج منها الأحباش.
765			
760			
755		ـ سقوط آخر الولاة يوسف الفهري على يد عبد الرحمن الداخل.	
750	ـ سقوط الأمويين وهروب عبد الرحمن.		ـ الامبراطورية الرومانية: كانت قد انقسمت إلى امبراطوريتين: الرومانية (روما)، والبيزنطية (القسطنطينية) وكانتا مهترئتين تقريباً. وكانت الامبراطورية الرومانية تئن من وطأة التمزق وتعاني من نهش القبائل المتبربرة في جسدها.
745	ـ مروان الثاني		
	ـ إبراهيم بن الوليد الأول.	توفى الحكم ٢٢ من الولاة:	ـ الامبراطورية البيزنطية: كانت تسيطر على سواحل الشمال الأفريقي وكان وجودها هناك مقتصرا على الناحية العسكرية.
	ـ يزيد الثالث بن الوليد الأول.		
740	ـ الوليد الثاني بن يزيد الثاني.	دام ٦ منهم أقل من ٧ أشهر دام ٥ منهم أقل من ١٢ شهراً	
735			ـ مملكة الفرنجة (فرنسا): كان نظام الدولة الميروفنجية متخلفاً وعاجزاً عن ممارسة أي دور تاريخي فتجزأت البلاد إلى ثلاثة أجزاء هي استراسيا ونوستريا وبرغندية. وكان الاقطاع متفشياً فيها وانهارت سلطة الملوك، ثم وحدها بيان دي هيرستال وبعد موته جاء حفيده شارل مارتل (المطرقة) فوحد البلاد وعزز قوتها بعد أن شعر بالخطر العربي.
730			
725	ـ هشام بن عبد الملك.		
720	ـ يزيد بن عبد الملك.		ـ شبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا): بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شرقية (بيزنطة) وغربية (روما) زحفت أمواج القبائل المتبربرة (الوندال) إلى شبه الجزيرة الايبيرية واستقرت فيها إلى أن طردتها قبائل القوط الغربيين إلى شمال افريقية، وكان يجلس على عرش أسبانيا عشية الفتح لذريق بعد أن أطاح بالملك غيطشة الذي كان أنصاره يتحفزون للانتقام منه واستعادة العرش. وكانت أوضاع البلاد الداخلية سيئة للغاية، يتهددها التمزق والحروب الأهلية وتعاني من أخطر المحن.
	ـ عمر بن عبد العزيز.		
715	ـ سليمان بن عبد الملك		
		ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير ـ أول الولاة (أشبيلية).	
710		ـ فتح الأندلس: طارق بن زياد ثم موسى بن نصير	
		ـ تعيين موسى بن نصير.	
705	ـ الوليد بن عبد الملك.		
700			ـ الدولة الأموية في دمشق: كانت الدولة الأموية تعاني من المناحرات والصراعات القبلية، وتغلب على حكامها حياة الترف والتبذير وعجزوا عن مواكبة التوسع العسكري بإقامة الدعامة الإدارية التي تستطيع الارتقاء بالحكم إلى مستوى المسؤولية. وبدأت الدولة تتآكل بعد هشام بن عبد الملك إلى أن انسلخ الأندلس عنها إدارياً، ثم ما لبثت أن انهارت على يد العباسيين الذين قضوا على بني امية جميعهم باستثناء عبد الرحمن الذي تمكن من الهرب إلى المغرب ثم إلى الأندلس ليقيم فيها دولة أموية بادئاً بذلك عهد أمراء بني أمية.
695		ـ تعيين حسان بن النعمان حاكماً وقائداً.	
690			
685	ـ عبد الملك بن مروان.	ـ هزيمة العرب وعودتهم إلى برقة.	
	ـ مروان الأول ابن الحكم.		
	ـ معاوية بن يزيد.		
680	ـ يزيد بن معاوية.		ـ المغرب: بعد انتشار البرابرة الونداليين في شمال أفريقية، عزز البيزنطيون وجودهم في المغرب وانتشروا بين طرابلس وطنجة دافعين بالبربر إلى المناطق الداخلية وظلوا هم في المناطق الساحلية محتفظين بحاميات عسكرية فقط في مناطق استراتيجية. وظل البربر والبيزنطيون يقاومون الغزو العربي لشمال أفريقية متكسبين هاماً، إلى أن تم القضاء على الوجود البيزنطي نهائياً وإخضاع البربر على يد موسى بن نصير.
675			
		ـ تعيين عقبة حاكماً لولاية أفريقية.	
670		ـ إنشاء القيروان.	
665		ـ بدء فتح المغرب بعد مصر بقيادة عمرو بن العاص/عقبة بن نافع.	
661	مقتل علي وإعلان معاوية نفسه خليفة.		
656	مقتل عثمان ومبايعة علي بن أبي طالب.	ـ ثورة البصرة.	
644	مقتل عمر ومبايعة عثمان بن عفان.	ـ فتح قبرص وطرابلس وأرمينيا وافغانستان والسند.	
634	وفاة أبو بكر الصديق ومبايعة عمر بن الخطاب.	ـ فتح سوريا وفلسطين وشمال مصر والعراق وغرب بلاد الفرس والمغرب حتى سرت.	
632	وفاة الرسول ومبايعة ابو بكر الصديق.	ـ حروب الردة.	
630	سقوط مكة بيد المسلمين.		
622	هجرة الرسول إلى المدينة.		
610	بدء الدعوة إلى الإسلام.		
570	مولد محمد (ﷺ) عام الفيل.		



الأندلس
الفتح -
خطوط سير طارق وموسى وعبد العزيز
خليج بسكاي
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
الجزائر الشرقية
(البليار)
جبال كنتبرية
مدريد
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
مالقة
غرناطة
برشلونة
سرقسطة
طارق بن زياد
موسى بن نصير
عبد العزيز موسى بن نصير

الفصل الثالث

«الشروق»

عصر الامارة

انتزعت نشوة النصر من قلوب العباسيين آخر ذرات الرحمة عندما اعملوا سيوف الحقد والكراهية في رقاب بني أمية ، وزحفت جيوشهم تقلب الأرض بحثاً عن الهاربين ، فلم تراع امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً منهم . ولم ينج من البيت الأموي إلا واحد، لم تنطل عليه حيلة العفو التي أعلنها العباسيون عن الأسرة الأموية ، ثم غدروا بمن سلم منهم نفسه . التحف بسواد الليل ينتقل من مخبأ الى آخر ، الى أن داهمه الجند ، فأفلت من بين أصابعهم ، والقى بنفسه في مياه الفرات ، وغاب عن انظارهم ، وظل يسير متخفياً حتى بلغ تونس عبر فلسطين ومصر وبرقة ، يرافقه غلامه بدر .

ـ ذلك هو **عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم** الذي سيصبح أول أمير للدولة الأموية المستقلة في الأندلس ، والذي سيعرفه التاريخ باسم صقر قريش عبد الرحمن الداخل .

ظل عبد الرحمن شريداً يجول في أرجاء المغرب، ينتقل من قرية الى قرية ، ومن قبيلة الى أخرى ، مرة في الخفاء ، وأخرى في العلن ، يستطلع أوضاع هذه البلاد ، بحثاً عن موقع له فيها ، موقع وريث الخلافة الأموية ، في هذه الولاية التي لم تعترف بنظام العباسيين ، والتي كان واليها يطمع في الاستقلال بحكمها .

لم يقنط عبد الرحمن من صدود القبائل وفتور الأمويين الذين فروا الى المغرب هرباً من سيوف العباسيين ، ولكنه ادرك صعوبة اقتحام الحكم في المغرب . وساقته قدماه الى سبتة ، سبتة التي قفز منها العرب الى شبه الجزيرة الايبيرية بقيادة طارق ، ثم بقيادة موسى ، وهي التي حوصر فيها بلج وجنوده الشاميون وذاقوا فيها مذلة الجوع والعري .

وفي سبتة وقف عبد الرحمن يستعرض حياته ، فقد قيض الله له النجاة من جلادي بني العباس ، فهرب ولم يكن عمره يزيد عن العشرين ، وها هو الآن بعد خمس سنوات من التشرد ، لا يرى في آفاق المغرب ما يضمن له عيشاً كريماً، ولا ما يحقق طموحه. ولئن كانت مخالب العباسيين لم تصل بعد الى القيروان، فإنها قد تصل اليها في وقت ليس ببعيد . وان افلت مرة من سيوف جلاديهم، فلربما اطبقت عليه مخالبهم هذ المرة.

ومن شاطىء سبتة سرح بأنظاره الى الشاطىء المقابل ، الى الأندلس ، حيث له أقرباء امويون هربوا هم كذلك من نير العباسيين واستقروا هناك . فلم لا يلحق بهم هو الآخر ؟ بل لا بد من اللحاق بهم ، ولا بد لهم من مساعدته ومناصرته . فهو أموي منهم ، وهو وريث الخلافة الأموية .

وبدأت صورة العرش الأموي الجديد تكتمل في مخيلته . وتزاحمت في رأسه التساؤلات . ترى هل تنجح مخططاته ؟ هل يجد من يعينه ؟ هل يستطيع وحده أن يحقق احلامه الكبيرة هذه .

لم يستغرق في التفكير طويلاً . كان يعرف الاجابة عن هذه التساؤلات . فالأندلس كانت غارقة في خضم الفوضى والتفكك والتناقضات السياسية والقبلية . والشرعية كانت تتقاذفها رياح الفرقة والصراعات . والقيروان لم تعد تستمد شرعية الحكم فيها من دمشق ، بعد أن زال الحكم المركزي فيها، ولا هي تابعة للعهد الجديد في بغداد . والشرعية اذاً في يد الأقوى .

وعاد بنظره الى الشاطىء المقابل . فالصميل محاصر في عاصمة ولايته في الشمال والفهري يتقاعس عن نجدته ، متذرعاً بمشاغل درء الخطر المحدق بقرطبة عاصمة الدولة .

وكان بدر ، غلام عبد الرحمن الذي سار معه من دمشق هرباً من العباسيين ، يقف الى جانب سيده يراقب نظراته المحدقة الى الشاطىء المقابل لسبتة . وكان يعرف ما يدور بخاطر سيده لأنه اعلم الناس به . . فانطلق الى الأندلس وكان يعرف الدور الذي اراده له سيده .

وعاد بدر بالاخبار المشجعة . وبدأت الاستعدادات على ضفتي المضيق . وفي صيف عام 755/138 ركب عبد الرحمن البحر وحلّ في قرية طرش (Torrox) . وكان

كل من والي الأندلس يوسف الفهري والصميل يحاول اطفاء الفتن والثورات المستعرة في البلاد. كان أحدهما يقاتل البربر واليمنيين في سرقسطة، والآخر يؤدب البشكنس (الباسك) في أقصى الشمال . وكان جنودهما يلهثون تعباً وارهاقاً ، بعد عشر سنوات من القتال الذي لم يتوقف. وبدأ عبد الرحمن زحفه في ربيع العام التالي لوصوله ، بعد أن نظم انصاره في جيش بلغ عدده الفين من الفرسان الأشداء ، سرعان ما انقض به على قوات الفهري والصميل، التي كانت تتسابق معه باتجاه العاصمة قرطبة، فمزقها بسرعة وهرب الفهري والصميل وبدآ يعدان للجولة التالية.

أما عبد الرحمن فقد استولى على قرطبة عاصمة الولاية بدون عناء يذكر ليرسي أساس الحكم الأموي الذي بدأ كإمارة وانتهى كخلافة . ولم يكن عبد الرحمن كغيره ممن تبوءوا مقاليد الحكم من قبله في قرطبة. فمطامحه لا تعرف حدوداً . وهو لن يتبع احداً ، لا في القيروان ولا في بغداد . وكان همه الأول انشاء جيش قوي مدرب ، لا مكان فيه لمتردد أو متخاذل ، يقوم على الولاء المطلق لفرد واحد ، له هو . فأمامه برامج واسعة عظيمة ، يريد تحقيقها وهو في مأمن من غدر الغادرين وكيد الطامعين وحقد المقهورين . وكان يريد تصفية الاحقاد والتعصب واقامة مجتمع يعيش للخير ويهنأ بحياة راغدة كريمة في بلد ينضح بالخير ويطفح بالجمال ، لا محل فيه لكراهية ولا لقبلية ، يعيش كأسرة واحدة متجانسة متحابة .

كان عبد الرحمن يعلم ان تحقيق ذلك ليس بالأمر الهين في هذا المجتمع الذي تغدقت أرضه بدماء التعصب والبغضاء. فكان عليه أن يرفع غصن الزيتون بيد والحسام باليد الأخرى. فعلى مقربة منه عدوان أحدهما يدافع عن شرعيته والآخر عن حقه في وطنه. وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط عهد جديد لا بد ان يطالب بإرث الخلافة في الأندلس، خاصة لأن مغتصبه اموي.

لم تطل تأملات الأمير الشاب . بل ان الظروف المحيطة به لم تمهله ولم تتح له تنفيذ الاصلاحات التي كان يحلم بتنفيذها . اذ بدأت التحركات العدائية تتهدده ، واضطر الى امتشاق حسامه . وتشاء الأقدار ان يظل ممتشقاً هذا الحسام عشرين عاماً ، لم يدخله في غمده إلا فيما ندر ، ولم يعرف النوم الهنيء سبيلاً الى جفنيه إلا لماماً . فمن الفهري الى الصميل ومن القيسيين الى اليمنيين ومن ثورة في طليطلة الى أخرى في اشبيلية ، ما يكاد يقضي على واحدة حتى تنشب أخرى ، الى ان رفعت باجة (Beja) ، الواقعة الى الجنوب الغربي من البلاد (البرتغال) راية العباسيين السوداء ، وقام قائد حاميتها ، العلاء بن مغيث اليحصبي ، باعلان الثورة التي اجتذبت جميع المتضررين من حكم الأمير ، فتحالف فيها القيسيون واليمنيون والفهريون ، على تناقضاتهم ، وجمعوا جيشاً ضخماً التحم بجيش عبد الرحمن، الذي لم يجد بداً من الانسحاب الى قرمونة (Carmona) بالقرب من اشبيلية .

ظل عبد الرحمن محاصراً في قرمونة مدة شهرين ، الى أن تفتق ذهنه الخلاق عن مخطط جريء لا يستطيع الا رجل



باب اشبيلية بقرمونة



عقود مسجد قرطبة الجامع

كعبد الرحمن أن يقدم عليه . اندفع بصفوة من جنوده من أسوار القلعة اندفاعة انتحارية شرسة ، لا رحمة فيها ولارأفة ، فقضى على القوات المحيطة به وشتت شملها ولم يبق منها سوى رؤوس مجندلة ، جمع عبد الرحمن بعضها ، وعلق في آذان اصحابها اسماءهم ، بمن فيهم اسم قائدهم العلاء ، وبعث بها الى القيروان سراً ، حيث القيت في طرقها ليلاً ، تبعث الرعب في نفوس الطامحين المتطلعين بعين الطمع الى الاندلس ، بمن فيهم الخليفة العباسي الذي خطط لهذه الثورة الفاشلة ، والذي قال عندما بلغه ما فعله عبد الرحمن : « الحمد لله الذي جعل بيني وبين هذا الشيطان بحراً » .

وكأن الرؤوس المجندلة التي طرحت في طرق القيروان لم تكن كافية لكبح جماح الطامعين . فأطلت غيرها لتتدحرج هي الأخرى ثمناً للجشع والطمع والتهافت على السلطة . فقد رفع المطري رأسه فقطع وأطل الصباح برأسه فهوى ، وكأن عبق الدماء أصبح جزءاً من حياة الناس هناك . فمتى منذ الفتح توقف ذلك السيل ؟



احدى بوابات قصبة مالقة .

ثار البربر مرة أخرى ، وكأن ما حل بهم من قبل لم يكن كافياً . ولعلهم ظنوا ان العرب قد استنفدوا البقية الباقية من قوتهم فتحركوا ، وكان تحركهم على جانب كبير من الخطورة . لكن الأمير الأموي تمكن أخيراً من القضاء على تحركهم وعلى قائدهم الملقب بالفاطمي ،فأضاف رأساً آخر الى مجموعة الرؤوس التي ارتفعت طمعاً فيه فتدحرجت .

ولم تترك الخلافات والمؤامرات والثورات العربية والبربرية للأمير الأموي متسعاً من الوقت للتفكير بالأخطار التي كانت تتهدده من الشمال ، سواء خطر بداية التحركات القومية القوطية أو خطر تحفز الفرنجة بقيادة شارلمان الذي بدأت تراوده احلام المجد من خلال تزعم حملات صليبية تقضي على الوجود الاسلامي في اسبانيا المسيحية ، أوفي أسوأ الظروف ، تدرأ خطر المد الاسلامي الذي كان يتهدد أوروبا بأسرها ، ذلك الخطر الذي تجسم في المحاولات العديدة التي قام بها المسلمون في بلاد الفرنجة .

ويردد بعض المؤرخين ان الخليفة المنصور قد تحالف مع شارلمان ضد عبد الرحمن . غير أن احداً لم يستطع تقديم دليل على ذلك . ولئن عزت الأدلة على هذا التحالف، إلا انها توافرت بكثرة عن التآمر بين اثنين من عرب الأندلس وشارلمان . فقد اعلن الاعرابي حاكم برشلونة (Barcelona) ، والانصاري حاكم سرقسطة (Zaragoza) الثورة على النظام الأموي ، وتحالفا مع شارلمان الذي جاء عام 800/184 بجيش جرار منتهزاً فرصة التمزق العربي الذي أخذ يقوض اركان الحكم المركزي. غير ان شارلمان، وقد وصل سرقسطة، وجد أبوابها مغلقة في وجهه. ذلك ان الانصاري انقلب على حليفيه الاعرابي وشارلمان، فلم يجد هذا الأخير بداً من الانسحاب إلى ما وراء جبال البرت عائداً إلى بلاده، مؤمناً بأنه لا جدوى من محاولة بسط سلطانه على الأندلس وطرد العرب منها، فانسحب ليعزّز من دفاعاته في بلاده. وهكذا قضى عبد الرحمن بدون جهد مباشر على هذه الثورة الخطيرة، وقام الانصاري بقتل الاعرابي كما لقي الأنصاري بعد ذلك المصير نفسه.

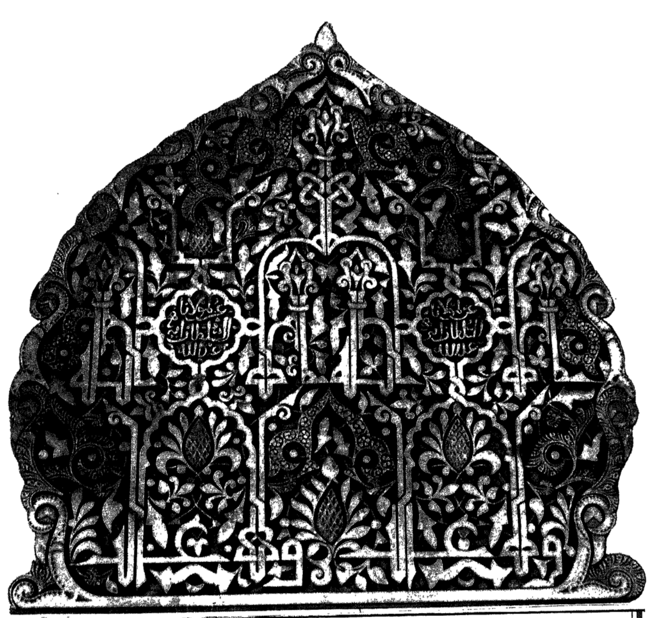
مضى على دخول الداخل اكثر من ثمانية وعشرين عاما ، وأصبح الشاب كهلا ، انتقل من ربيع شبابه الى خريف كهولته ، واذناه لم تسمعا سوى صليل السيوف ، وعيناه لم تريا سوى الدماء تتدفق من الرقاب ، وانفه لم يشمّ إلا رائحة الخيل وعرق الجنود وعفن الجثث. وكانت الذكريات تعود به الى بلده الذي تركه غائصاً في برك الدماء . هنا دماء وهناك دماء ، فهل قدره مجبول بالدماء ؟ أينسى اخاه يحيى الذي قتله العباسيون ، وهو يعد للفرار معه؟وهل ينسى اخاه الصغير هشاما ، الذي ضرب الجند عنقه على مرأى منه يوم عجز هذا عن قطع النهر معه هربا من سيوف العباسيين ؟

ليس عبد الرحمن بالرجل الذي يتطرق التشاؤم الى نفسه . فقدره معلوم لديه ، خطه بيده ، وهو مدركه لا محالة . إذ هل تصور احد انه كان سينجو من مخالب العباسيين دون غيره من البيت الأموي ، وان يسير مسيرته الطويلة دون أن يوقع به احد ، وان ينساب كالماء من قبضة والى القيروان ، وان يدخل وحده ، لا يرافقه أحد غير غلامه بدر الى الأندلس ، وبعد أشهر قليلة تنتظم في وجهه جيوش ، فيهزمها وتشب في وجهه ثورات ، فيخمدها وتتآمر عليه الخلافة العباسية ، فيقضي على احلامها في الأندلس الى الأبد ؟

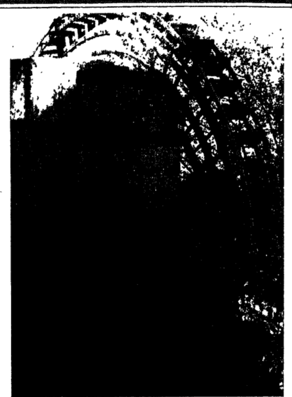
هذا هو الوجه الوحيد الذي عرف به ، حتى ذلك الوقت ، هذا الرجل المغامر الذي حجّرت الأيام قلبه ، فلم يعد يعرف من الوان قوس قزح غير لون الدم القاني ، الذي جرى انهاراً لكثرة ما قتل ، فلم تحرك في نفسه شفقة ولا رحمة ، ولم يعد يرى في الأفق غير هالات المجد ، ولا يشتهي من متاع الدنيا غير السطوة والحكم المطلق ، مهما كان السبيل الى ذلك ، فخان وغدر ، وتجبر وثأر ، وألقى خلفه بمبادىء التسامح والمصالحة ، التي نادى بها يوم اعتلى كرسي الأمارة في قرطبة .

غير أن خلف قناع القسوة الملطخ بالدماء ، كان عبد


صحن جامع قرطبة.



الرحمن يختزن طاقات ايجابية تجلت في ما قام به من انجازات أدت الى خلق كيان استحق ، لأول مرة في تاريخ الأندلس ان يطلق عليه اسم الدولة ، وصدق ابن حيان حين قال فيه : « اقام للملك آلته ، واخذ للسلطان عدته » . فقد علمته حوالك الليالي انه لو كان له ان يحقق القدر الذي خطه بيده ،فلا بد له ان يستأصل المرض الذي فتك بهذه البلاد لأكثر من اربعين سنة قبل دخوله ، ولنحو من ثلاثين سنة بعد ان رسا القارب الذي نقله من التشرد الى شاطىء آماله العريضة . علمته حوالك الليالي ان عليه ان يقضي على الفرقة والفتن والاطماع والدسائس والمطامح . وان يرسي قواعد دولة موحدة سياسياً واداريا وعسكرياً ، تستعصي على أي طامح ، وتعز على أي افّاق ، دولة تقيم العدل ، وتنصف المظلوم ، وتضرب على يد الظالم .


ناعورة عربية بقرطبة .

ولقد حقق عبد الرحمن الكثير في هذا السبيل، ولو ان ذلك كان فوق عشرات الألوف من الجثث ، فاستحق بذلك العديد من النعوت التي وصف بها . ولا بد من التساؤل هنا ان كان بالمستطاع ، بغير هذا السبيل ، توحيد بلد سكانه على ذلك الجانب الكبير من الفرقة والقبلية والعصبية . فلا العرب ولا البربر عرفوا في تاريخهم ولاء إلا للقبيلة ،ولا انضباطاً إلا ما يفرضه عليهم رئيس هذه القبيلة ، ولا تربطهم بغيرهم من البشر إلا ما يربط قبيلتهم بهم ، فلا مفهوم الدولة كان معروفاً لديهم ، ولا الاحساس بالقومية كان وارداً في أذهانهم .

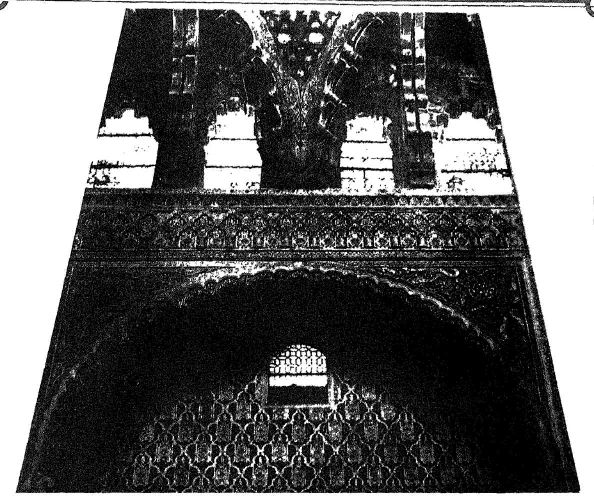
وما أن مُهّد لعبد الرحمن المضجع ، وبدأ جفناه يذوقان طعم النوم العميق ، بعيداً عن صهيل الخيل وقعقعة السلاح، عاودته عذوبة الذكريات ، فسقط عن وجهه قناع الحاكم الفظ الشرس ، ونقلته ذكرياته الى هدأة صباه ، فحن الى أهل له كانوا بالأمجاد يرفلون . . . منه ، من لحمه ، من دمه ، يحدثهم فيتحدثون ، فإن شكا لهم همًّا أصابه يبكون ، وان بسمت له الدنيا يهللون .

كان عبد الرحمن في ذورة مجده يعاني لواعج الغربة وكآبة الوحدة . فقد انفض عنه أقرب المقربين له حتى غلامه الأمين بدر، اما خوفاً من بطشه أو إنكاراً لأفعاله . وتذكر قول الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في وصفه اذ قال عنه : « الذي تخلص بكيده من سنن الأسنة وظباة السيوف يعبر القفر ، ويركب البحر، حتى دخل بلداً اعجمياً ، مصر الأمصار وجند الاجناد ، واقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه » . تذكر ذلك القول وهو يشاهد مركباً تدفعه برفق نسائم الغروب الى المشرق فأنشد :

«ايها الراكب الميمم ارضي
إقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بأرض
وفؤادي ومالكيه بأرض»

بدأ عبد الرحمن الداخل يحس بوطأة ذلك الحمل الذي ينوء تحته اعظم الرجال. أكثر من ثلاثين عاماً قضاها على سرجه ، بدأها هارباً من سيوف جلاديه العباسيين ، من دمشق الى قرطبة ، وأكملها في سبيل اقامة اركان حكمه ، ثم في المحافظة عليه والدفاع عنه ، فأرسى قواعد الادارة والقضاء ، وانشأ جيشاً قوياً متماسكاً ، معظم عناصره من الصقالبة والبربر، لا يدينون بالولاء لغيره، وبدأ في انشاء المسجد الجامع الشهير في قرطبة ، كما بنى قصر الرصافة في أطرافها .

بدأ الوهن يدب في جسده المتعب ، ولعله احس بقرب اجله ولما يبلغ الرابعة والخمسين من عمره. فأخذ يفكر في أمر من يخلفه . وكان له من البنين احد عشر ومن البنات تسع ولدوا جميعاً ، باستثناء ابنه البكر سليمان ، من ام اسبانية . وكان من المنطق ان يختار ابنه الأكبر سليمان الذي ولد في الشام ، ثم التحق بأبيه عندما استتبت له الأمور في الأندلس . غير أن سليمان ، على خلاف اخيه الثاني هشام ، لم يكن ، في نظر ابيه ، من المقدرة والجدية

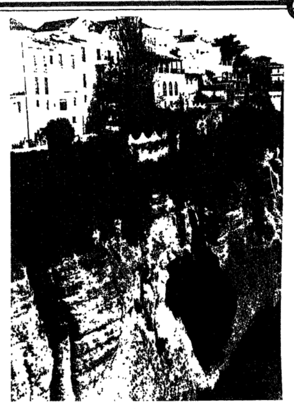


جامع قرطبة

والعلم بقدر يؤهله لتسلم مقاليد الحكم الذي وطّد اركانه بالجهد والجهاد . ووقع في حيرة من امره ، ولم يستطع البت في أمر البيعة وهو على قيد الحياة ، واختار ان يترك ذلك للحظ وقد خطرت له فكرة بدائية ، فدعا واحداً من أبنائه الآخرين واسمه عبدالله ، وسلّمه خاتمه وأوصاه ان يعطيه الى من يأتي قبل الآخر من الأخوين بعد وفاته . واضاف : « لو سبق اليك هشام ، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له » . وكان أول القادمين هشام ، فتسلم من اخيه خاتم الحكم ، وأصبح ثاني الامراء الأمويين في عهد الامارة .

وهكذا غاب عبد الرحمن عام 789/172 بعد أن ارسى قواعد الحكم الأموي الذي دام قرابة ثلاثة قرون من الزمن ، ولم يدر ما كان سيترتب على عدم البت في أمر خلافته من متاعب ، لاحقاً ، بالنسبة لولده المفضل .

ما كاد **الامير هشام بن عبد الرحمن الأول** ، والذي عرف ايضاً بالرضا يعتلي كرسي الحكم حتى يحس بهذا الكرسي يهتز من تحته ، حين اعلن عليه اخوه الأكبر سليمان الثورة في طليطلة . وقد انضم اليه اخوه عبدالله (البلنسي) الذي كان قد سلم بنفسه خاتم الحكم لهشام . ولم يتردد هشام ، الذي كان قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره عندما تسلم مقاليد الحكم ، في اتباع الشدة مع اخويه المتمردين ، فزحف على طليطلة حيث كانا معتصمين وقمع



منظر في رُندة

ثورتهما ونفاهما الى المغرب ليعودا اثناء عهد ابنه (الحكم) بن هشام بن عبد الرحمن، كما سنرى فيما بعد.

جنى هشام ثمار جهاد ابيه ضد الطامعين والثائرين الذين ارهقتهم الحروب وقصمت ظهورهم. ولئن جرت بعض المحاولات في سرقسطة وطرطوشة (Tortosa) من بعض صغار الطامعين ومن البربر في رندة (Ronda)، إلا انها لم تكن في حجم الانتفاضات التي قامت في وجه ابيه، ولم يكن من الصعب عليه القضاء عليها، الأمر الذي افسح له المجال للالتفات الى تحركات الاسبان في الشمال، فقام بحملات تأديبية منتظمة كانت تعرف بالصوائف، نظراً لأنها كانت تتم في فصل الصيف، ادت الى اضعاف الحركات الاستقلالية التي كان ملوك الاسبان ينمونها في الشمال.

ولقد اتسم عهد هشام بالهدوء، ولربما اضفت شخصيته الهادئة الوديعة، ونزعته الدينية الورعة، جواً من التسامح والاستقرار على الحكم. كما أدى حبه للعلم والفقه الى تقريب العلماء والفقهاء منه. ويبدو أنه تأثر بتعاليم مالك بن أنس التي كانت تصل الى الاندلس مع العائدين من الحج الى بيت الله الحرام، وهي التعاليم التي سيكون لانتشارها آثار بعيدة على نظام الحكم كما سنرى.

وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف ان يتزايد نفوذ المتفقهين في البلاد، وكان لتنامي هذا النفوذ أثره الايجابي، بادىء الأمر، حين حمل الفقهاء الامير على اتخاذ اجراءات لفرض تعليم اللغة العربية في المدارس غير العربية، الأمر الذي شجع على صهر عناصر المجتمع في بوتقة ثقافية واحدة وعلى تمييع التكتلات العرقية. كما انه عمل على توسيع المسجد الجامع في قرطبة، وبناء مساجد أخرى، تجمع صفوف المسلمين في عبادتهم، وتهيىء لهم سبل التعليم والثقافة.

وقد عرف عن هشام التواضع والكرم وحرصه على احترام مشاعر الناس، فكان يقاسمهم افراحهم واتراحهم، يحن على الفقير، ويرفع الظلم عن المظلوم، ويحرص على احقاق الحق وإشاعة العدل، مما أدى الى تلقيبه بالرضا، وهو اللقب الذي اصبح يعرف به الامير هشام بن عبد الرحمن.

ومات هشام شاباً في أوج شبابه، إذ لم يزد عمره عن الأربعين كثيراً، وتربع على عرش الحكم ابنه **الحكم بن هشام (الأول) الذي عرف « بالربضي »** عام 796/180 وكان يبلغ من العمر السادسة والعشرين. ولقد ورث الحَكَمُ عن ابيه تركة اتسمت بالمشاكل، وحملت في طياتها بوادر خطر عظيم على نظام حكمه، كادت تودي بمستقبل الخط الأموي في الأندلس لولا صفات، تخطت والده وورثها الحَكَمُ عن جده عبد الرحمن، تمثلت بالحزم والصرامة والشجاعة والقسوة.

وجاءت همومه الأولى من عميه اللذين نفاهما ابوه الى المغرب، إذ عادا في محاولة لاستعادة حق الأخ الأكبر سليمان في الحكم. غير أن هذا فقد حياته في محاولة يائسة للانقضاض على قرطبة، واتخذ الآخر مقراً لنشاطه في



سرقسطة ، ولكن الحكم استطاع ان يجمده بأن عينه حاكماً على بلنسية (Valencia) ، بعد ان حاول الاستعانة على ابن اخيه بشارلمان وفشل .

وفي الوقت ذاته كانت بوادر ثورة خطيرة تطل برأسها من مدينة طليطلة ، التي كان معظم سكانها من المولدين (وهم الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام) . والمستعربين (الذين ظلوا على دينهم وانصهروا في المجتمع العربي وتعلموا اللغة العربية واخذوا بعادات العرب) . ويبدو ان اعتناق الكثير من المولدين الاسلام لم يكن عن قناعة وايمان ، وانما للإفادة من المزايا التي تعود على كل من يعتنق الاسلام . وان كانت الثورات والفتن والمطامع تنشب في المدن العربية المسلمة ، فلا يستغرب ان تنشب في مثل هذا المجتمع ، وفي طليطلة بالذات ، التي اشتهرت دائماً بنزعتها الاستقلالية الثائرة .

لم يشأ الحكم ان يخوض معارك قد تكلفه الكثير . فاعمل دهاءه وأوهم زعماء طليطلة بأنه يريد مهادنتهم وبأنه يتفهم مشكلاتهم واوضاعهم ، ولذلك فقد عين والياً مولداً اسمه عمروس من وشقة (Huesca) ، يتولى أمر طليطلة ، ويرعى شؤون ذلك المجتمع الذي هو واحد منه . وقد لعب عمروس دوره بذكاء ، فاطمأن الناس اليه ، وانشأ في المدينة قلعة حصينة وبعث الى الحكم محدداً ساعة الصفر .

وحسب الاتفاق اوفد الحَكَم ابنه عبد الرحمن على رأس جيش اعلن مسبقاً انه متجه الى موقع ما لإخماد فتنة نشبت فيه . ومر الجيش بالقرب من طليطلة وواصل سيره شمالاً ، كي لا يرتاب في أمره احد ، ثم لم يلبث ان عاد بمحاذاة طليطلة ، بعد ان أعلن ان الفتنة قد انتهت قبل وصول الجيش .

واقنع عمروس سكان طليطلة بأن عليه أن يقابل قائد الجيش للسلام عليه ، وانهم يستطيعون ، ان ارادوا ، ان يجاملوا القائد كبادرة لحسن نياتهم . فالتقوا بالقائد عبد الرحمن بن الحكم ، ثم دعوه الى زيارة البلد . واقام عمروس مأدبة كبرى ، دعا اليها زعماء طليطلة احتفاء بالقائد . وادخلهم واحداً واحداً من باب كان ينتهي بحفرة يقف على طرفها جلادون ، اعملوا سيوفهم في رقاب الضيوف ، وألقوا بهم في الحفرة التي ردمت فيها ثورتهم مع آلاف الجثث التي دخل أصحابها للطعام ، فأصبحوا هم طعاماً للديدان . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة « الحفرة » .

أما الخطر الحقيقي الذي هز نظام الحكم وكادت تكون له عواقب وخيمة ، فتمثل في اقرب المقربين لأبيه ، وهم المتفقهون الذين بلغ نفوذهم لدى ابيه قدراً عظيماً .

كان الحَكَم على غير طبائع ابيه ، بل كما ، اسلفنا ، اقرب الى صفات جده . كان قوي الشخصية لم يحتمل وصاية رجال الدين والمتفقهين عليه . فهو لم يكن متمسكاً بتعاليم الدين ، بل انه كان يميل الى ارضاء ملذاته وشهواته ، يعاقر الخمر ، ويعاشر النساء ، ويحب الغناء ويقرض الشعر ، ويهفو الى المجون .

ورجل له هذه التطلعات لا يمكن أن يظل حبيساً لمجالس المتفقهين ، سجيناً لتعاليمهم . لذلك فقد بادر الى فض مجالسهم في قصره واستبدل بهم طرازاً آخر من الناس .

ومن الطبيعي أن ينقم هؤلاء عليه ، فبدأوا يخططون . وبذروا أولى بذور المؤامرة في الاحياء الفقيرة ، حيث يسهل تغذية الاحساس بالسخط . غير ان المتآمرين أخطأوا في حساباتهم ، اذا حاولوا اشراك احد ابناء عم الحكم في المؤامرة ضده ، ظانين انه سينضم اليهم بسبب الاحقاد القديمة بين الحَكَم واعمامه . إلا أن هذا افشى السر الى الحَكَم ، فألقى القبض على الكثير من زعماء المتمردين ، وكانوا أكثر من سبعين فقتلهم ، وأمر بصلبهم جميعاً أمام القصر .

وتحسباً لأية محاولة اخرى عزز الحكم حراسة القصر واقام التحصينات وحفر الخنادق . لكن زعماء المتمردين الذين افلتوا من قبضة الأمير الحكم لم يتوقفوا عن محاولاتهم ، فاستغلوا غيابه ، في رحلة للصيد ، وحاولوا الانقضاض على القصر . غير ان الحكم عاد بسرعة وفتك

بالمسؤولين عن التمرد . وعندها ادرك الناقمون أن أية محاولة مقبلة لا بد ان تخضع لقدر أكبر من الإعداد والتمهيد ، وانه لا بد من الانتظار الى آن يظن الأمير ان الأمور قد استتبت ، ويخلد الى الاسترخاء .

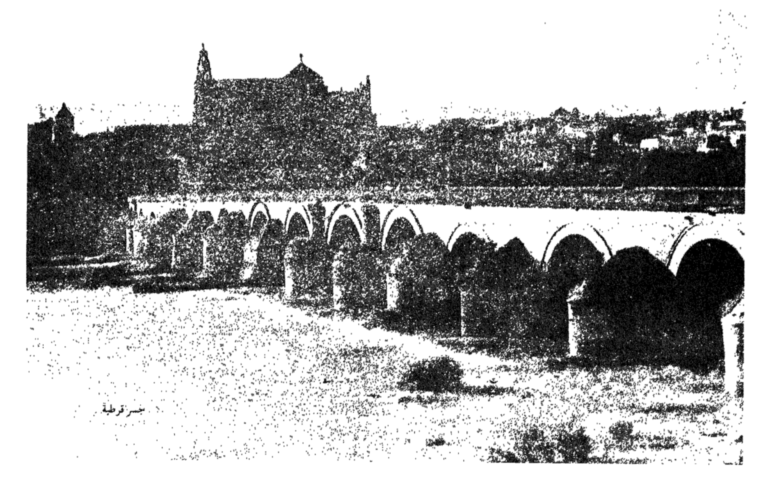
انتظر الناقمون نحوا من اثني عشر عاما ، ظلّوا خلالها يغذون أهل الربض (أي الضاحية) ، التي كانت تقابل المسجد والقصر على الجانب الاخر من النهر ، بالكراهية والحقد على ذلك الحاكم المستبد الفاسق ، الذي خرج عن تعاليم الدين الحنيف وسلك سبيلاً غير السبيل الذي سار عليه ابوه الورع التقي . وامتلأت قلوب الكثيرين حقداً ، وبلغت النقمة في نفوسهم قدراً كاد يجعل اياديهم دائماً على مقابض سيوفهم ، انتظاراً للشرارة الأولى ، مهما كان مصدرها . وذات يوم حدث حادث ، كان يمكن أن يمر دون ان يلتفت اليه احد ، لولا انه استغل استغلالا ذكياً موفوتاً ، فكان هو الشرارة التي كانوا بانتظارها .

وخلاصة الحادث الذي فجر ثورة الربض ، هي ان جندياً من جنود الامير ذهب الى حداد ليشحذ له سيفه فتشاجرا ، فقتل الجندي الحداد ، فهاج أهل الربض ، واستغل اعداء الحكم هياجهم ، فزادوا من النار ضرامها ، وبدأ الزحف من الربض الى القصر ، واحكم الحصار بعد ان هب اهل الربض ، وحملوا ما وقعت عليه ايديهم من عصي وخناجر وسيوف ، وعبروا الجسر ، لمحاصرة القصر بأعداد لا حصر لها .

وكان لا بد للحكم من مخرج من هذا المأزق الخطير . ولم يكن باستطاعة حامية القصر ان تفك هذا الحصار .

وبدأ عقل الداهية يعمل بسرعة ، فاستدعى اثنين من قادته واصدر لهما امرا . فخرجا بصفوة من جنودهما ، وشقا سبيلهما عبر الجموع المتراصة كرمحين وهاجين ، وقطعا الجسر باتجاه الربض ، وما ان بلغاه حتى أضرما النار في جميع ارجائه . وارتفعت ألسنة اللهيب الى أعنة السماء . وما أن رأى الربضيون الثائرون بيوتهم عبر النهر طعماً للنيران ، حتى القوا بما في ايديهم من عصي وخناجر وسيوف ، وهرعوا الى منازلهم ينقذون من فيها من أهل وما فيها من متاع .

وانفك الحصار عن القصر ، ولم يبق من ثورة الربضيين سوى صلبان امام القصر ، حملت جثث اكثر من ثلاثمائة



جسر قرطبة

من زعمائها ، ناهيك بالآلاف الذين اعمل الجنود فيهم السيوف ، الى ان امر الحَكَم بوقف القتل ، شريطة إلغاء وجود الربض ، وامهل سكانه اياماً معدودة لمغادرة الأندلس نهائياً .

رحل أهل الربض الى المغرب حيث بقي البعض ، بينما ابحر معظمهم الى الاسكندرية فاحتلوها ، الى ان تمكن القائد العباسي من التغلب عليهم ، فاتجهوا بسفنهم الى جزيرة كريت في اليونان ، واقاموا فيها ملكاً دام نحواً من مئة وثلاثين عاما ، الى أن استعادها البيزنطيون منهم .

وكان من الطبيعي ان يستغل اعداء المسلمين انشغال الامير بالفتن الداخلية في محاولة للانقضاض على الأجزاء البعيدة عن القوة العسكرية العربية ، فقاموا بعدة حملات بعضها بقيادة لويس ابن شارلمان ، كان من نتائجها خروج برشلونة عام 801/185 من يد العرب نهائياً رغم الكثير من المحاولات لاستعادتها . وقد اضطر العرب الى عقد هدنة مع شارلمان في المناطق المتاخمة للحدود بين اسبانيا وغالة (فرنسا) . كما قام الملك الفونس ، احد ملوك الاسبان بمحاولات عديدة ، بلغ في واحدة منها عمقاً لا يستهان به ، اذ سقطت بيده لشبونة عام 798/182 ، وان كان الحَكَم قد استعادها في حملة قادها بنفسه عام 810/194 .

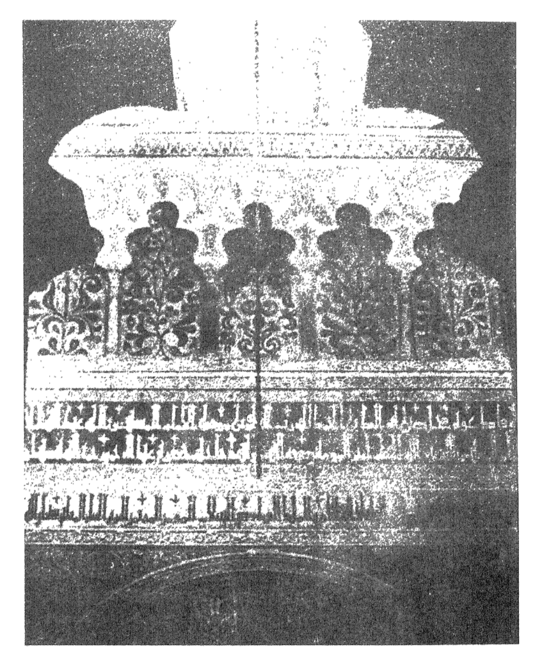
ولعل أفضل ما قدمه الحكم للمرحلة التالية من الحكم الأموي ، ان بايع ابنه الأكبر عبد الرحمن الثاني بن الحكم قبل وفاته ، فأتاح له بذلك ان يتربع على كرسي الحكم ، دون أن يسير كسابقيه على اكوام من الجثث تحقيقاً لذلك

وانتهى عهد الحَكَم عام 822/206 وقد امتد لأكثر من ربع قرن، وقد تميز كغيره من العهود السابقة بالفتن والثورات والقمع والدماء ، وتخللته كذلك انطلاقات جهادية وحملات تأديبية للابقاء على السيطرة العربية الكاملة. ولقد بذر الحكم، بفضل شخصيته الفريدة، التي جمعت بين الكثير من المتناقضات، أولى بذور الترف والتذوق الفني والأدبي التي اشتهرت بها قصور الأمراء والحكام الاندلسيين فيما بعد ، والتي اصبحت تزخر بمظاهر الأبهة والعظمة .

كان التطاحن الداخلي قد انهك الطامعين المغامرين عندما جلس **عبد الرحمن الثاني** في كرسي الحكم عام 822/206 . وكانت سيوف ابيه الحكم ما زلت تقطر من دماء الذين حاولوا الخروج على الحكم المركزي في قرطبة ، فساد الهدوء البلاد ، باستثناء محاولات قام بها من لم يتعظ من هؤلاء الطامعين الذين سرعان ما فقدوا رؤوسهم . وقامت تحركات من القيسيين واليمنيين ، ونشبت ثورة في طليطلة ، وأخرى في مارده ، كما تحرك البربر كذلك في تاكرتا ، ونشأ عصيان في جزيرة ميورقة وآخر في الجزيرة الخضراء ولكنهما أخمدا دون كبير عناء .

حتى ان (النورمان) جربوا حظهم عام 844/229 فجاؤوا باسطول كبير، وعاثوا في الأرض فساداً، بادئين بلشبونة الى أن وصلوا اشبيلية حيث امكن دحرهم وطردهم من البلاد بعد حملة دامت نحواً من اربعين يوماً ، كان من أهم نتائجها تنبيه العرب الى ضرورة تعزيز قوتهم البحرية . ومما يذكر ان النورمان ، أو المجوس ، كما كان يسميهم العرب ، ارسلوا سفارة الى قرطبة فاحسنت وفادتها وتلتها في وقت لاحق ، سفارة عربية الى بلاد المجوس ، في أول عملية تبادل سفارات بين الدولة العربية وبلدان أجنبية .

ونعمت الأندلس بعهد من الرخاء والسلام والاستقرار والتسامح ، الى أن جاء عيد الفطر عام 850/235 ، فشهد بداية فتنة كادت ان تولّد نتائج وخيمة على المجتمع الأندلسي ، الذي بدأت تنصهر عناصره المختلفة ، في مجتمع متماسك منفتح ، تميز بالتسامح وبحرية العبادة والمعتقد . وكان عدد المستعربين من الاسبان قد بدأ يتزايد وأخذ هؤلاء يندمجون بسرعة في المجتمع العربي ، فارتادوا المدارس العربية ، وتعلموا لغة العرب الى حد الاتقان، فانفتحت امامهم فرص التوظف والعمل، بل ودخول الجندية على قدم المساواة مع العرب الأصليين ، الأمر الذي أفزع رجال الكنيسة خوفاً من ابتعاد هؤلاء عن معتقداتهم الدينية واحتمال فقدانهم نهائياً اذا ما اعتنقوا الاسلام . فبدأوا يخططون لاستراتيجية تؤثر في العواطف الدينية للمسيحيين من خلال فكرة الاستشهاد .



نقوش المحراب بجامع قرطبة من خلال العقود

فبعد صلاة عيد الفطر المذكور قدم راهب يدعى بيرفكتو (Perfecto) على اثنين من المسلمين خارج المسجد ، وبدأ نقاشا حول الدين ، تطرق الى مقارنة بين المسيح ومحمد ، انتهت الى توجيه الفاظ نابية ضد الرسول بلغت مستوى التحقير ، الأمر الذي حدا بهذين الرجلين الى تقديم شكوى بشأنه الى القضاء . ورغم محاولات

القضاة استخلاص اعتذار لما بدر عنه من أقوال او حتى انكار التهم ، فإنه راح يكرر مقالته غير آبه بمغبة اقواله ، فصدر الحكم عليه بالاعدام . . وهو العقاب الذي ينزل بأي مسلم لو صدرت عنه مثل تلك الاهانات بالنسبة للنبي أو للدين.

وكان الرأس المدبر لهذه الاستراتيجية راهباً شاباً يدعى ايلوخيو (Elogio). ابتهج ايلوخيو لهذه النتيجة التي كان يخطط لها، في اطار الاستراتيجية التي تقوم على مبدأ الاستشهاد ، وبدأ يعبىء الشعور الديني بين المستعربين . وتكررت هذه الأحداث ، حتى بلغ عدد من تم اعدامهم ، لنفس هذه الجريمة ، احد عشر شخصاً منم شابة من اب مسلم وام اسبانية اسمها فلورا (Flora) . كان والد فلورا قد مات فانشأتها امها نشأة مسيحية . وتعرفت على الراهب الشاب ايلوخيو فأثر بها وبصديقة اخرى لها اسمها ماريا ، فراحتا تثيران النعرات الدينية ، ورغم صراحة القانون ازاء مثل هذه الجريمة ، فقد اصدر القاضي حكماً بسجنهما لا باعدامهما ، أملاً في أن ترجعا عن اتجاههما . ولكن تأثير ايلوخيو كان يلاحقهما من خلال قضبان السجن فقضى القاضي باعدامهما .

ولما لم تتوقف عمليات الاستشهاد المتكررة هذه ، دعا عبد الرحمن الى عقد مجلس كنسي لايجاد حل لهذه المعضلة الخطيرة، كان من نتائجه صدور بيان يشجب هذه التصرفات ويدعو الى التسامح واحترام المعتقدات الدينية . غير ان ذلك لم يردع ايلوخيو عمّا كرس حياته من أجله ، فسجنه عبد الرحمن ثم تركه وشأنه اتقاء للمزيد من الاحتكاك ، ثم نفاه من قرطبة . إلا أنه عاد اليها مستأنفاً حملته ، فضاق به الأمير ذرعاً فأمر باعدامه ، ليدخل في عداد القديسين ، وانتهت هذه الفتنة بانتهاء ايلوخيو ، وان كانت قد تركت آثارها السلبية على العلاقة بين الاسبان والعرب ، التي اخذت تفتر وتنحسر .

وفيما عدا حملات تأديبية قامت بها قوات الأمير في استورقة ومناطق البشكنس ، كانت فترة حكم عبد الرحمن الثاني تتسم بالاستقرار والانفتاح ، حتى ان اتصالات دبلوماسية قامت بين قرطبة والقسطنطينية ، وان لم تخرج عن نطاق المجاملة .

وقبل استعراض انجازات عبد الرحمن الثاني الادارية والاجتماعية ، لا بد من الاشارة الى تحرك قامت به قواته البحرية للقضاء على محاولات اهل جزر البليار للافلات من قبضة المسلمين ، وهي الجزر الواقعة الى الشرق من شبه الجزيرة الايبيرية ، وأهمها ميورقة (Mallorca) ومنورقة (Menorca) ويابسة (Ibiza) وفورمنتيرا (Formentera) . وكانت هذه الجزر قد لعبت دوراً كبيراً في درء الخطر عن الدولة الاسلامية في الأندلس ، وفي مقارعة الصليبيين الذين كانوا يبحرون الى المشرق من بلاد الفرنجة وايطاليا .

وتغفل معظم المصادر الاشارة إلى هذه الجزر وتاريخ المسلمين فيها. فقد أصبحت، بالنسبة للعرب جزراً منسية، ولو أنها تعتبر الآن من أكثر مناطق العالم اجتذاباً للسائحين والباحثين عن الاستجمام والجمال والمتعة. وان كانت هذه الدراسة المختصرة لا تتسع للدخول في تفاصيل الوجود العربي في هذه الجزر، الا أن مناسبة الحديث عن حملة عبد الرحمن الثاني تهيىء فرصة العرض، بايجاز كبير، لهذا التاريخ الذي أغفله العديد من المؤرخين.

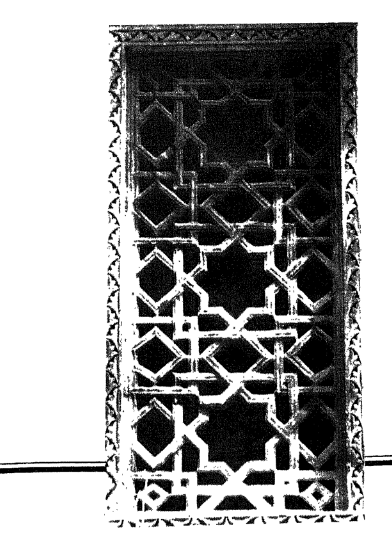
تشير المصادر التي تناولت فتح العرب لهذه الجزر ، الى أن حملات بحرية اسلامية بدأت أثناء عملية فتح المغرب ، مستهدفة العديد من جزر غربي البحر الابيض المتوسط ، كصقلية وسردينيا ومالطة وكورسيكا وجزر البليار . ولم يكن القصد من هذه الحملات فتح هذه الجزر وانما القضاء على القوات البحرية البيزنطية التي كانت تتخذ منها قواعد قد تهدد الزحف الاسلامي في شمال أفريقيا .

وكانت أولى جزر البليار ، التي هاجمها العرب جزيرة يابسة (Ibiza) ، وذلك في عام 79-698/80 ، تلتها حملة أخرى ارسلها عبد العزيز بن موسى بن نصير عام 703/84 وثالثة عام 704/85 بقيادة عبدالله بن موسى بن نصير ورابعة عام 708/89 بقيادة عبدالله بن موسى بن نصير كذلك ، استهدفت هذه المرة جزيرتي ميورقة ومنورقة .

وتشير المصادر الى أن عهداً وقع بين حكام هذه الجزر والحكم العربي في الأندلس منذ الفتح الأول لهذه الجزر ، يقضي باعطائها نوعاً من الحكم الذاتي مقابل دفع جزية متفق عليها ، شريطة عدم التعرض للبحرية الاسلامية . وقد ظل أهل هذه الجزر على عهدهم الى أن تحالفوا مع شارلمان ، فنقضوا العهد عام 778/161 أثناء التحالف الفاشل الذي تم بين الاعرابي والانصاري وشارلمان ، كما رأينا عندما عرضنا لسيرة عبد الرحمن الداخل .

غير أن شارلمان تمكن اخيراً من اخذ جزر البليار ووضعها تحت حمايته عام 183 / 798 . ولم يقبل العرب بذلك ، وظلت جزر البليار تنتقل بين العرب والفرنجة ، الى أن تمكن العرب من فتحها للمرة الثانية عام 820/205 في عهد عبد الرحمن الثاني ، ووقعوا عهداً ثانياً مع أهلها ، ما لبث ان نقض . فبعث عبد الرحمن بحملة تأديبية قوامها ثلاثمائة سفينة في عام 848/234 استولت على الجزر وعادت بغنائم كبيرة ، وتم توقيع عهد ثالث في عام 849/235 ، بعد أن بعث حاكمها بكتاب استرحام لعبد الرحمن الثاني . على أن هذا العهد سينقض هو كذلك ، كما سنرى ، بعد وفاة الامير .

واذا تركنا قعقعة السيوف جانباً ، وبحثنا عن الوجه الآخر لعبد الرحمن ، لرأينا وجهاً مشرقاً وديعاً رقيقاً ينم عن منتهى الذكاء والحساسية . ولئن حاولنا الايجاز في عرضنا لما تقدم من احداث ، فلا يسعنا إلا الوقوف بشيء من التريث ، لنعرض للوجه الآخر لهذا الحاكم ، الذي ارسى قواعد الحكم والمجتمع ، ورسم اسلوب الحياة لمن تبعه من حكام ومحكومين .



إحدى نوافذ جامع قرطبة

فبفضل شخصيته الفذة استطاع عبد الرحمن ، رغم الخلفية الدموية الصعبة التي عاشتها الأندلس منذ الفتح ، ان يرقى بها الى قمة الجلال والابهة والفخامة والترف ، فبنى القصور ، وشيد المساجد ، واقام الجسور وجلب المياه ، وارسى قواعد العدل ، ورعا أرباب العلم والأدب والفن . وبدأت في عهده نهضة علمية ادبية فنية معمارية ، مهّدت الطريق أمام ذلك الازدهار الذي طبقت شهرته الآفاق ، ليس في الأندلس فحسب بل وفي العالم المتحضر انذاك .

فكيف بدأت هذه النهضة في ذلك البلد الذي عانى ما عاناه من ثورات وفتن ودموع ودماء . ومن اين لذلك العربي المغترب المنعزل القصي ، ما شهده عهد عبد الرحمن الثاني من نهضة ادبية علمية فنية ، فاقت كل ما عرفته بلاد الله الأخرى انذاك . وما الذي جعل بعض المؤرخين يصفون عهد عبد الرحمن الثاني « بأيام العروس » ويعتبرونه اسعد فترات الدولة الأموية على الاطلاق ؟

يقول العرب ، ان الناس على دين ملوكهم . فإن كان منفتحاً انفتحوا ، وان كان متسامحاً تسامحوا ، وان كان كريماً اصابهم من كرمه ما يكرمون به غيرهم ، وان كان محباً للخير ، زرع بذور الخير في قلوبهم ، وان شجع العلم والأدب والفن ، تسابقوا الى اظهار مواهبهم طمعاً في تقديره ومساندته لهم . وكان عبد الرحمن الثاني يجمع بين هذه الصفات . فإن سمع بذي موهبة ، ادناه منه وأسبغ عليه النعم وحاطه بالرعاية .

ولم يكن أهل الأندلس منعزلين عن العالم كلية . فلقد ظلت صلتهم بالمشرق قائمة، اما من اجل التجارة أو الحج او انتهال العلم او اقتباس الفن . وكانت بغداد عاصمة العباسيين تتألق انئذ في جميع ميادين العلم والفن والأدب ، وكانت دار الحكمة في بغداد تعج بالعلماء والادباء والفلاسفة والمترجمين ، الذين بدأوا ينقلون الى اللغة العربية نفائس الكتب العلمية والفلسفية والأدبية من لغات اليونان والرومان والفرس . وفي غمرة النهضة هذه ، أقبل الناس يلتهمون المعارف ويزيدونها شرحاً وتفسيراً .



صحن المسجد الجامع بقرطبة .

وكان العائدون من المشرق ينقلون الى الأندلس أخبار تلك النهضة ويرجعون بما يستطيعون حمله من نفائس الكتب والمنتجات ، ويرددون ما سمعوه من شعر وأدب وغناء .

وقد أوفد عبد الرحمن الثاني قبل توليه الحكم عباس بن ناصح الى بغداد لتقصي اخبارها العلمية ولاستنساخ الآثار العلمية المنقولة عن اليونانية والفارسية . ولعبد الرحمن الفضل في ارساء قواعد الحكم حسب الاسس التي تقوم عليها الدولة في بغداد .

وكان عبد الرحمن متتبّعاً لما كان يدور في عاصمة العباسيين ، تواقاً لأخذ ما تفتقت عنه عقول أهلها وقرائحهم وما خطته اقلامهم . ففتح ابواب قصره على مصاريعها لكل من توسم فيه موهبة من هذه المواهب ، حتى اصبح جلساؤه وخلانه من الأدباء والعلماء والشعراء والفنانين ، كعباس بن فرناس ، حكيم الأندلس الذي

اخترع الزجاج من صخر كثر وجوده في الأندلس ، وصنع أجهزة فلكية جديدة ، وكان أول انسان يطير في الجو ، ولو لارتفاع بسيط ، لم يتعد اقداماً مائة . وكان من جلسائه أيضاً يحيى الغزال الشاعر وأول دبلوماسي عربي في تاريخ الأندلس ، قام بسفارتين الأولى الى الملك النورماندي ، عقب اولى محاولات النورمان غزو الأندلس ، والثانية الى عاصمة البيزنطيين ، وان كان أشهر من رعاه عبد الرحمن ، رجلاً كان له أكبر الأثر في حياة الأندلس الفنية والاجتماعية ، هو علي بن نافع الذي عرفه التاريخ باسم زرياب .

ولنعرف شيئاً عن هذا الرجل لا بد لنا من اطلالة على بغداد ، على قصر الخليفة هارون الرشيد الذي طبقت الافاق اخبار عظمته ومظاهر البذخ والترف والفن التي شهدها .

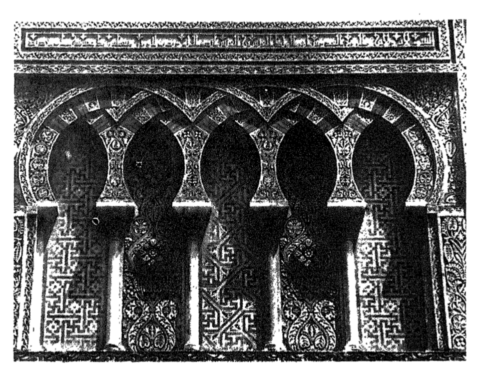
كان للخليفة نديم اسمه اسحاق الموصلي ، وكان هذا رائد الموسيقى والغناء في ذلك العصر . وكان لهذا الموسيقي مولى من أصل فارسيّ، تتلمذ في العزف والغناء على يد سيّده فأبدع ايما ابداع . وذات يوم طلب الخليفة الى الموصلي ان يسمعه صوتاً جديداً ، فاحضر له زرياب . وطرب الخليفة ، الذي لم يعجب بعزفه وغنائه فقط ، ولكن بشعره وشخصيته ولباقته وذوقه الفني . ولم يخف الخليفة اعجابه به ، الأمر الذي اقلق الموصلي خوفاً من منافسة تلميذه له . فأوعز اليه بالنزوح من بغداد ، بلهجة لم تكن خلواً من التهديد ، فرحل . وحملته قدماه الى القيروان إلا انه اختلف مع اميرها ، فكتب الى عبد الرحمن فرحب به ، لما سمع عنه ، واغدق عليه كما لم يغدق على احد .

ولم يمر طويل وقت حتى اصبح زرياب نديم الامير الذي لم يعد يطيق فراقه ليلاً أو نهاراً ، لدرجة أنه جعل بينهما باباً خاصاً يعبر منه زرياب عندما يستدعيه الأمير الى حضرته . وقد استطاع زرياب ، بما طبع عليه من ذوق رفيع وحس مرهف وشعر جزل وبراعة في العزف وإبداع في الغناء ، أن يستولي على مشاعر الامير الذي كان محباً لمجالس الأنس ومعاشرة النساء ومعاقرة الخمر . ولم تكن هذه كل مواهب زرياب . فقد كان وسيماً شديد السمرة ، ومن هنا لقب بزرياب ، وهو اسم طائر غريد اسود اللون . وكان انيقاً في ملبسه وتصرفاته ، استطاع ، من خلال مظهره الخارجي ، أن يؤثر في أذواق الناس فأصبحوا يقلدونه في الملبس وتصفيف الشعر ، وفي استعمال المرتك ضد رائحة العرق في الجسم ، الى جانب ادخال بعض المأكولات التي لم يكن يعرفها المطبخ الأندلسي .

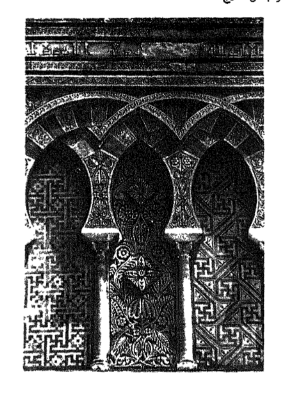
أما موهبته الأولى فكانت الموسيقى والغناء . وقد جدد في فن العزف على العود ، بل وجعل عدد أوتاره خمسة بدلاً من أربعة ، وجدد في الغناء ، فأصبح بمثابة مدرسة فنية خلقت نهجاً جديداً في العزف والغناء ، قلده فيها معاصروه ومن جاء بعدهم . وكان له تلامذة في العزف والغناء أصبح لهم شأن كبير في هذا المضمار وخاصة بعضاً من أبنائه . وفضلاً عن ذلك كله كان زرياب ظريف المعشر ، متقناً لفنون الأدب والمحادثة والمجالسة ، وكان خير من عرف ارضاء رغبات الحكام وخدمتهم ، فأصبح ظاهرة نسب اليها ، حتى آخر ايام الأندلس ، الكثير من مظاهر التقدم الاجتماعي الذي بزغ فجره بمجيء زرياب الى الأندلس .

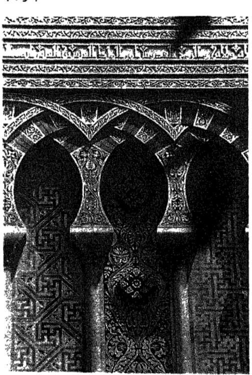
ومن الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في حياة عبد الرحمن الثاني جارية اسبانية من بلاد البشكنس اسمها « طروب » . وكان عبد الرحمن شغوفاً بها الى درجة انها اصبحت قوة يحسب لها الف حساب في القصر . وقد ولدت له ولداً اسماه عبدالله . وكانت طروب هذه تريد لابنها أن يرث الامارة . أما عبد الرحمن فقد اختار من بين ذريته ، التي بلغ عدد أفرادها ثمانين ، بين ذكور واناث ، ولده محمداً ، مما أوغر صدر طروب على عبد الرحمن ، فتآمرت على قتله بالسم ، مستعينة بطبيب القصر الذي كشف هذه المؤامرة ، ونجا عبد الرحمن من الموت .

وفي عام 852/238 توفي عبد الرحمن بن الحكم عن عمر يناهز الثمانية والستين ، بعد ان امضى في الحكم نحو اثنين وثلاثين عاماً . ولما اكتشف خدم الأمير الصقالبة موت



جدران جامع قرطبة من الخارج .

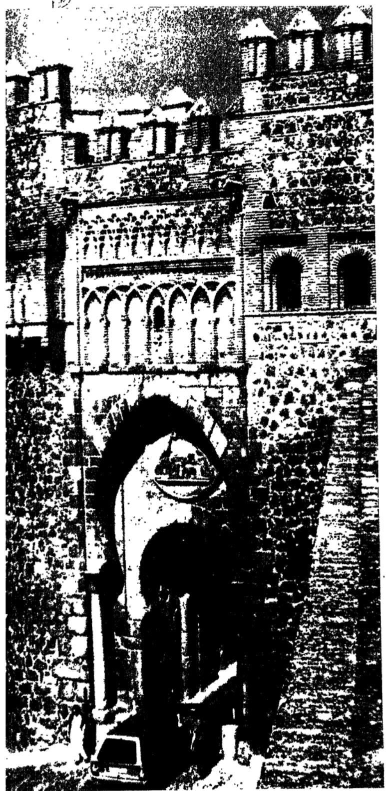




سيدهم تستروا على الأمر ، واغلقوا ابواب القصر ليقرروا في امر البيعة، نظراً لأن معظمهم كان يفضل عبدالله إبن طروب ، التي كانت ما تزال تتمتع بقدر كبير من السلطة في القصر ، وتغدق عليهم الهبات كسباً لولائهم . غير ان كبير الخدم اثناهم عن ذلك ، فذهب من اطلع الامير محمداً على وفاة والده ، وسلمه خاتم الامارة ، فجاء الى القصر متخفياً خوفاً من بطش طروب وابنها ، واخذ البيعة ليصبح في عام 852/238 خامس امراء بني امية في الأندلس .

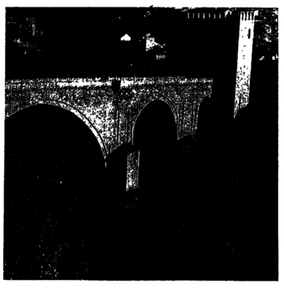
لم يكد **الامير محمد بن عبد الرحمن** يشعر بدفء كرسي الامارة ، حتى بدأت بوادر التململ تظهر كالعادة في بداية كل عهد من العهود ، قبل ان يشتد عود الحاكم الجديد ويصبح قادراً على صد محاولات الطامعين وكسر شوكتهم . ولئن استطاع عبد الرحمن الثاني ان يضفي على الأندلس جوا من الاستقرار والانسجام والتسامح والتوافق الاجتماعي ، وان يفرض حكما مركزيا امسك بالبلاد من أقصاها الى أدناها بقبضة من حديد، إلا أن هذا الانسجام كان ، على ما يبدو ، ظاهرياً ليست له جذور. ولئن استطاع الاسلام ان يوحد بين مختلف عناصر هذا المجتمع عقائدياً ، واستطاعت اللغة العربية ان تقرب بين مختلف فئاته ثقافياً ، غير ان العصبية القبلية حالت دون انصهار شعب الأندلس في بوتقة القومية ، لتجعل منه جسماً واحدا متماسكاً متكاملاً، يقف امام عواصف الدهر ومطامع الطامعين. كما ان مفهوم الانصهار القومي لم يكن واردا في اذهان الحكام، طالما انهم ظلوا يفكرون بانتمائهم القبلي ويتخذون قراراتهم، مهما كانت درجة خطورتها، انطلاقاً من هذا الانتماء. وظل هذا المجتمع عبارة عن رقعة فسيفسائية غير متماسكة ولا متلاحمة، فرشت على أرض الأندلس دون ان تجعل لها قاعدة تشد هذه القطع الواحدة منها الى الأخرى .

وكالعادة ، كانت طليطلة (Toledo) رائدة التمرد ، فمعظم أهلها من المولدين والمستعربين الذين طالما شجعتهم الحركات الاسبانية الاستقلالية في الشمال على الثورة، بل وحاربت معهم. وهب محمد بن عبد الرحمن



باب شمس بطليطلة .

شخصياً لمواجهة هذا التمرد عام 854/240 ، وقضى عليه . ولكن طليطلة اطلت برأسها ثائرة أكثر من مرة ، الى ان سيطر عليها بربر بني ذي النون ، وأعلنوا استقلالها عن الحكم المركزي ، بموافقة الأمير محمد . وكان هذا هو الحجر الأول الذي سقط من بنيان الحكم المركزي ، الذي اخذت تتهاوى اجزاؤه واحداً بعد الآخر ، الى ان اوشك على الانهيار كلياً كما سنرى .



القنطرة العربية بطليطلة .

ومن طليطلة انتقلت عدوى الفتن الى ماردة عام 868/254 ، والى سرقسطة 872/258 والى بطليوس 877/263 والى رُندة 261 /875 والى سرية 255 /869 والى وشقة 256 /870 والى الجزيرة الخضراء 265 /879 والى رية 883/269 والى شنتبرية (SANTANDER) وغيرها، وان كان أهمها ثورة ابن حفصون عام 881/267 التي عجز الأمير محمد وابنه المنذر من بعده عن القضاء عليها.

اضف الى ذلك كله ، ان النورمان قاموا بهجوم آخر عام 859/245 . إلا أن الاسطول العربي صد غزوتهم وافقدهم نحو ثلثي مراكبهم .

ورغم كل ذلك ، قام الأمير محمد بعمليات جهادية عديدة في شمال البلاد ، ضد ملوك الاسبان وتجمعاتهم في حملات الصوائف السنوية . ومن الطبيعي ان يتسم عهد محمد بن عبد الرحمن بالخمول الحضاري ، ذلك أنه امضى معظم السنوات الخمس والثلاثين من حكمه في مطاردة العاصين والمتمردين ، محاولاً بذلك الابقاء على النظام المركزي الذي بذل أبوه الكثير من اجل ارساء قواعده .

وقد ورث خليفته **المنذر بن محمد** عند اعتلائه عرش الامارة عام 886/273 حملاً مثقلاً بالمشاكل المستعصية عن الحل . فالوضع العام كان يتسم بالتمزق ، والطامعون أخذوا ينهشون جسم الدولة كالذئاب الجائعة . فضلاً عن المؤامرات التي تغلغلت في القصر ذاته ، وكادت أن تقوضه على رؤوس أصحابه ، لولا أن المنذر قضى على رأس هذه المؤامرات وهو وزير ابيه . ومن الهواجس التي كانت تقلق المنذر ذلك الثائر الشرس ابن حفصون ، الذي عجز ابوه عن القضاء عليه ، والذي اصبحت سيطرته تشمل منطقة واسعة ، وصار يمثل رمزاً للاستقلال القومي بين أهله من المولدين ، الذين التفوا حوله فيما يمكن وصفه بجهاز ثوري متكامل اقتصادياً وعسكرياً .

وفيما كان المنذر يحاصر معقل ابن حفصون ، وافته المنية في ظروف غامضة، ولما يتمّ عامه الثاني في الحكم، مما ادى ببعض المؤرخين الى توجيه اصابع الاتهام الى أخيه عبدالله في القضاء عليه . وكان تقييم المؤرخين له جيداً ، إذ نعتوه بصفات جليلة ، من حيث رجاحة عقله وسخاؤه وتقديره للعلم والأدب ، وشجاعته ، وحزمه ، بل ان بعضهم قال انه لو بقي حياً عاماً واحداً آخر ، لقضى على كل ثائر واهلك كل طامع .

وجاء **عبدالله بن محمد** الى الحكم عام 888/275 دون أن يعترض سبيله الى الكرسي أي منافس ، ذلك أن اوضاع البلاد لم تكن تجتذب من أهله من يطمع في هذه التركة المشحونة بالخطر. وكما كان ابن حفصون الهاجس الأكبر لأخيه ولابيه من قبله ، كان كذلك بالنسبة اليه . وقد اضطر الى مهادنته ، ليلتقط انفاسه وينظم اموره الادارية والعسكرية أولاً .

غير أن امد هذه المهادنة لم يطل ، وظل الصراع قائماً بين

السلطة المركزية وابن حفصون ، الذي بلغ به الأمر ان دعا للعباسيين في مساجد المناطق التي يسيطر عليها ، واتصل بالأغالبة في افريقية ، وكذلك بالملك الفونسو الاسباني ، طالبا المساعدة في القضاء على عبدالله ، بل انه اعلن تخليه عن الاسلام واعتناق المسيحية تقربا من هذا الملك . ثم اعلن ولاءه للفاطميين عندما قضوا على الأغالبة في القيروان ، وتحالف مع عرب اشبيلية ، التي اعلنت العصيان على قرطبة تباعا مرارا . ولكنه بالرغم من فرض سيطرته على جزء كبير من البلاد ، إلا انه عجز عن كسر شوكة الامارة ، وظل الوضع جامدا على هذا الحال طيلة عهد عبدالله .

وتكررت الفتن والثورات والانتفاضات الاندلسية ، حتى بلغ عددها أكثر من ثلاثين ، كان معظم ابطالها من المولدين والمستعربين ، الأمر الذي وحد أحيانا من صفوف العرب ، لتعود الى التفرق والتناحر والحروب ، بعد ان يقضوا على هذه الانتفاضات ، وتبدأ عملية الصراع على النفوذ والمغانم السياسية من جديد .

ومن أمثلة ذلك ما شهدته اشبيلية ، التي كان معظم سكانها من المولدين والمستعربين . فقد تحالف زعماء العرب ضد المولدين وانتصروا عليهم ، ثم بدأت عمليات التصفية بين العائلات العربية المتنافسة الثلاث ، وهم بنو عبده وبنو خلدون وبنو حجاج ، وتدحرجت بعض الرؤوس ، الى ان استتب الأمر لابراهيم بن حجاج ، الذي اتصل بالأمير عبدالله لمهادنته ، فاعترف له الأمير بالاستقلال في اشبيلية وقرمونة ، فأقام فيها حكومة تكاد تكون مستقلة ، لها جيشها وادارتها ، كما أنشأ فيها قصرا اتسم بالترف والفخامة ، وفتح ابوابه للعلماء والأدباء والشعراء .

وقد أدت هذه الحركات الاستقلالية الى تقلص نفوذ الحكم المركزي ، الذي لم يعد يتعدى كثيرا حدود العاصمة قرطبة ، بل ان ابن حفصون تجرأ في اكثر من مرة على غزو ضواحي العاصمة ، واعمل فيها النهب والتدمير .

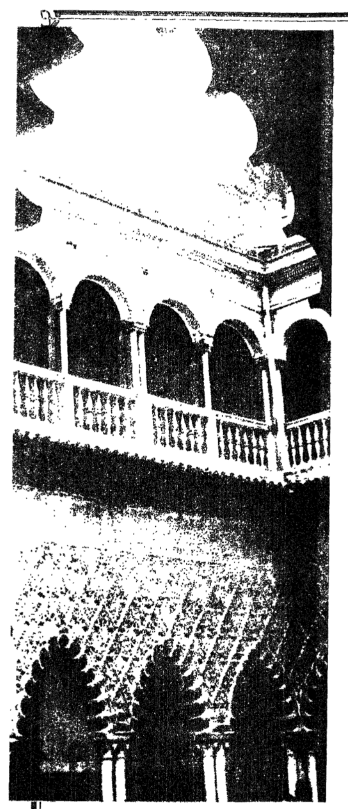


مئذنة احد جوامع قرمونة .

وكأن هذه المصائب لم تكن كافية بالنسبة لهذا الأمير . فقد ابتلي بولدين من أولاده كان كل واحد منهما يطمع في الخلافة ، وكان الأمير يميل الى ابنه محمد . وظل الابن الآخر مطرف يكيد لأخيه ، ويلصق به التهم عند ابيه ، فأمر بسجنه . ولم يكتف مطرف بذلك ، فدخل الى السجن وقتل أخاه محمداً ، ثم تآمر على والده مع خصومه ، الى ان ضاق والده به ، فأمر بقتله ، وكان قد قتل شقيقه هو القاسم بن محمد بتهمة التآمر عليه .

ويذكر المؤرخون ، مع ذلك ، ان عبدالله كان ورعاً تقياً محباً للخير ، ناشراً للعدل ، منكباً على العبادة . غير ان هذه الخصال الحميدة لم تكن تثنيه عن قطع الرؤوس ، ولو كانت رؤوس اقرب الناس اليه .

وان كان لعبدالله فضيلة غفرت له الكثير من الذنوب، وكانت بمثابة عزاء لما بلغته الدولة الاسلامية من تمزق وتفتت وانقسام، فهي اختياره لحفيده عبدالرحمن ابن ولده محمد، الذي قتله أخوه المطرف في السجن، وقد خلف عبدالرحمن جده بعد وفاته عام 912/300، وقدر له أن يقلب الموازين، ويغير مجرى التاريخ الأندلسي، وينتشل الحكم الأموي من الهوة التي انزلق اليها، ويرقى به إلى مستوى الخلافة، بعد أن اجتثت جذورها من المشرق، ليعرف بالخليفة الناصر لدين الله عبدالرحمن الثالث.



احدى زوايا فناء العذارى بقصر اشبيلية .

أسماء الأمراء

1 ـ عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل)،
(138-755 - 172/788).

2 ـ هشام الأول بن عبد الرحمن (الرضا)،
(172/788 - 180/796).

3 ـ الحكم الأول بن هشام (الربضي)
(180/796 - 206/822).

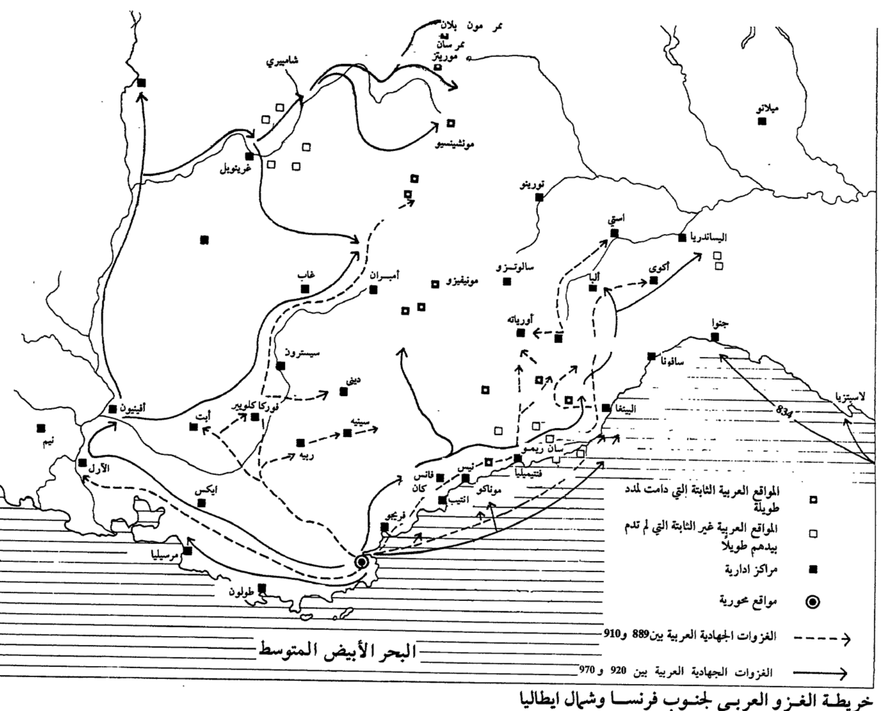
4 ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم، (الأوسط)
(206/822 - 238/852).

5 ـ محمد الأول بن عبد الرحمن،
(238/852 - 273/886).

6 ـ المنذر بن محمد،
(273/886 - 275/888).

7 ـ عبد الله بن محمد،
(275/888 - 300/912).

8 ـ عبد الرحمن الثالث (الناصر)،
(300/912 - 350/961).
أعلن نفسه خليفة عام (316/929).



خريطة الغزو العربي لجنوب فرنسا وشمال ايطاليا

جدول بياني لعصر

	المغرب	مصر	بلاد الشـــام	الدولة العباسية	عصر الامارة الأموية في الأندلس
1000					
990				ـ القادر .	
	البربر				
980		الفاطميون	الفـــاطميون	ـ التقي .	
970					
	الفاطميون				
960					
950				ـ المطيع . ـ المستكفي	
940		الأخشيديون	الأخشيديون	ـ المتقي . ـ الراضي .	
930				ـ القاهر .	
920					
910					ـ عبد الرحمن الثالث (الناصر) .
		العباسيون	العباسيون	ـ المقتدر	
900				ـ المكتفي .	ـ عبد الله بن محمد بن عد الرحمن .
890				ـ المعتضد	ـ المنذر بن محمد بن عبد الرحمن .
880					
870		الطولونيون	الطولونيون	ـ الموفق ـ المعتمد .	
				ـ المهتدي . ـ المعتز . ـ المستعين	
860				ـ المنتصر .	ـ محمد بن عبد الرحمن بن الحكم .
850				ـ المتوكل .	
840				ـ الواثق .	
830				ـ المستقيم .	
820				ـ إبراهيم .	ـ عبد الرحمن الأوسط بن الحكم .
810				ـ المأمون . ـ الأمين .	
800					ـ الحكم الأول بن هشام (الربضي) .
790	الادارسة			ـ هارون الرشيد ـ الهادي .	ـ هشام الأول (الرضا) بن عبد الرحمن .
780					
770				ـ المهدي .	
760					
750	العباسيون	العباسيون	العباسيون	ـ المنصور ـ السفاح .	ـ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) .

الامارة الاموية

أهم الأحداث والمنجزات
ـ عبد الرحمن الثالث أعلن نفسه خليفة .
ـ عبد الله بن محمد ـ نشوب نحو ٣٠ ثورة قام بها المولدون والمستعربون والعرب والبربر كادت تقوض الحكم الأموي لولا مجيء عبد الرحمن الناصر.
ـ المنذر بن محمد بن ـ ثورات متكررة . ـ عزوة أخرى من النر رمان .
ـ عبد الرحمن الأوسط ـ الغزو النورماندي ـ الفتنة الدينية التي حركها ايلوخيو ـ حملات جهادية وتأديبية . ـ تثبيت أقدام العرب في الجزر الشرقية (البليار) . ـ بداية الازدهار العلمي والعمراني والحضاري . ـ وصول زرياب وبدء عصر فني جديد .
ـ الحكم الأول ـ قضى على نفوذ الفقهاء . ـ قامت ثورة الربض بتحريض من الفقهاء فقضى عليها وعلى العديد من الثورات الأخرى ـ مجزرة طليطلة . ـ واصل بناء الجامع وتوسيعه . ـ قام بحملات جهادية متعددة . ـ بذر أول بذور الترف والتذوق الفني والعلمي وادبي .
ـ هشام الأول ـ تعاظم شأن الفقهاء الذين كانوا يحيطون بهشام وأصل بناء الجامع بقرطبة .
ـ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) . ـ ثورات محلية عربية وبربرية متواصلة أمضى معظم فترة حكمه في إخمادها . ـ فشل حملة شارلمان التي تآمر معه فيها الأعرابي حاكم برشلونة والأنصاري حاكم سرقسطة . ـ أهم إنجازاته: القضاء على الثورات وخلق دولة موحدة ذات أجهزة مدنية وإدارية وعسكرية . ابتنى المسجد الجامع في قرطبة وقصر الرصافة .

الفصل الرابع

«الضحى»

عصر الخلافة

مر على الفتح العربي للاندلس يوم تولي عبد الرحمن الثالث الحكم عام 912/300، زهاء قرنين من الزمن، عصفت خلالهما بالحكم العربي رياح عاتية متواصلة كادت ، في أكثر من مناسبة ، ان تقتلعه من جذوره وتدفن منجزاته في غياهب النسيان ، وخاصة خلال حكم الاميرين الأخيرين اللذين ، وان حاولا قدر طاقتيهما انقاذ مركزية الحكم من التفتت ، إلا أن ذلك ، كان على ما يظهر ، فوق طاقة الحاكم العادي ، مهما بلغ من شجاعة وحزم وإقدام .

وكان لا بد من معجزة . وتشاء الأقدار ان تتيح للحكم الأموي فرصة أخرى لإكمال الدور الذي لعبه ، على الأخص ، عبد الرحمن الأول ، ثم عبد الرحمن الثاني ، فتسوق اليه عبد الرحمن الثالث ، لينقذ كرسي الحكم قبل ان يتحطم فوق صخرة الضياع ، ثم يرقى به الى ذروة المجد وقمة العظمة ويسهم ، من فوقه ، في اقامة صرح حضاري ، ما زالت حتى يومنا هذا تتردد اصداء عطائه في العديد من ميادين المعرفة ، وتسطع رسالته خيراً وبراً وهداية ، وتجتذب معالمه العمرانية الملايين ، اعجاباً واجلالاً وتقديراً . فكيف تمت هذه المعجزة ، وما هو سر هذا الرجل الذي قال عنه المقّري انه « لم تبق امة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية » .

عبد الرحمن الثالث كان ، كما رأينا في الفصل السابق ، وليد صدفة ساقتها الأقدار ، وما اعجب الأقدار ، اصطفته وكأنها غربال ، من بين من هم احق منه في الحكم ، اذ قتل ابوه وقتل عمه قاتل ابيه ، واختاره جده عبدالله ولياً للعهد ، لما توسم به من ملامح تؤهله للاضطلاع بمهام الحكم في تلك الظروف العصيبة ، فأغدق عليه ما استحق من عطف ورعاية ، والقى بين يديه ، قبل ان يغيب عن الحكم ، بتركة مثقلة بالهموم والمشاكل ، لم يطمع بها أي طامع .

ولما استوى عبد الرحمن على عرش الامارة ، لم يكن حديث عهد بالمشاكل والمخاطر التي تحدق بها من كل ناحية ، ولا بالأنياب التي تنهش في جسدها محاولة التهام اطرافها المبعثرة . فقد أمضى سنواته الثلاث والعشرين السابقة ، وهو يرقب عقد الحكم المركزي ينفرط حبة حبة ، وكان لا بد من خطوة جريئة تختلف عن الخطوات التي اتخذها جده ، بعد ان ثبت عقمها . فالحلول الجزئية لم تعد تصلح ، والمواجهة الفردية لن تأتي ، ان كتب لها النجاح ، إلا بحلول جزئية مؤقتة . وكان لا بد من مواجهة عامة شاملة ، تتصدى لجميع العوامل التي أدت الى ذلك التشرذم والضياع .

وكان في شخصية عبد الرحمن الثالث الفذة المنفتحة ما يؤهله الى إلقاء عقد التعصب وتشنجات الحكم جانباً ، فخاطب الثوار ، جميع الثوار ، ملوحاً بعرق من الزيتون ، حمله على سيف كان وميضه ينم عمّا به من كوامن البطش . ولم يكتف بذلك ، فأوفد الى الرؤوس الثائرة وفوداً تحيطهم ، ان لم تكن اصداء النداء قد وصلتهم ، بالسياسة التي يريد الحاكم الجديد انتهاجها ، بدءاً بالحوار ، وانتهاء بالانضواء تحت راية قرطبة . ولعل الثائرين لمسوا ما تنطوي عليه سياسة الأمير الجديد من جدية وحزم ، فبدأ الواحد منهم بعد الآخر يعلن خضوعه لقرطبة ما عدا اثنين ، ابن حفصون الثائر المزمن القابع في قلعته المنيعة في (ببشتر)، وبنو حجاج في اشبيلية .

قام الأمير بنفسه على رأس حملة ضد ابن حفصون،إلا انه لم يستطع أخذ القلعة ولكنه قضى على ما يحيط بها من جيوب كانت تدور في فلك ابن حفصون فعزله في قلعته يعاني من وطأة الحصار .

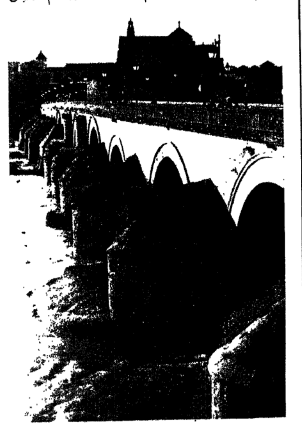
وفي اشبيلية دب الخلاف بين افراد اسرة الحجاج ، اثر وفاة عميدها ابراهيم ، فبعث عبد الرحمن بحملة قضت على حكمهم فيها نهائياً ، ولم يمض عليه في موقع السلطة سوى عام واحد .

أما ابن حفصون فقد ظل قابعاً في قلعته الحصينة يعاني من الوحدة ومن وطأة الشيخوخة ، فيما انصرف عبد

الرحمن الى ترميم التصدع الذي ألمّ بالنظام ، وترقيع الاقتصاد الذي نخرته الصراعات الداخلية المتلاحقة . ولعل ابن حفصون يئس ، في هذه الأثناء ، من جدوى المقاومة ، فجاء مصالحاً بعد ثلاث سنوات ، وكان له ما اراد .

وظل الوضع هادئاً هناك الى ان مات هذا بعد ثلاث سنوات ، ليشعل ابنه فتيل الثورة من جديد ، فيقتله اخوه ويصالح قرطبة، ثم يثور هو الآخر من جديد، ويتم القضاء على القلعة ومن فيها بعد خمس عشرة سنة من مجيء عبدالرحمن الى الحكم، تلك القلعة التي ظلت أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، قبل تسلمه زمام الأمور تشكل للحكم المركزي واحداً من أشد هواجسها خطورة.

وكان عبد الرحمن الثالث، في هذه الاثناء ، يكرس معظم وقته للبناء والتنظيم والادارة ، ويطعّم الجيش



قنطرة قرطبة الرومانية بعد ان اصلحها العرب .

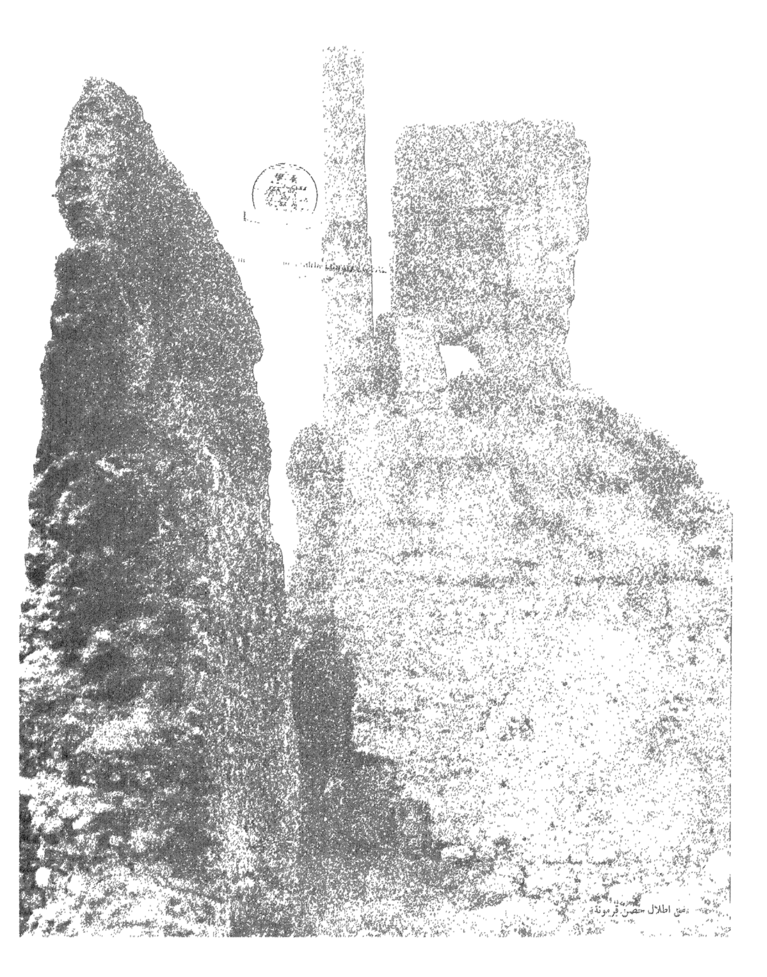
بعناصر جديدة من الصقالبة الاشداء الملتصقين به ولاء وانتهاء . غير أنه ، وهو منشغل بالاصلاح الداخلي ، ظلت عيناه ترقبان ما يدور حوله في العالم من احداث ، وتتابعان خيوط السياسة في تشابكها وتغير اشكالها ، على ذلك النحو السريع في كل من المشرق والمغرب .

فالخلافة العباسية كان نجمها قد أخذ بالأفول ، واصبح خلفاؤها في قبضة ضباطهم من الترك والديلم ، منصاعين لإرادتهم ، منفذين لاوامرهم . وفي المغرب ، اعلن الفاطميون ، أعداء الأمويين والعباسيين ، قيام خلافة فاطمية ، ضاربين عرض الحائط بمفهوم وحدة الخلافة ، التي كانت تمثل المسلمين ديناً ودنيا .

وبدأ عقل عبد الرحمن الثالث يعمل بسرعة . فمغتصبو الخلافة من أهله ينحدرون بسرعة في المشرق الى الحضيض ، والفاطميون الشيعة ، أعداء اجداده الألداء يقيمون خلافة على عتبة حكمه في المغرب ، بما يحمل ذلك من اخطار كامنة ، قد تؤدي الى فرض المذهب الشيعي في العالم الاسلامي بأسره . وان كان لا بد من خلافة اخرى ، فهو صاحب حق تاريخي فيها . بل هو أحق من العباسيين والفاطميين في الخلافة . ألم تخطط له الأقدار ذلك عندما اعمت العباسيين عن جده الأكبر عبد الرحمن الداخل ، فقطع الاقفار الى اقاصي الأرض ، ودخل وحيداً ليحيي امجاد بني أمية في الأندلس ؟ ألم تخطط له الاقدار ، عندما تعدت اباه وعمه وجاءت به هو ، من دون غيره ، لينقذ ما عجز غيره عن انقاذه ، ويعيد للحكم هيبته ، ويقضي على الطامعين فيه ؟ الا يجب ان يقيم درعاً يحمي مكاسبه ، ويدرأ عن حكمه خطر الزوال ، ويعيد الى اجداده حقهم الشرعي في الخلافة ؟

وفي عام 929/316 اعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ليصبح لقبه ·**أمير المؤمنين الخليفة الناصر لدين الله** .

وكان لا بد ازاء هذه الخطوة، التي ستؤلب عليه الخلافتين ، من اقامة جهاز عسكري قادر على درء الخطر المحدق به من الشرق ومن الجنوب ومن الشمال . وكان الناصر قد دعم جيشه بعناصر قوية من الصقالبة ، ودفع



من اطلال حصن قرمونة

بهم الى اعلى المراكز العسكرية ضماناً لولائهم ، وتحسباً من مطامع غيرهم ، ممن قد تجرفهم التيارات السياسية المحلية لغير مصلحته . غير ان هذه الخطوة لم يحالفها التوفيق كما سنرى .

ولئن ظل الصقالبة بعيدين عن التيارات المحلية ، الا أن كثرة عددهم في الجيش وتبوُّؤ بعضهم مراكز قيادية فيه ، اثار ضغينة العناصر العربية والبربرية ، التي اصبحت تشكل اقلية في الجيش ، فبات مفتقراً الى عنصر الانسجام ، قادة وجنداً ، مما أدى الى هزيمة ماحقة لجيش الخلافة في واقعة الخندق ، التي قادها الخليفة بنفسه عام 939/327 ضد راميرو الثاني ملك ليون .

وكانت واقعة الخندق هذه خاتمة المعارك التي احتدمت بين الاسبان والخلافة اثناء عهد عبد الرحمن . ذلك ان الاسبان ظلوا منذ الفتح ، يتربصون بالمسلمين ، ويعدون للانقضاض عليهم واسترداد الأرض منهم . ومما كان يشجعهم على ذلك ، الصراع والتفتت داخل نظام الحكم العربي .

غير ان تحركات الاسبان تطورت مع الوقت لتتخذ شكلاً صليبياً اخذ يلهب حماس الاسبان ويستولي على مشاعرهم . وقد بلغت هذه المشاعر مستوى خطيراً مع تولي روميرو الثاني مقاليد الحكم ، ذلك انه ، اضافة الى مقدرته القيادية الهائلة ، كان يتسم بنزعة صليبية جامحة .

وظلت هذه الجبهة ، التي شهدت تحالفات بين ممالك غاليسيا وقشتالة ونابرة ، تتأرجح بين الاشتعال والهدوء ، الى ان مات روميرو الثاني ، ودب الخلاف بين اولاده ، وتردت الأحوال في مملكته . وكان من المفارقات العجيبة ، ان يلعب الناصر دوراً في حسم الخلاف بين ولدي روميرو ، ويفصل في أمر الحكم لأحدهما وهو شنجة ، الذي حفظ للخليفة جميله ، فخيم على علاقاتهما السلام والمودة .

غير أن هدوء الجبهة الشمالية لم يتح للناصر نوماً عميقاً . ذلك ان رياح الخطر الفاطمي اخذت تهب عليه من الجنوب عبر المضيق . وعبد الرحمن الناصر ليس بالرجل الذي يترك اقداره للحظ . فبعد التحامات بحرية



قصبة مالقة .

مع الفاطميين، تنبه الى أهمية تعزيز اسطوله البحري دفاعاً عن شواطىء الأندلس . فكرس لذلك كل جهده ووقته ، الى ان خلق قوة بحرية هائلة ، تستطيع التصدي لأي خطر مهما كان مصدره . غير ان الظروف لا تشاء له ان يستخدم هذه القوة ضد الفاطميين ، الذين ما لبثوا ان استولوا على مقاليد الحكم في مصر من كافور الاخشيدي ، وانصب اهتمامهم بعد ذلك على المشرق ، فارتفع عنه كابوس هذا الخطر المحدق ، ولو الى حين .

وفي الوقت الذي كانت يده اليمنى تمتشق الحسام ، كانت يده اليسرى تنضد المنشآت العمرانية حجراً فوق حجر ، حتى اذا ما انقشعت غيوم الثورات والفتن ، القى بالسيف جانباً وبدأ يعمل بيديه الاثنتين، فشيدالقصور ، وبنى الطرق ، وشق الترع ، وانشأ المساجد ، ونال مسجد قرطبة الجامع من اهتمامه قدراً عظيماً ، فعمل على توسيعه باتجاه النهر ، واضاف اليه منارة مذهبة عرفت بمنارة الناصر ، وأنشأ حول قرطبة سورها العظيم .

ولو عدنا بخيالنا الى هذه المدينة انئذ ، لألفيناها تعج بمئات الألوف من البشر ، كأنها خلية نحل ، لا تعرف السكون ولا تخلد الى الراحة ، كما لو كانت في سباق مع الزمن . فهي الآن عاصمة خلافة ، ولا بد لها من الظهور بالمظهر الذي يليق بهذه الخلافة الصاعدة ، التي يعتلي عرشها رجل جمع من الخصائل ما يندر لغيره أن يتحلى بها .

فهو طموح ، اشبع طموحه بأن ارتقى الى مصاف الخلافة .

وهو مثقف ، أقام معاهد العلم وشمل العلماء برعايته .

وهو اديب مهد للادباء والشعراء الارض الخصبة التي يترعرع فيها عذب الكلام وبلاغة التعبير .

وهو مرهف الحس ، وَشَم بذوقه الرفيع عاصمته الجميلة بدرر النقش ولآلىء الفن .

وهو ارستقراطي ولا بد له من تتويج ذلك كله ، بانشاء مدينة جديدة في اطراف قرطبة ، بعد ان اصبحت هذه تضيق بسكانها الذين زاد عددهم عن نصف مليون من البشر ، اراد لها ان تصبح العاصمة الادارية ، ومقر الخلافة ، تنافس قاهرة المعز وبغداد الرشيد .

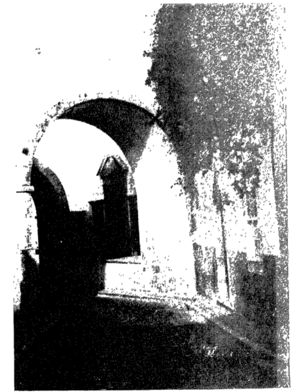
وعند سفح جبل العروس المطل على قرطبة ، تشكلت خلية نحل اخرى جاء بها من المشرق، من بغداد ومن القسطنطينية ومن كل بلد فيه مهندس أو بناء أو فنان أو حرفي، حتى بلغ عدد المشتغلين في بناء مدينة «الزهراء» هذه نحو عشرة آلاف، ظلوا يعملون في انشائها نحو اربعين عاما، والناصر يرقب قيام الصرح الذي لم يكتب له ان ينعم به طويلاً، اذ وافته المنية عام 350/961 قبل استكمال بنائه تماماً، ليصبح كما جاء في وصف المؤرخين واحداً من اعظم المنجزات الفنية في ذلك العصر، واكثرها تجسيداً للترف والبذخ .

غير ان الاقدار تشاء لمدينة الزهراء ان تندثر بالسرعة التي انشئت بها كما سنرى . وتظل مدفونة تحت تراب النسيان قروناً عديدة ، ليكتشفها عالم آثار اسباني في مطلع القرن الحالي ، ويخرج حطامها حجراً حجراً من باطن الأرض ، في محاولة للكشف عن معالم هذه المدينة التي وئدت في مهدها .

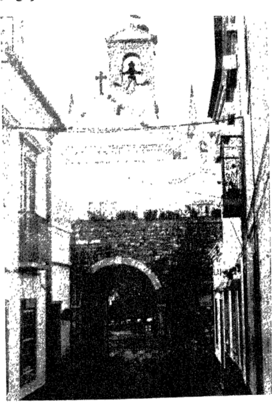
أما قرطبة فكانت قد بلغت ذروة مجدها،تشع على العالم نوراً ، وتزهو على عواصم العالم في عطائها العلمي والأدبي والفني ، وتفخر بنفائس مكتباتها وكنوز معارفها ، تقيم صرحاً حضارياً بعد آخر ، وتشيد مرفقاً عمرانياً تلو الآخر ، تعمل نهاراً ، وتسهر ليلاً على ايقاع الدفوف ورقص الجواري وأنغام الأوتار وترجيع الموشحات، التي اشتهرت بها ليالي الأندلس الساحرة ، والتي ظل أثرها حتى يومنا هذا واضحاً في الغناء الاندلسي المعروف بالفلامنكو ، والخوندا .

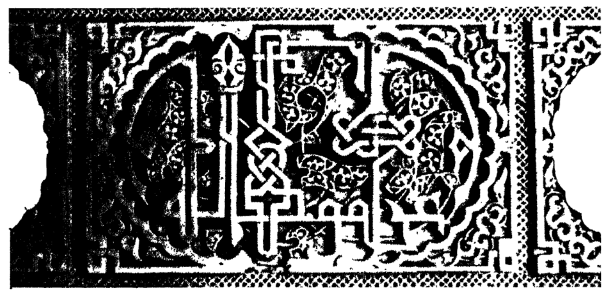
ولم تستقطب قرطبة طلاب العلم والمعرفة وعشاق الشعر والغناء فقط . فقد شهدت عدداً من الزيارات الدبلوماسية ، قام بها سفراء من الامبراطورية البيزنطية ، التي كان يجلس على عرشها انئذ الامبراطور المثقف قسطنطين السابع ، ومن الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كان يعتلي عرشها أوتو الأول ، فضلاً عن ممثلين عن ملك ليون وملك نابرة الاسبانيين وغيرهم .

وهكذا اصبحت قرطبة ، كما وصفها الرازي « ام المدائن وسرة الأندلس وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والاسلام » . ووصفها عالم آخر بانها « مدينة ازلية من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء ، احدقت بها البساتين والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب » . ووصفها ابن حوقل بقوله . . . «ان اعظم مدينة بالاندلس هي قرطبة ، وليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة رقعة ، وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق» . ووصفتها الشاعرة الساكسونية هروسويذا (Hroswitha) بأنها « زينة الدنيا » . وقيل ان خمسين الف مصباح كانت تضيء طرق قرطبة عندما كانت عواصم اوروبا غارقة في دياجير الظلام .




مناظر من مدينة الفارو بالبرتغال.



نقوش جصية تعلو افريزاً خزفياً في قصر اشبيلية .

وفي هـذا الجو المفعم بـالاستقرار السيـاسي ، الـذي تـدعمه قـوة عسكريـة هائلة ، ويعـزز ركـائـزه اقتصـاد مزدهر، يعتلي عرش الخلافة الزاهي عام 961/350 كهل كاد يبلغ من العمر خمسين عاما ، هو الحكم الثاني الخليفة المنتصر بالله ، الذي جاءه المجد على طبق من الذهب، بدا زاهداً فيه ، لم ينبهر لبريقه . فقد شب عليه ، وشاب في كنفه ، ولا يطمع الى المزيد منه ، فـإن امكنه المحـافظة عليه ، فهو قانع قرير العين .

ذلك ان امرأ آخر كان يستحـوذ على اهتمـام الحَكَم وعقله ، ألاّ وهـو الاختلاء بـالكتب ، ومجـالسـة العلماء والادبـاء والمؤرخين والفـلاسفة . فـإن جـاءه واحـد من هؤلاء، امتلأت حياته به ، وصفا يومه ، وان بعث بسفير الى بلد من البلدان ، حمله من الأموال ما يستـطيع حمله لشراء الكتب له مهما بلغ ثمنها ، وان جاءه سفير من دولة ما بهدية ، فأفضـل ما يتمنـاه ، مخطوطـة يجلس اليها ، تغذي ذهنه المتعطش دوماً للمعرفة . أمـا إن قدم عليـه واحـد من رجـال الحكم لمشكلة ، فيحيلـه الى وزيـره المصحفي ، فله جميع الصلاحيات التي تخوله سلطة اتخاذ أي قرار دون مراجعته . فأي شاغل يمكن أن ينشأ في هـذا البلد الـذي رست قـواعـد الحكم فيـه عـلى أقسى الصخور وأصلبها ، مما يعجز وزيره عن التصدي له ؟

غـير أن الخليفـة المثقف ، جليس العلماء والادبـاء والمؤرخين والفلاسفة ، وخليل الكتب والمخطوطات ، لم يعهد الى وزيره المصحفي بمهمة درء الخطر المحدق بالبلاد عندما بدأت رياحه تعصف من الشمال . . . من الممالك الاسبـانية المتحفـزة ، التي ظنت انه بـزوال يـد النـاصر الحديدية القابضة على المهند ابدا ، أصبح من السهل قطع يـد المنتصر الرقيقـة التي لا تعرف غـير ملامسـة الكتب والمخطوطات .

لقد كانت حسـابات هـذه الممالـك مبنية عـلى أسس واهية ، ذلك ان الخليفة الوديـع القى بالكتـاب من يده الناعمة ، وامتشق حسامه الدمشقي ، وقاد حملة لتأديب الملك شنجة ، ملك ليون ، الذي كان يدين بعرشه الى الخليفةالناصر ،والذي حمل ، بعد ان تعزز شأنه بين الملوك الاسبان ، شعار الصليب ، ونقض العهد ، وبدأ يستعد للانقضاض على الحكم الاسلامي ، فهب الحَكَم المنتصر في وجهه على رأس جيشه عام 963/352 ، فقضى أولاً على قوات فرديناند امير قشتالة ، وارغم شنجة ملك ليون على تسليم الحصون التي اغتصبها من الخلافة ، واخذ بعض

الحصون التابعة لملك نابرة، وبالتالي سد امام هذه القوى سبل تهديد امن الدولة وسلامتها.

غير أن رياح الخطر لم تهب من الشمال فقط . ولئن زال خطر الفاطميين المباشر على الاندلس ، إلا أن نفوذهم في المغرب ظل قائماً ، بعد أن اعتمدوا قبيلة صهناجة لتنوب عنهم ريثما يوطدون اركان دولتهم في مصر .

وكانت قبيلة صهناجة البربرية هذه تتصارع على النفوذ مع قبيلة زناتة البربرية في المغرب . وكان من الطبيعي والحالة هذه ، ان تتحالف زناتة مع الخلافة الاموية في الاندلس . وفي غمرة الصراع على النفوذ ، اقتحم الصهناجيون معاقل الأمويين التي اقامها الناصر من قبل في سبتة ومليلية وطنجة ، واستولوا على الاخيرتين .

وكانت قد نشبت الثورة الادريسية الشيعية واتخذت من طنجة معقلاً لها ، فبعث المنتصر بحملة قضت على الثورة الادريسية واستعادت مواقع الخلافة في المغرب .

غير أن المنتصر توفي عام 976/366 دون ان تحسم الأوضاع في المغرب . ودون ان يختار من يستطيع الحفاظ على كرسي العرش الذي صنعه ابوه الناصر وملأه ، بل كان يفيض بحجمه عنه . فلقد انشغل عنه المنتصر بكتبه ، وزهد فيه ، وندر ان تذكر وجوده وادرك عظمته وشعر بما يمثله من ضخامة المسؤولية .

بل ان كتبه الهته عن ممارسة وظيفة الانجاب ، التي مارسها اسلافه الى درجة الافراط ، فتباهوا بالعشرات والعشرات من البنين والبنات . ولئن حوت مكتبته عشرات الألوف من الكتب والمخطوطات ، فإن ذريته اقتصرت على ولد واحد ، ولد له من جاريته الاسبانية الجميلة « صبح » التي ترجم اسمها عن الاسبانية (Aurora) ، والتي ربما اعملت فيه كل ما وهبها الله من فتنة وجمال وحيلة ، لتوقظ فيه الرغبة ، ولو مرة واحدة ، علها تخرج من ذلك بولي عهد يضمن لها بقاء سيطرتها على القصر والدولة ، بعد أن يغيب سيدها الكهل .

وما ان انجبت صبح هشاماً حتى اتجهت برغباتها الثائرة ابدا الى رجل وسيم الطلعة ، متوقد الذكاء ، واسع الاطلاع ، بليغ اللسان ، استطاع ان يتسلل ، من خلال صفاته الفذة هذه ، عبر اسوار القصر ، التي امضى معظم عمره يكتب خلفها للعامة رسائلهم وتظلماتهم ، ثم يتدرج في مناصب الدولة خطوة خطوة ، الى ان تبوأ المنصب الثاني في الدولة ، بعد الوزير المصحفي ، والمنصب الأول في قلب الفاتنة المتنفذة صبح .

كان ذلك الرجل هو **محمد بن ابي عامر**، الذي استعانت به صبح ، وبالوزير المصحفي ، في اقناع الخليفة باسناد ولاية العهد الى ابنها الطفل هشام ، ضد محاولات الفئة الثانية المتنفذة في القصر ، والمتمثلة في رجال حرس القصر من الصقالبة ورجال الجيش الأقوياء ، الذين كانوا يرشحون المغيرة بن عبد الرحمن شقيق الخليفة ، البالغ العاقل المحنك الوقور .

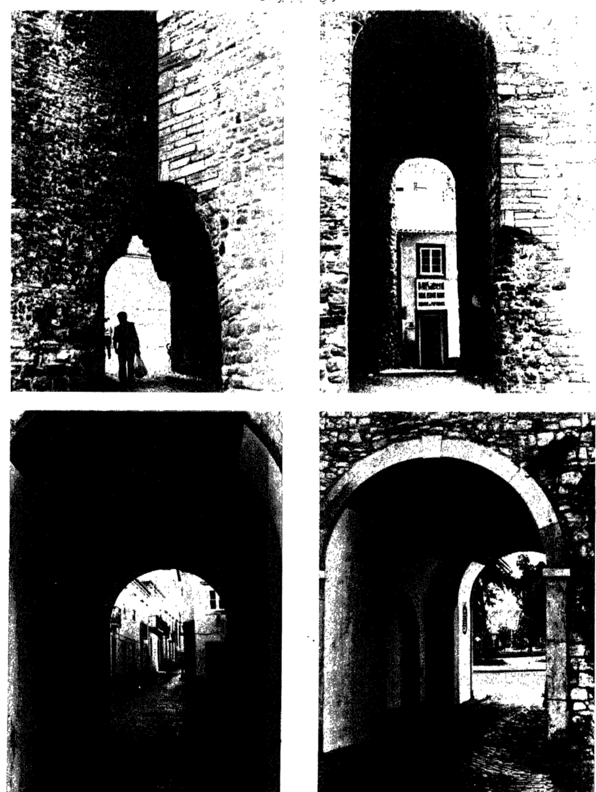
وظل الصراع هذا قائماً في أرجاء القصر الى أن فاز تكتل صبح والمصحفي وابن عامر في اقناع المنتصر باسناد ولاية العهد الى هشام تحت وصاية مجلس مكون من المصحفي وابن عامر .

وحمل الثالوث المتحالف المصحفي وابن عامر وصبح الخليفة الطفل واجلسوه عقب وفاة ابيه عام 976/366 على طرف كرسي العرش واطلقوا عليه لقب **امير المؤمنين الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم** ، ولم يكن عمره يزيد عن عشر سنوات .

وما ان انتهت عملية التنصيب حتى راح ابن عامر ينفذ مخطط التصفية الذي سيمهد له السبيل الى المنصب الأول في دولة الأندلس ، فبدأ بالمغيرة بن عبد الرحمن شقيق الملك ، الذي رشحه التحالف الآخر ، ذلك ان وجوده حياً سيظل بمثابة سيف مسلط على رقبته وعلى مخططاته ، فدبر لتصفيته خنقاً ، ثم اتجه بتفكيره الى حليفه القوي المتمرس ذي السلطان والقوة .

غير ان القضاء على المصحفي لم يكن بالامر الهين ، وهو الذي ظل صاحب الكلمة الأولى في بلاط المنتصر ، والذي

اثار في شلب بالبرتغال



اثار في شمنترية الغرب بالبرتغال

كان يسند اليه الخليفة اخطر مهام الدولة عندما كان منهمكاً في التهام كتبه واحداً بعد الآخر .

وكان لا بد للعامري من حليف . فمن يكون اجدر من عدو الامس ، عدوه وعدو المصحفي ، رجل الجيش القوي الذي كان وراء ترشيح عم هشام ، المغيرة بن عبد الرحمن ، لولاية العهد . اما كيف يجعل من خصم الامس حليف اليوم ، فهذا من الأمور التي لن يصعب على العامري حلها . فمن استطاع ان يرتقي بنفسه من كاتب رسائل وتظلمات عند عتبة القصر الى رجل الدولة الثاني ، ولم يزد عمره عن الثلاثين عاماً ، لن تقف في وجهه اية عقبة ليرتقي ويصبح رجل الدولة الأول .

كان لرجل الجيش القوي غالب بن عبد الرحمن ، ذلك القائد المحنك الجريء ذي الشهرة الواسعة والشعبية العريضة ابنة . فأي رباط اقوى من رباط المصاهرة . بدأ العامري يتقرب الى القائد غالب ويتودد اليه ويراعيه ، الى ان ضمن ثقته وصداقته ، فتوج العلاقة الجديدة بعقد الزواج على ابنته .

وما ان فرغ العامري من وضع الختم على صفقة التحالف هذه، حتى بدأ يخطط للخطوة التالية، وهي تقليم مخالب الوزير المصحفي رجل القصر القوي ، واقتلاع الريش من جناحيه تمهيداً لتصفيته .

بدأ العامري بتصفية حرس القصر الصقالبة النافذين . الم يكونوا ضد تنصيب الخليفة هشام المؤيد بالله ، وبالتالي مناوئين له هو وللمصحفي . وهل من حجة أقوى من هذه الحجة لضمان موافقة المصحفي على هذا الاجراء ، بل وضمان مباركته لهذه العملية التي تتسم ببعد النظر وبالحرص والحذر ؟

انطوت الحيلة على المصحفي، ذلك أنه لم يعرف الى ما كان يرمي بعد النظر هذا ولحساب من . ذلك ان العامري ، وهو صاحب الشرطة ، انتقى من الرجال من يضمن ولاءه، وأحلهم محل الصقالبة ، دون ان يدخل هذا الاستبدال الى قلب المصحفي أي شك أو ارتياب .

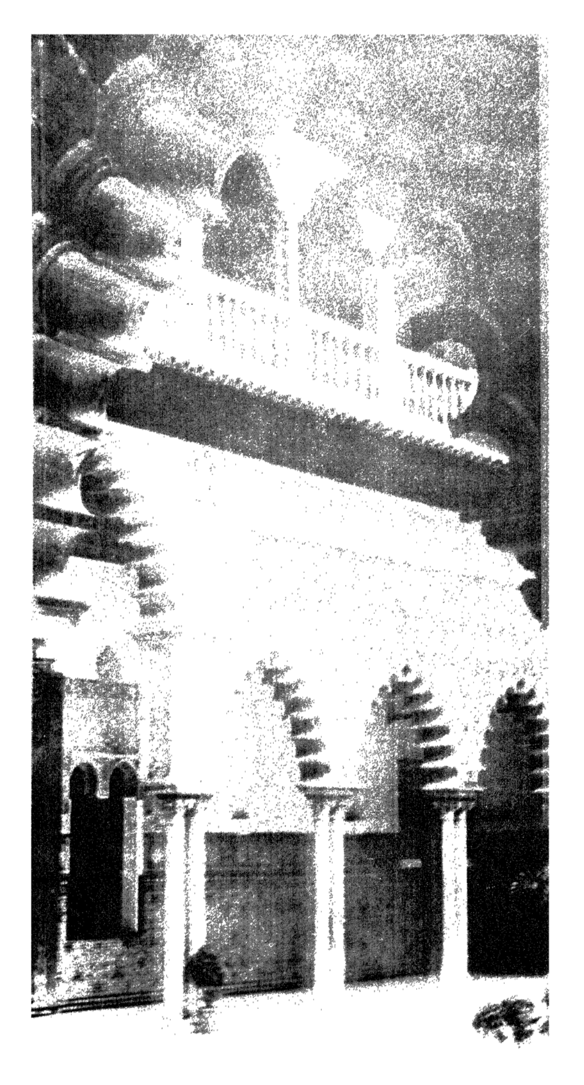
وقبل ان يبدأ العامري في التخطيط للمرحلة التالية جاءته فرصة العمر من حيث لا يدري . ذلك ان الاسبان في الشمال ، بدأوا يتحركون ، كعادتهم في بداية كل عهد جديد ، عندما تبدأ الصراعات الداخلية على الحكم ، وتستفحل المؤامرات والفتن .

بدأ التحرك هذه المرة في قشتالة التي هاجمت قلعة رباح القريبة من طليطلة واحاقت بالحامية الاسلامية فيها وابادتها عن آخرها .

وكان الحكم العربي لا يترك مثل هذه الاعتداءات تمر دون عقاب سريع يرد فيه الصاع صاعين ، ويعود مزهواً بالنصر مفاخراً بالجهاد ، فتنظم القصائد ، وتتعالى الدعوات من المآذن والجوامع ، ويتألق نجم الحاكم والقائد .

غير ان الرجل الأول ، الوزير المصحفي ، الذي كان منشغلاً في تثبيت اركان نفوذه ، لم ير في هذه الهزيمة ما يبرر ابتعاده عن الساحة المحلية ، التي لم يكن مطمئناً اليها تمام الاطمئنان ، فانتهز العامري فرصة العمر ، واقترح على الوزير ان يعهد اليه بقيادة حملة تأديبية ، تعيد الى الحكم العربي هيبته ، وتضرب على يد المتجرئين وتلقنهم درساً لن ينسوه . وتنطلي الحيلة مرة أخرى على الوزير . ويحرز العامري نصراً طغى على التأثير النفسي الذي خلفته هزيمة قلعة رباح ، وعاد مضيفاً بذلك مؤهلاً جديداً الى قائمة مؤهلاته الطويلة .

وقد جاء ذلك ، بطبيعة الحال ، على حساب شعبية حليفه المصحفي ، الذي بدأ يحس بتفوق العامري عليه في الكثير من المجالات ، ويشم رائحة الخطر تفوح من ناحيته . وكان لا بد للعامري من القيام بعمل آخر يبهر الناس ، ويكرس صورة البطولة التي رسمها لنفسه بينهم ، فاشترك في حملة أخرى في الشمال بقيادة غالب ، والد زوجته وحليفه ، وعاد منها منتصراً ومنتزعاً اعجاب قائده العسكري الفذ ، واعجاب الجماهير التي قابلته بالتهليل والتعظيم . وكان اول ما فعله العامري قبل ان تخفت الاصوات المهللة أن أطاح ، بمعاونة صبح أم



فناء العذارى بقصر اشبيلية

الخليفة ، حاكم قرطبة ، محمد بن جعفر ، ابن الوزير المصحفي ، وجلس مكانه ، وبدأ يعد لحملة ثالثة ، بالاشتراك مع القائد غالب ، ما لبث ان عاد منها منتصراً ، وبصحبته هذه المرة القائد الفذ غالب ، فاستحق بذلك اكليل الغار وكرسي الزعامة الحقيقية ، فعين القائد غالب وزيراً موازياً للمصحفي ، ثم ما لبث ان عزل المصحفي والصق به تهمة الاختلاس والقى به في السجن الى ان قتل بتدبير منه .

وما كاد العامري يفرغ من مشكلة المصحفي الا وبدأ يخطط لاقتلاع ما تبقى من عثرات ما زالت تقف في سبيله الى الحكم المطلق ، الذي لا يريد ان ينازعه فيه منازع : غالب وصبح . اما صبح فكانت الاداة التي ظلّ يستخدمها لانتزاع الشرعية من ابنها الخليفة ، في كل ما قام به من اجراءات ، بدأها بعزل حاكم قرطبة ، ثم بتعيين نفسه مكانه ، ثم بتعيين غالب وزيراً مشاركاً للمصحفي ، ثم بعزل هذا الأخير والقائه في السجن بتهمة اختلاس أموال الدولة . وكانت اجراءاته هذه جميعها تتخذ بصورة شرعية ، وكل اوامره تصدر باسم الخليفة وتحمل خاتمه وتوقيعه . وكان خاتم الخليفة الطفل في يد أمه صبح .

أما غالب ، فقد بدأ يتوجس خيفة من زوج ابنته الجموح الذي لا حدود لطموحه . فقد استرق الاضواء منه ، في صميم اختصاصه ، في القيادة العسكرية ، في الحرب ، في الجهاد . ولعله أحس بأن دوره آت ، بل وآت عما قريب . وبدأ كل منهما يحفر حفرة للآخر .

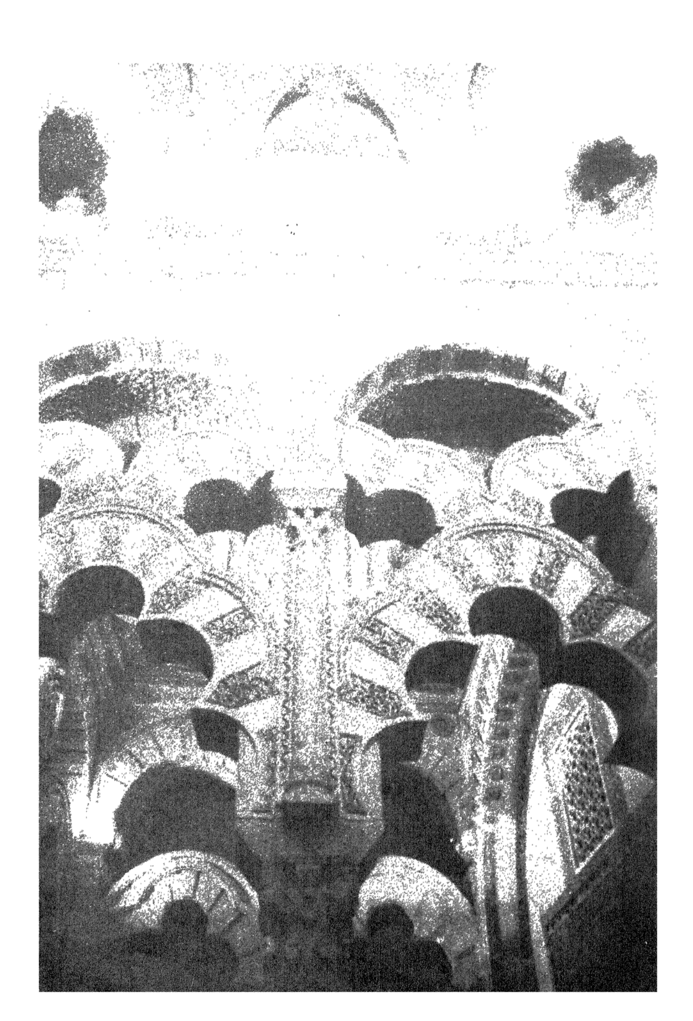
جاءت المبادرة هذه المرة ، ليس من العامري ، بل من غالب الذي اقترح على زوج ابنته ان يشترك معه في حملة جهادية ،ا كعادتهما في السابق . وفي احدى الامسيات دعا القائد صهره الى وليمة يحتفي به فيها ، لم يلبث غالب اثناءها ان دخل مع صهره في عتاب رقيق ، انتهى بضربة سيف سددها العم الى صهره ، واتقاها الأخير ، الذي كان متحسباً لهذه البادرة ، وخرج منها بجرح سرعان ما برأ منه ، وهب لمحاربة خصمه الغادر ، الذي يقال انه تحالف مع البشكنس ، او انه استعان بمرتزقة من الاسبان للقضاء على صهره ، فيشتبكان في معركة شرسة يسقط فيها القائد غالب ، تاركاً الميدان لزوج ابنته ، دون أي منازع ينازعه على نفوذ أو سلطة أو طموح .

وعاد ابن عامر الى قرطبة ليغسل من يديه آخر نقطة من دماء خصومه ، وليغسل من قرطبة آخر اثر للطابع الأموي فيها ، إلا ذلك اللقب الخلافي الذي ابقى عليه للشرعية فقط ، اذ انه اكتفى من الألقاب بالمنصور تاركاً لقب الخليفة لصاحبه الشرعي ، الصبي الذي كان قابعاً في حجر امه صبح ، في جزء قصي من كرسي العرش الضخم ، الذي لن يستطيع ملأه ابداً .

وهكذا اصبح **ابن عامر الحاجب المنصور** في عام 981/370 الملك غير المتوج للدولة الاسلامية في الأندلس ، التي اصبحت تعرف بالدولة العامرية نسبة له . فنقش اسمه على عملتها ، وصار الدعاء له من المنابر .

وان كان للناصر ان ينشيء مدينة الزهراء فللمنصور أن يقيم مدينة الزاهرة ، وان كان للزهراء ان تتألق لتصبح آية في الذوق والفن فستبزّها الزاهرة عظمة وروعة ، وان عز على المنصور ان يحصل على روائع فن العالم ، كما فعل الناصر ، فليس على المنصور الا ان ينقلها من الزهراء الى الزاهرة ، فالمسافة بينهما قصيرة ولا فرق كبير بين زهراء وزاهرة ولا بين ناصر ومنصور .

وهكذا انفرد الحاجب المنصور بالحكم المطلق ، الذي لم يجرؤ احد على منازعته فيه . فقد اطاح جميع الرؤوس التي كانت تدور فيها مجرد أفكار طموحه ، وعزز الجيش بعناصر قوية موالية تحميه من أي عدو داخلي او خارجي ، وجمع رصيداً من الانتصارات ضد اعدائه الاسبان المتربصين له في الشمال ، وانزل بهم الضربات القاسية واحدة بعد الأخرى ، فزاد عدد حملاته عن الخمسين ، عقد له لواء النصر فيها جميعها ، ولم ينهزم في واحدة منها على الاطلاق ، فانتزع ذلك له اعجاب الشعب الذي انسته هذه الانجازات العظيمة ، الطابع القمعي الذي اتسم به عهده .



وبالرغم من تلوث يدي المنصور بالكثير من الدماء ، فقد كان رجلاً متديناً ، تلقّى في مطلع حياته العلم والفقه واللغة في احدى زوايا مسجد قرطبة الجامع ، مما زرع في قلبه قدراً من الايمان ، كان وراء نزعته الجهادية التي لم يباره فيها أحد من قبله ولا من بعده في تاريخ الأندلس الطويل ، ودفع به الى توسيع مساحة المسجد الجامع بنحو ثلث مساحته الحالية ، ولو ان هذا الجزء الذي عرف باسمه لم يضارع الأجزاء الأخرى من حيث الزخرف والفن الرفيع . ولربما عكس هذا حقيقة شخصيته البعيدة عن طابع الفخامة والمظاهر العامة التي اخذت بالأفول في قرطبة منذ ان قبض على زمام الحكم . فركدت ، خلال السنوات الثلاثين التي قضاها على رأس الدولة ، حركة البناء ، وانفضت مجالس الانس ، وانفرطت حلقات العلماء والأدباء والشعراء ، واخذ بريق قرطبة الساطع يخبو رُويداً رويداً رغم الرخاء الاقتصادي الذي شهده هذا العهد ، نتيجة للاستقرار السياسي والسيطرة العسكرية .

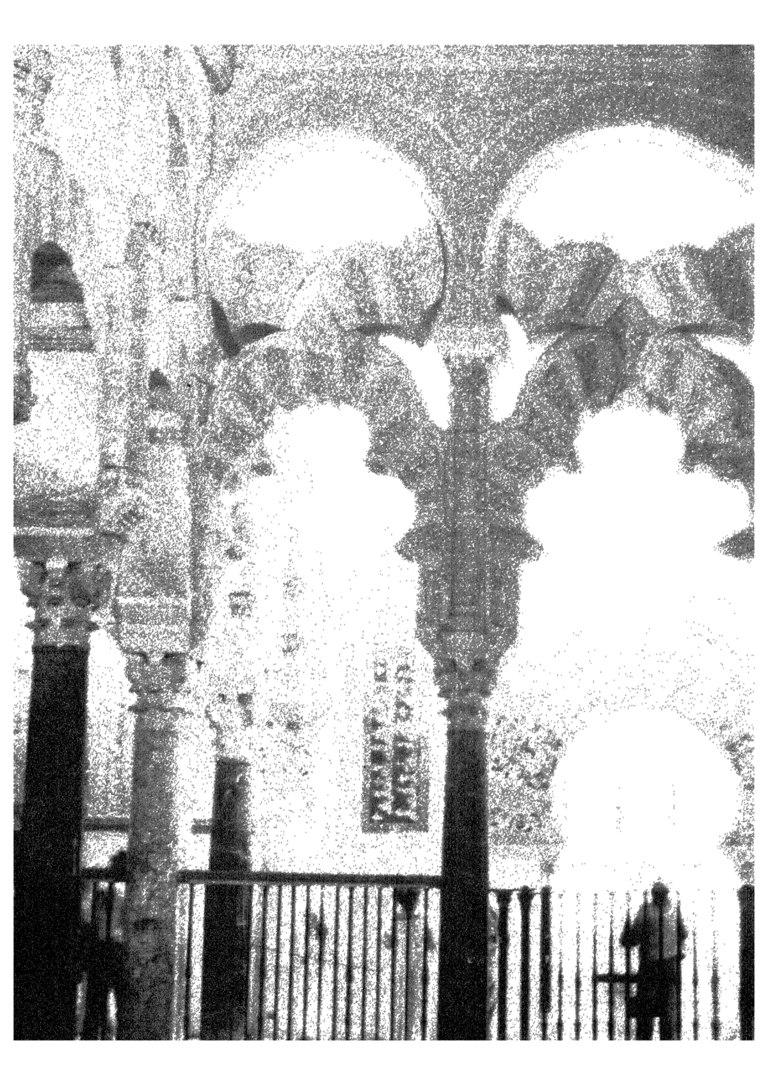
غير ان الحاجب المنصور ارتكب جريمة لن يغفرها له التاريخ . ذلك انه اعدم الآلاف من الكتب القيمة النادرة ، التي أفنى سلفه حياته وماله في سبيل الحصول عليها واستنساخها ، وخاصة الكتب التي تناولت مواضيع الفلسفة والمنطق والعلوم ، وذلك ارضاء للفقهاء الذين اخذوا يشككون في معتقداته الدينية ، فأحرق بعضها وأغرق البعض الآخر، حتى ليقال ان مياه النهر في قرطبة اصطبغت بالسواد لكثر ما القي فيها من هذه الكتب .

ولما غاب المنصور عام 1002/393 ، بعد نحو ثلاثين عاماً من الحكم المطلق ، كان الخليفة الطفل قد شب دون ان يحظى من سلطات الحكم الا بسلطة التوقيع على المراسيم التي كان يعدها الحاجب المنصور ، بل انه ظل يرتع في مرابع القصر ، لا يأبه لما يجري خارجه ، بل ربما لم يعلم بأن دولة أخرى قامت خلف اسوار قصره ، واصبحت تعرف باسم خاص بها ، وان الحكم فيها اصبح وراثياً . فما دام هو الخليفة أمير المؤمنين المؤيد بالله ، وله حق التوقيع على المراسيم التي يعدها الحاجب ، فهو قانع ، سعيد ، قرير العين .

لم ينازع **عبد الملك بن محمد بن ابي عامر** الذي اتخذ لنفسه لقب « المظفر » بعد وفاة أبيه ، اي منازع في وراثة الحجابة ، فاستأنف اعمال الجهاد مترسماً خطى والده ، خاصة وان الاسبان ، الذين اخذت مقاومتهم تتسم ، اكثر فأكثر ، بالطابع الصليبي ، قلبوا استراتيجيتهم الدفاعية ، التي فرضها عليهم الحاجب المنصور ، الى استراتيجية هجومية ، منتهزين ، كالعادة ، غياب القوي ، قبل ان يشتد عود الحاكم الجديد . غير ان ساعد الحاجب الجديد كان أشد مما تصوره اعداؤه فبطش بهم ، وشتت شملهم ، وسد الطريق امام تحركاتهم ، وظل يذكرهم سنة بعد أخرى في حملاته الجهادية ، بأن يد المسلمين طويلة ، وبأنها قادرة على البطش بهم في عقر دارهم .

ولئن لم يبلغ المظفر شأو ابيه الفذ ، فلعل السبب في ذلك أن القدر لم يمهله من الوقت ما أمهل اباه . فقد مات فجأة وهو في طريقه الى الجهاد عام 1009/399 ، ولما يمض على تسلمه زمام السلطة سبع سنوات . ولعله لم يعلم ، وهو يلفظ انفاسه الأخيرة ، انه عندما يدفن سيدفن معه عصر بكامله ، عصر الخلافة ، الذي التقف الحكم الاسلامي المركزي ، قبل ان يهوي الى دركات الانحطاط والتفسخ ، والذي اعاد للحضارة الاسلامية وميضها ، وجعلها اكثر سطوعاً ، وازهى بريقاً وتألقاً واشعاعاً . بل لعله لم يتصور ان تاريخ وفاته سيكون بداية الأصيل لعهد الاسلام التليد في شبه الجزيرة الايبرية ، في حياة اندلس العرب .

ولو ظل قبر المظفر مفتوحاً لبضعة أشهر لاستقبل كذلك جثمان أخيه **شنجول** . وشنجول هذا ، واسمه الحقيقي **عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر** ، عرف بهذا الاسم نسبة لأمه التي انحدرت من عائلة شنجة الاسبانية . غير ان شنجول هذا لم يرث عن ابيه من الخصال الفذة ما يؤهله لوراثة المنصب الذي افنى ابوه حياته لتثبيت اركانه ، وجعله الموقع الحقيقي للسلطة . ولم يرث عن ابيه قطعاً ، ميزة بعد النظر التي ضمنت له السلطة دون اللقب ، واللب دون القشور .



فشنجول لا تهمه السلطة ، ولا يرغب بالحكم ، إلا بقدر ما يهيؤه ذلك من ترف وابهة . ومن مظاهر الأبهة ، اللقب . وصاحب اللقب الحقيقي قزم قابع في حجر امه ، لا حول له ولا قوة . أما هـو ، فهو ابن ذلـك العملاق العـظيم الـذي روض الأعـداء وطبق اسمـه الآفـاق ، واحتوى بقبضته الحديدية العز والامجاد . وان كان لا بد من بقاء الخليفة في منصبه ، فليكن هو ولي عهده .

وهكذا مارس الخليفة سلطته مرة اخرى ، فوّقع على مرسوم يعين شنجول ولياً للعهد . وحمل شنجول المرسوم فرحاً به، غير مدرك ان ما يحمله بيده لم يكن سوى جواز سفر الى الآخرة ، ذلك ان الامويين ، الذين كان لا يزال لهم بعض الوجود هبوا، بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وبمعاونة اعداء العامريين ، فاستولوا على قرطبة ، مغتنمين فرصة غياب شنجول عنها ، وخلعوا الخليفة الرمز عن عرش الخلافة ، واعلن قائدهم محمد بن هشام المذكور نفسه خليفة عـام 1009/399 متخذاً لقب « المهدي » ، بعد ان قضى على كل اثر من آثار العامريين بمن فيهم شنجول .

وقد اشارت الدلائل ، بادىء الأمر ، الى ان المهدي ، الذي اختار هذا اللقب واعداً بانبعاث العهد الأموي ، قد يعيد الى الخلافة هيبتها ، والى حاضرتها رونقها وتألقها ، والى الأمويين عزهم ومجدهم . غـير ان الأمويـين ، بين حاسد وطامع ، كانوا أول من بدأ يحفر للمهدي ، تبعتهم فئات أخرى لم تجد في الخليفة الجديد مـلامح القيـادة والحزم . فهو ليس بالناصر الذي التقف الامارة الأموية قبل ان تبلغ الدرك الاسفل ، وارتقى بها الى قمة المجد وذروة العظمة . فالأفذاذ لا يولدون كل يوم ، وما دام ان مصير الحكم مرتبطاً بشخصية الحاكم ، فإن زوال الحكم يتزامن مع زوال الحاكم ، وقد سنحت للامويين فرصتان ليسبغوا على الحكم صبغة مؤسسية ، ويضفوا على الدولة مفهوماً قومياً ، غير انهم فشلوا في هذا وذاك ، اما بسبب النسيج المتنافر الذي تكـون منه المجتمـع الأندلسي ، او بسبب تغلغـل الروح القبليـة في اعماق زعمـائهم ، مما اعماهم عن التفكير بارساء قواعد البقاء على صخرة أشد صلابة من صخرة الوراثة .

واستمر الحكم الاموي بعد ذلك مدة ربع قرن ، كان انجازه الوحيد تزايد الفتن والنعرات ، وسقوط العديد من الرؤوس ، وصياغة عدة القاب خلافية ، بين مستعين بالله ومستظهر بالله ومستكف بالله ومعتد بالله الى آخر ذلك من القاب ، الى ان ضاق صدر الوزير ابي الحزم بن جهور ،

ونفد صبره مما جره ذلك على البلاد من ويلات ، فانقض على بني امية . . . «ومشى البريد في الاسـواق والارباض بأن لا يتبقى أحد في قـرطبة من بني اميـة ، ولا يكنفهم احـد » . فدفن الخـلافة مـع هـذه الـرؤوس في حفـرة عميقة ، وغطاها بحجر ثقيل ، نقش عليه تاريخ انتهاء الخلافة عام 1031/422 ، الذي يمكن اعتباره تاريخ بداية الغروب الطويل الذي بدأ الوجود الاسلامي يسير فيه ، قبل ان تنسدل عليه الستارة ، ويصبح واحداً من الحقب التي تتحدث عنها كتب التاريخ .

اسماء الخلفاء

1 ـ عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)،
(300/ 912 - 350/ 961) أصبح خليفة عام (316/ 929).

2 ـ الحكم الثاني (المستنصر بالله)،
(350/ 961 - 366/ 976).

3 ـ هشام الثاني (المؤيد بالله)
(366/ 976 - 403/ 1013).

اسماء الحُجَّاب: (الدولة العامرية)

1 ـ محمد بن أبي عامر، الحاجب المنصور ـ
(366/ 976 - 393/ 1002).

2 ـ عبد الله بن محمد بن أبي عامر، المظفر ـ
(393/ 399 ـ 1002/ 1009).

3 ـ عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (شنجول) ـ
(399/ 1009 - 399/ 1009).

	المغرب	مصر	بلاد الشام	العراق	جدول بياني لعصر
1030					ـ هشام بن محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن الناصر. أطيح في ثورة بقيادة أبي الحزم بن جهور وبذلك انتهت الخلافة.
1025					ـ محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبد الرحمن الناصر (المستكفي). ـ عبد الرحمن بن هشام (شقيق المهدي) (المستظهر بالله).
1020					ـ يحيى بن علي (المقلي). ـ القاسم بن حمود (المأمون). ـ علي بن حمود (الناصر).
1015					ـ سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر (المستعين). ـ الخليفة هشام المؤيد (ثانية).
1010					شنجول ـ الخليفة المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر
1015					الحاجب عبد الملك
1000					
995					الدولة العامرية
990	البربر				
985					
980					الحاجب المنصور ـ الخليفة هشام المؤيد (١٢ عاماً).
975		الفاطميون	الفاطميون		
970					
965					
960	الفاطميون				ـ الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبدالرحمن الناصر.
955					
950					
945					
940					
935		الأخشيديون	لأخشيديون		
930					
925					ـ عبدالرحمن الناصر (خليفة).
920					
915					
910					ـ عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط (أميراً).
905		العباسيون	العباسيون		
900	الادارسة	الطولونيون	الطولونيون	العباسيون	

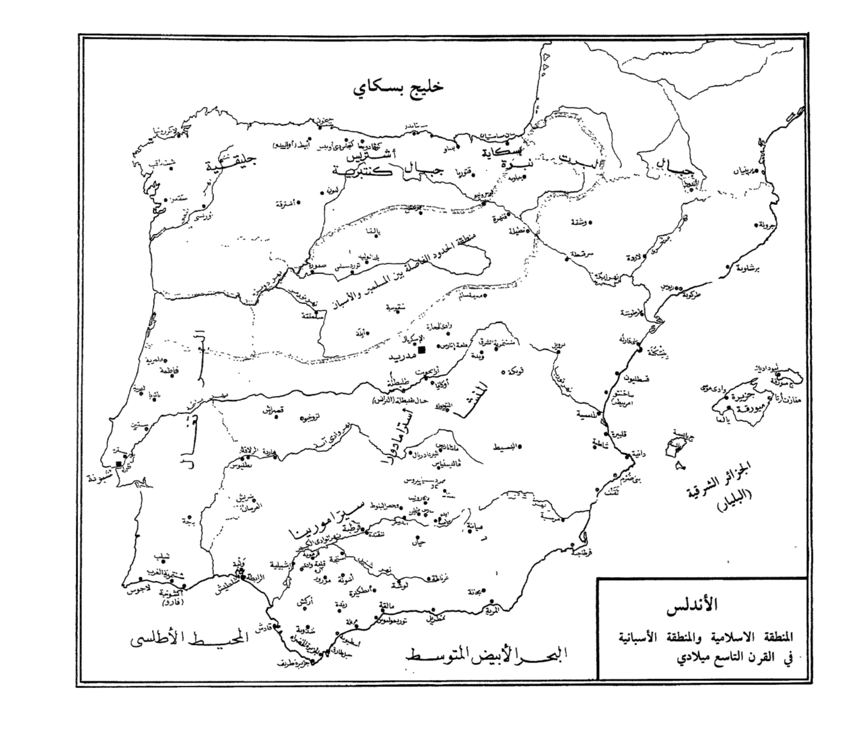
- الخليفة المهدي: ثار على شنجول وقضى على العامريين. تعاقبت الفتن والثورات إلى أن قضى أبو الحزم بن جهور على الحكم الأموي المتآكل. بدأت نهاية الدولة العربية الموحدة واقتسم الحكم في الأندلس ملوك الطوائف.

- الحاجب عبد الملك والحاجب شنجول: مات عبد الملك بعد سبع سنوات من الحكم. استصدر شنجول براءة من الخليفة الرمز بتعيينه ولياً لعهد الخلافة فخلعه الأمويون.

- الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر: خلع الوزير المصحفي وسيطر على الخليفة الرمز وأصبح الملك غير المتوج. قام بغزوات جهادية عظيمة. ابتنى مدينة الزاهرة. أضاف جناحاً جديداً إلى الجامع يعادل ثلث مساحته الكلية. شكك الفقهاء بمعتقداته فأحرق، ارضاءً لهم، عدداً كبيراً من الكتب التي تتناول الفلسفة والعلوم التي كانت تزخر بها مكتبة قرطبة الكبرى.

- الخليفة الحكم المستنصر بالله: كرس معظم جهوده وحياته للعلم. أنشأ مكتبة قرطبة العظمى، شجع على انتشار العلم والأدب. واصل توسيع المسجد الجامع بقرطبة. أنشأ الكثير من المدارس بما في ذلك مدارس مجانية للفقراء.

- الخليفة عبد الرحمن الناصر: أعلن نفسه خليفة عام 929. أخضع الثائرين وانقذ الحكم المركزي من الانهيار. أنشأ قوة بحرية عظيمة، عمل على توسيع المسجد الجامع بقرطبة وأكمل قبة المحراب. أنشأ مدينة الزهراء. شهدت البلاد في عهده نهضة أدبية علمية عمرانية كبرى لم يشهد التاريخ العربي عصراً زاهراً كمهده.



الأندلس

المنطقة الاسلامية والمنطقة الأسبانية

في القرن التاسع ميلادي

ملوك الطوائف ـ دولة المرابطين ـ دولة الموحدين

ملوك الطوائف : 400/1009 - 536/1141

عندما أمسك الوزير ابو الحزم جهور بزمام الحكم في قرطبة عام 422/1031 ، كان قد مر على الوجود العربي في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون . ولو ان الحكم العربي لم يعمد طيلة هذه المدة الى خلق الأساس القومي الذي تتحطم على صخرته جميع مؤامرات التجزئة والتفتيت ، إلا ان بعض السواعد القوية استطاعت ، من آن الى آخر ، لملمة الاطرف المبعثرة ، واحتواء فسيفساء المجتمع المتنافرة ، والإبقاء على الوحدة الشكلية بحد السيف أحياناً ، وبقوة شخصية الحاكم أحياناً أخرى . فطالما ظل الساعد القوي ممسكاً بهذه الرقعة الفسيفسائية، ظلت اجزاؤها في مكانها. ولكنها سرعان ما تتناثر وتختلط وتتبعثر عندما ينحسر ظله او تغيب قبضته . غير ان هذا الساعد كان في كثير من الأحيان بدلاً من ان يعمل على تثبيت اجزاء الفسيفساء هذه على قاعدة القومية ، واذابة التنافر بين عناصر المجتمع، وشد اجزائها بعضها الى البعض الآخر ، كان يمعن في تكريس تنافره ، وتعميق هوّته ، وتعظيم تباينه ، انطلاقاً من مبدأ فرق تسد .

وان كان التباين مقتصراً بادىء الأمر على الناحية العددية ، بسبب توافد اعداد كبيرة من بربر المغرب، إما كجنود جاء بهم العرب وجعلوا منهم القوام الرئيسي للجيش ، كما رأينا ، أو كمهاجرين اجتذبتهم بلاد الأندلس الغنية الخصبة ، إلا أن بعض الحكام عمدوا ، تخوفاً من طموح اشراف العرب ومؤامراتهم وتكتلاتهم القبلية ، الى اسناد بعض المراكز الحساسة الى البربر بل والى الصقالبة ، الأمر الذي ادى الى تزايد نقمة العرب عليهم ، وتوسيع الهوة بين هاتين الفئتين الرئيسيتين .

بل ان بعض العرب ، كالامويين ، استعانوا بالبربر ، بعد القضاء على شنجول مثلاً ، ضد العرب الآخرين المناوئين لهم ، فاستغل البربر ذلك في القضاء على جميع الفئات وتعزيز اتجاهاتهم هم الاستقلالية. ولما انتصر المستعين بالله الأموي على خصومه مثلاً، قسم البلاد بين انصاره من البربر، في حين استولى اعداؤه العامريون على بعض المدن الشرقية .

ولما قام الوزير ابو الحزم جهور بانتفاضته لم يكن باقياً في قبضة الحكم المركزي سوى حاضرته قرطبة وجيان وبياسة . اما ما تبقى من المناطق التي كانت تابعة للحكم المركزي ، فقد استولت عليها مختلف الطوائف ، واقامت فيها ممالك بلغ عددها في وقت من الأوقات نحو عشرين مملكة اتخذ ملوكها القاباً رنانة فحق بهم قول ابن رشيق القيرواني :

« مما يزهدني في أرض أندلسٍ
سماع معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاضا صولة الأسد

وهكذا اصبح العصر الذي عقب الخلافة يعرف بعصر ملوك الطوائف وأهمها :

بنو هود (عرب) : سرقسطة ، 400/1009 - 536/1141 .

بنو رزين (بربر) : شمنترية الشرق ، 402/1011 - 497/1106

بنو حمود (عرب) : قرطبة ، مالقة ، الجزيرة الخضراء ، 407/1016 - 450/1058

بنو عامر (موالٍ عامريون) : بلنسية ، 412/1021 - 478/1085

بنو الأفطس (بربر) : بطليوس ، 413/ 1022 - 487/1094

بنو عباد (عرب) : اشبيلية ، 414/1023 - 484/1091

بنو جهور (عرب) : قرطبة ، 422/1031 - 463/1070

بنو ذي النون (بربر) : طليطلة ، 427/1035 - 487/1094

ولئن شهدت اندلس الاسلام في عصر الطوائف بريقاً

حضارياً يشبه ، في ظاهره ، بريق قرطبة في عهدها الزاهر ، إلا أن الوجه الحضاري هذا اقتصر على صناعة الكلمة أكثر من أي شيء آخر ، فانطلق الادباء والشعراء يتبارون في التقرب الى الحكام ، وقد انفتحت لهم ابواب كثيرة وليس باباً واحداً كأيام الخلافة ، فتنوعت قصائدهم ، عاكسة روح ذلك العصر الذي اتسم بالتشرذم واللامبالاة وحياة الترف والمتعة ، فكثر المديح والهجاء ، وزاد الغزل والفجور، ونشأ فن الاستغاثة والاستنجاد، عندما بدأت تتعرض هذه الممالك القزمة الى اخطار الزحف الاسباني .

منظر لمدينة اشبيلية من منارة الخيرالدا .

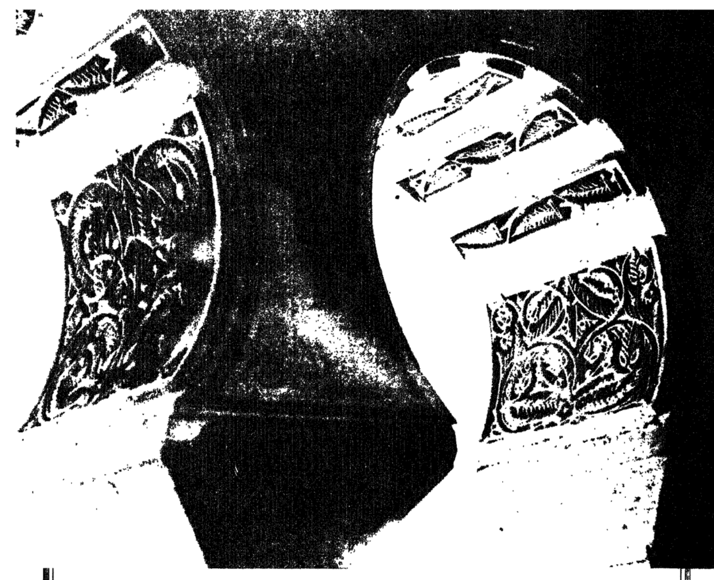
وباستثناء بعض المبادرات التي قام بها بنو عبّاد في اشبيلية ، وبنو هود في سرقسطة ، لتشجيع العلماء وفتح ابواب المجالس امامهم ، أسوة بالخلفاء من قبلهم ، فقد كان همهم الأول والأخير الحفاظ على ممالكهم ، مهما كان الثمن ، حتى لو ادى ذلك الى الارتماء تحت اقدام اعدائهم ، وهدر كرامتهم وكبريائهم ، بل ان بعضهم كان يدفع الجزية الى ملوك الاسبان مقابل حمايتهم من اخوانهم في الدين والجنس .

وهكذا تنقلب المفاهيم، ويختلط الحابل بالنابل، فيتحد النصارى ، ويتفرق المسلمون ، وتفرض الجزية على المسلمين ، بعد ان ظلوا يتقاضونها من الاسبان زهاء أربعة قرون ، ويتعالى ذليل الأمس ، ويموت الشموخ والكبرياء ، وتعود سيوف المسلمين الى اغمادها ، لا تنسل منها الا لتهوي على رقاب اخوة لهم في الدين وفي المصير .

وبينما كان يسبح المقتدر بالله ، اشهر ملوك بني هود بحمد الله على نعمائه قائلاً :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الارب
لو لم يحز ملكي خلافكما
كانت لديّ كفاية الطلب

كان الفونسو السادس ملك قشتالة قد بلغ في احدى حملاته جزيرة طريف في اقصى جنوب الأندلس ، اول موطىء لقدم عربية ، ودخل البحر على صهوة جواده قائلاً « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته ، وهنا يجب ان تنتهي جنودي » .



عقد من عقود قصر مالقة في القصبة .

ولئن ألهبت كلمات الفونسو هذه الحماسة في نفوس نصارى الاسبان ، وزادت من تكاتفهم ووحدتهم وتصميمهم ، إلا انها لم توقظ في قلوب ملوك الطوائف أي شعور بالتضامن ، او أي احساس بأن خلاصهم انما هو في وحدتهم وفي التخلي عن انانيتهم ومطامعهم الشخصية . وجل ما فعلوه ان هرعوا الى كبيرهم المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية في مؤتمر « قمة » للتذاكر لا للاتحاد . فلما اشار بيده جنوباً تجاه المغرب ، حيث المرابطون ، استعاذوا بالله قائلين « السيفان لا يجتمعان في غمد واحد » وكان لا بد من ان يجيبهم بنفس بلاغتهم فقال ، « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » . ولعل بلاغة التعبير وليس سلامة منطقه ، هي التي اقنعتهم بالاستنجاد بالمرابطين .

جاء المرابطون دونما أي تلكؤ ، بقيادة رئيسهم ومؤسس دولتهم يوسف بن تاشفين ، فهزم جيش الفونسو السادس في معركة « الزلاقة » الشهيرة الحاسمة عام 1086/479 ، وعاد ادراجه الى المغرب ، بعد ان ترك جزءاً من جيشه هناك درءاً لأي خطر قد يستجد . أما الملوك فقد عادوا الى رحاب قصورهم ، وكأن شيئاً لم يكن . ألم يستنجدوا فأنجدوا ، ونصر الله المؤمنين على أعدائهم ، وفت في عضدهم ، وشتت شملهم ؟

والاسبان الذين لم يستكينوا رغم تشرذمهم وتفرقهم ومنازعاتهم هم الآخرون منذ غزا المسلمون بلادهم قبل اربعة قرون ، والذين قدموا في سبيل استعادة بلادهم آلافاً مؤلفة من الارواح ، وقارعوا دولة المسلمين حتى عندما كانت في أوج قوتها وعظمتها ، واعتادوا الهزائم الواحدة تلو الأخرى ، دون ان يدب اليأس في قلوبهم ، لن تفت هزيمة اخرى في عضدهم ، خاصة وان اعداءهم بلغوا من الفرقة والانحطاط ما لم يبلغوه من قبل . فتوالت تحرشاتهم بالدويلات العربية ، ينهشونها قطعة قطعة .

وجاءت صرخات المسلمين هذه المرة ، ليس من الملوك بل من العامة والاعيان والفقهاء . . . اخذوا يصرخون بكل ما تصل اليه قرائحهم من روائع قصائد الاستنجاد والاستغاثة ، بما جعل المؤرخين للأدب الأندلسي يفردون لها باباً خاصاً اسموه « فن الاستنجاد والاستغاثة » .

لبى يوسف بن تاشفين مرة اخرى نداءات الاستغاثة عام 1090/483 ، أي بعد أربع سنوات من حملته الأولى ، فهزم اعداء المسلمين مرة أخرى ، لكنه خلع هذه المرة ، معظم ملوك الطوائف ، بعد ان رأى ما رآه من تخاذلهم ، بل وتواطؤ بعضهم مع العدو . وخلال ما يزيد قليلاً عن عشر سنوات ، ضم يوسف الأندلس الى دولته ، وقد تمت سيطرته على معظمها ، فأصبحت جزءاً من دولة المرابطين عام 1101/495 وعاصمتها مراكش .

ولما اراد يوسف بن تاشفين تثبيت سيطرته على الأندلس ، وأخذ بيعة اهلها ، جمع الفقهاء لهذا الغرض ، إلا انهم طالبوه باستصدار ولاية رسمية من الخليفة العباسي المستظهر بالله ، قبل ان تجب طاعته على الكافة ، فأرسل الى الخليفة رسولاً ومعه هدية كبيرة يطلب اليه ان يقلده ولاية البلاد . فكان له ما أراد ، ولقب بأمير المسلمين .

ولا بد ، قبل متابعة تطور أوضاع الاندلس في ظل حكم المرابطين ، من القاء نظرة سريعة على تاريخ هذه الدولة ، لنعي اثر نشأتها على تطور علاقتها بالاندلس .

لقد كانت نشأة دولة المرابطين وليدة صدفة . ذلك ان احد زعماء قبائل صهناجة البربرية ، التي كانت تسكن ما يعرف الآن بموريتانيا وهو يحيى الكدالي ، اراد لافراد قبيلته ان يلموا بالاسلام الماماً سليماً ، فجاء بفقيه اسمه عبدالله الغزولي يرشد الناس الى تعاليم الدين الحنيف .

غير ان افراد هذه القبيلة الذين كانوا يعيشون كيفا اتفق ، لا يخضعون لقانون ولا ينظم حياتهم عرف ولا يعرفون من الاسلام غير اسمه ، لم يستطيعوا الانضباط ، ولم يتحملوا القيود التي اراد من خلالها ان ينظم حياتهم في اطار تعاليم الاسلام ، فانفضوا عنه ، سوى قلة منهم ، تبعته الى رباط قصيّ في الصحراء ، حيث أخذ يعلمهم ويعدهم الى الخروج ونشر تعاليم الدين .

ولم يمض أكثر من عشرين عاماً ، حتى استطاع هذا الفقيه ان يربيّ نَشْأً قوياً بايمانه . ظل يرعاه ويزيد من عدد افراده ، الى ان بلغ من الضخامة والقوة ما دفعه الى التفكير بالاستفادة من ذلك في نشر تعاليمه التي تقوم على العلم والدين وحياة التقشف والزهد واصلاح الفساد وتطبيق الشريعة الاسلامية ، فأعلن الجهاد ، وخرج مع جماعته التي اصبحت تعرف « بالمرابطين » ، نسبة للرباط الذي اقاموا فيه ، او بالملثمين لأنهم كانوا يضعون اللثام على وجوههم . وما لبث الغزولي ان استشهد في تصادم مع السلطة لتؤول الزعامة الى اللمتوني الذي تخلى عنها لابن عمه يوسف بن تاشفين . وما لبث هذا ان هب الى توحيد

المغرب ، الى أن دخلت في طاعته الرقعة الممتدة من المغرب الى السودان ونهر النيجر .

ولقد رأينا فيما تقدم كيف ساقته الأقدار الى الأندلس ، التي مـا فتىء ان ضمها الى دولتـه الضخمة ، وأنشـأ لها عاصمة جديدة اسماها مراكش .

ومات يوسف بن تـاشفين عـام 1106/500 وقد بلغت دولتـه ذروة مجدهـا ، فـورث الحكم فيهـا ابنـه عـلي بن يوسف ، الذي ادى به تدينـه الشديـد ، وانصرافـه الى التعمق في الفقه ، الى اغفال شؤون الحكم ، مما ادى الى اختلاله ، والى تضعضع قوته العسكريـة ، ثم الى انهيار بعض المواقع الاسلامية في قشتـالة واراغـون والبرتغـال وغيرها ، وبالتالي الى سقوط دولة المرابطين في المغرب على يد الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت عام 1145/540 .

ولم يأفل نجم دولة المرابطين دون ان تترك بصماتها على التراث العلمي والادبي في الأندلس . فقـد انفتح عهـد المرابطين على الادب والشعر والعلم، واستقطب اصحاب الفنون والعلوم من الأندلس، ورعاهم. وأغدق عليهم. وكان لتوحيد الأندلس والمغرب في دولة واحدة مترامية الاطراف اثره النفسي العظيم عـلى سكان هذين القطرين ، اللذين اصبحا بلدا واحداً ، يعطي كل منهما الى الآخر ما هو بحاجة اليه . فكان المغرب يوفّر للاندلس الحماية ، وكـان الأندلس يغـدق على المغـرب المعرفـة والثقافـة والفكر ، الامـر الذي ادى الى تعـزيز النهضة العلمية والأدبية والفكرية في المغرب ، والى ازدهار الحيـاة الاجتماعيـة فيها وتكـامل سكـان البلدين واذابة التناقضات السياسية بينهما .

ولم يبخل المغرب في رعايته لاربـاب العلم والأدب . فشمل عدداً من اعظم العلماء والمفكرين والأدباء برعايته ومنهم الطبيب ابو العلاء بن زهر ، وابنه الطبيب ابن زهر الاشبيلي ، والفيلسوف الكبير ابو بكر بن باجـه ، الذي كـان عالمـاً بالـطب والمـوسيقى والأدب ، والفيلسـوفـان الشهيـران أبو الـوليد بن رشـد ، وابو بكـر بن طفيل ، وغيرهم كثير .

دولة الموحدين 1151/546 - 1268/667

لم يكن هناك كبير فرق بين الأساس الذي قامت عليه دولة الموحدين والأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين قبلهـا ، فكلتا الـدولتـين تـرجـع في أصلهـا الى قبـائـل بربرية ،قادها الى الحكم رجل لم يكن راضيـا عن الحياة الدينية التي يعيشها قومه ،. فقام يبشر بالاصلاح ، وبلغت دعوته من القوة ما جعلها تقوى على الدولة وتودي بها .

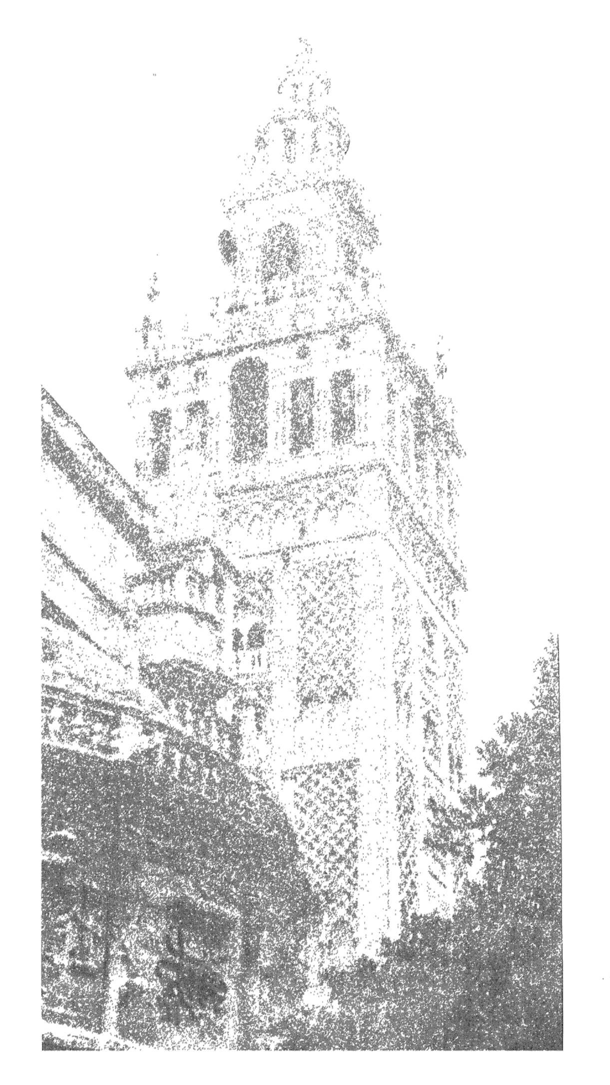
وبدأت دعوة الموحدين على يد رجل من قبائل المصامدة في المغرب اسمه محمد بن تومرت ، ينتسب الى آل البيت ، وقـامت دعوتـه على أسـاس الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أساس التوحيد على طريقة الأشاعرة وهي تأويل المتشابه من آيات القرآن وحديث الرسول ، ومن هنا عرف اتباعه بالموحدين .

وكـان محمد بن تـومرت قـد التقى ببعض الأئمـة في المشرق ومنهم الغزالي ، وعاد الى المغرب ، وقد تزود بآراء وأفكار بدأ يبشر بها وينشرها فلاقت رواجاً ، لما عرف عنه من فصاحة وقوة حجة وورع وغيرة متناهية على الدين .

وكان محمد بن تومرت متزمتاً في نهيه عن المنكر الى حد استفزاز مشاعر الناس العاديين والحكام على حد سواء ، وقد مارس هذا التزمت في كـل بلد مر بـه في رحلته الى المشرق ، واثناء عودته الى المغرب . فكان لا يرى خمراً إلا سكبه، ولا آلة طرب الا حطمها، ولا ماجناً إلا أغلظ اليه في القول ووجه اليه الاهانة، حتى الحكام لم ينجوا من لسع لسانه.

غير أن ما كان يشفع له امام الحكام والمحكومين ، ما كان يتسم به من تقوى وصلاح واستقامة . وكـان الذي يشد الكثير من الناس اليه ، مقارعته للحكام الفاسقـين المنحـرفين الغـافلين عن تعـاليم الاسـلام ، التي تقـول بالتقوى وبمراعاة مصالح المسلمين .

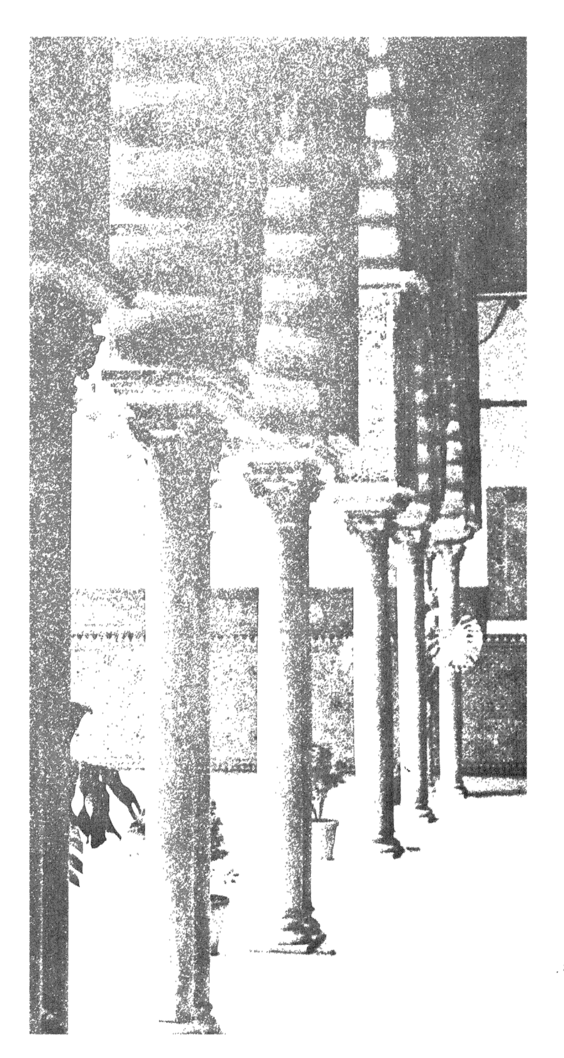
ولما بـدأ الحكـام يضيقـون بـه ذرعـا ، ويستعـدون للانقضاض عليه ، ابتعد بنفسه وبأتباعه عنهم ، والتجأ الى قبيلتـه ، حيث بدأ يكـرس جهده في تعليم جمـاعتـه واعدادهم للدعوة .



منارة الخيرالدا باشبيلية .



الجيرالدة : منارة المسجد الجامع باشبيلية



فناء العذارى بقصر اشبيلية .

وبدأت تعاليم ابن تومرت تنتشر ، ليس في قبيلته فحسب ، ولكن في قبائل عديدة اخرى . واخذ الناس يفدون اليه من كل صوب وحدب ، الى حد ان الدولة أخذت تتوجس خيفة من الخطر الكامن وراء حركته ، فجهزت حملة للقضاء عليه فقضى هو عليها عام 1120/515 .

وتوالت المعارك بين الموحدين والدولة الى ان مات ابن تومرت عام 1129/524 ، فخلفه احد اتباعه وهو عبد المؤمن بن علي الكومي ، الذي ظل يقارع الدولة حتى قضى عليها وأقام دولة الموحدين عام 1151/546 واتخذ مراكش عاصمة لها .

وكانت لعبد المؤمن صلة بالأندلس ، ترجع الى عام 1147/542 عندما استقبل وفوداً اندلسية جاءت لتعقد له البيعة وتستنجد به على عدوهم الذي أخذ يبتلع الموقع بعد الآخر ، والمدينة بعد الأخرى بعد انفراط عقد دولة المرابطين .

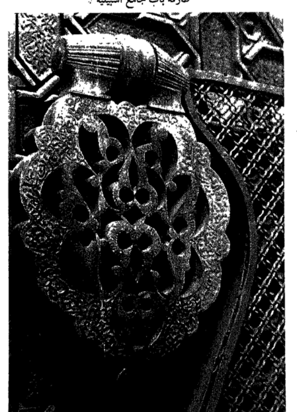
وكانت أوضاع الأندلس قد تردت الى ان عادت الى ما كانت عليه ابان عصر ملوك الطوائف ، وزاد ضغط الاسبان على المدن الاسلامية ، فتعالت صرخات الاستنجاد والاستغاثة من جديد، الى ان دخل عبد المؤمن ابن علي زعيم الموحدين الأندلس عام 1160/555 ، فاستعاد الكثير مما فقده المسلمون من مواقع ومدن ، وضمها الى ملكه وجعل من اشبيلية حاضرة لدولة الموحدين في الأندلس ، وعين ابنه ابا يعقوب يوسف والياً عليها .

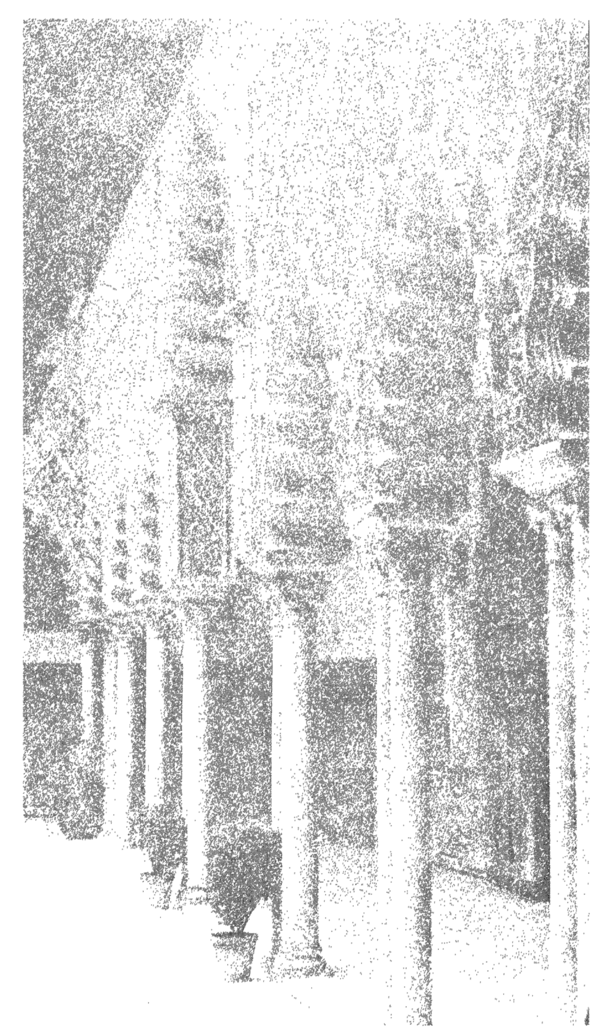
ثم توفي عبد المؤمن وخلفه ابنه ابو يعقوب في الحكم عام 1162/558 ، فكانت له جولات جهادية موفقة ضد العدو ، كما عمل على التشييد والبناء ، الى ان توفي بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، فخلفه ابنه ابو يوسف يعقوب المنصور ، الذي دام حكمه خمس عشرة سنة ، بلغت دولة الموحدين خلاله أوج عظمتها وقوتها ، وكانت له مواقف جهادية رائعة توجها بأهم غزواته ضد مملكة قشتالة ، فانتصر على ملكها في معركة «الأرك» عام 1195/590 التي يقال انه كبد فيها العدو مائة الف قتيل بالاضافة الى عشرات الألوف من الاسرى. ومن أجلّ اعماله الانشائية اكمال جامع اشبيلية واتمام مئذنته التي تعرف الآن بالخيرالدا (La Giralda) .

ولم يخل عصر الموحدين من العطاء الفكري والعلمي والادبي. فقد شجع خلفاء الموحدين علماء الفلسفة والحكمة كأبي بكر بن طفيل وابي الوليد بن رشد الذي لخص كتب ارسطو . كما أنشأ يوسف بن عبد المؤمن مكتبة لا تقل قيمة وثراء عن مكتبة الحَكَم الأموي . واشتهر في عهد الموحدين ابو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الشهير وكذلك الصوفي ابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري ، كما احتضن الموحدون أهل الأدب والقلم .

غير ان الاسبان لم يقبلوا بهزيمتهم الساحقة في الارك ، وظلوا يستعدون للثأر ، في ظل هدنة تم الاتفاق عليها إثر تلك المعركة . ولم تقتصر هذه الاستعدادات على اعداد الجيوش وتدريبها ، ولكنها اتخذت صفة صليبية واضحة

طارقة باب جامع اشبيلية .





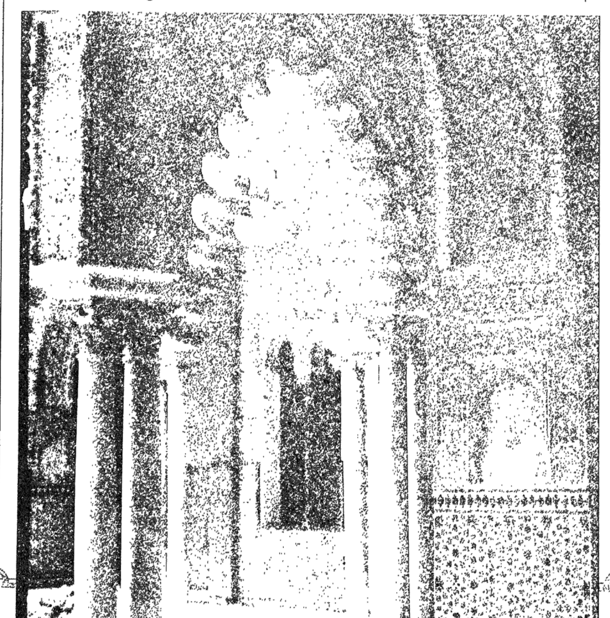
بهو العذارى في قصر اشبيلية .

المعالم ، بعد ان اتحد الفونس الثامن (Alfonso VIII) مع بطرة الثاني (Pedro II) واستعانا ببقية ملوك الاسبان ، وبجميع ملوك اوروبا النصرانية ، حتى بالبابا الذي امدهم بالمعونات المادية والمعنوية .

والتحمت جيوش النصارى بجيش المسلمين عام 1212/609 في معركة « العقاب » ، انهزم فيها المسلمون شر هزيمة ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في تاريخ وجودهم بالأندلس . وبدأ الانحسار العربي ، واخذت أهم مدنه تتساقط تباعاً ، فاستولى فرناندو الثالث (القديس) على قرطبة عام 1236/636 ، وسقطت كل من بلنسية ومرسية عام 1239/637 ، الى أن بلغت جيوش قشتالة مدينة اشبيلية وحاصرتها لمدة 17 شهرا حتى سقطت عام 1248/648 .

وبسقوط اشبيلية سقطت دولة الموحدين في الأندلس عام 1268/667 ، بعد أن اضفت على الأندلس ، وخاصة حاضرته اشبيلية ، هالة من الأبهة والعظمة ، تجلت في قوتها الحربية ومكانتها السياسية ومآثرها الحضارية ، فاجتذبت وفوداً وسفارات من بلدان اوروبية كان من بينها سفارة أوفدها ملك انجلترا هنري الثاني ، وأخرى اوفدها الملك شنجة السابع ملك نبارة .

وبسقوط اشبيلية ودولة الموحدين في الأندلس بدأ الوجود الاسلامي في الأندلس يشهد تحول الاصيل الى الغروب . . . الغروب الطويل .



جدول بياني

لعصر الطوائف والمرابطين والموحدين

مصر	بلاد الشام	العراق
المماليك	المماليك	المغول
الأيوبيون	الأيوبيون	خوارزم شاه
الفاطميون	الفاطميون	السلاجقة
		العباسيون

السنوات: 1000، 10، 20، 30، 40، 50، 60، 70، 80، 90، 1100، 10، 20، 30، 40، 50، 60، 70، 80، 90، 1200، 10، 20، 30، 40، 50، 60، 70

الموحدون

المرابطون

بنو ذي النون (طليطلة).
بنو جهور (قرطبة).
بنو عباد (اشبيلية).
بنو الأفطس (بطليوس).
بنو عامر (بلنسية).
بنو حمود (في مالقة الجزيرة الخضراء).
بنو مزين (شنترية الشرق).
بنو هود (سرقسطة).

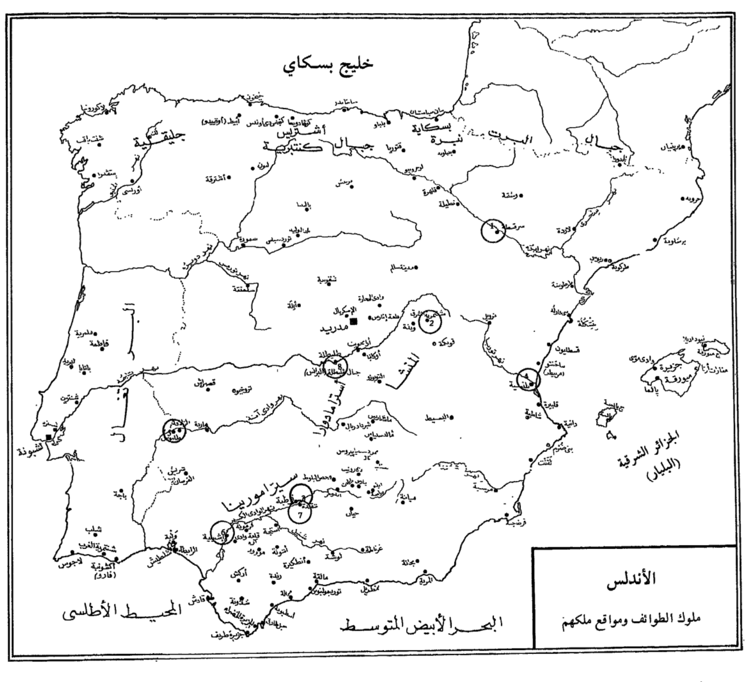
المغرب

- 1269 سقوط دولة الموحدين.
- 1224 محمد عبد الواحد خلع وبويع أبو محمد عبدالله (العادل).
- 1213 ـ أبو يعقوب يوسف (المستنصر بالله).
- 1212 معركة العقاب وانهزام المسلمين.
- 1199 ـ أبو عبد الله محمد (الناصر لدين الله)
- 1184 أبو يوسف يعقوب (المنصور)
- 1162 ـ أبو يعقوب يوسف.
- 1160 دخول عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس وجعل أشبيلية حاضرة لدولة الموحدين في الأندلس.

الموحدون

- 1106 وفاة يوسف بن تاشفين واعتلاء ابنه علي بن يوسف عرش السلطنة.
- 1090 عودة يوسف بن تاشفين وضم الأندلس إلى المغرب.
- 1086 ـ المرابطون ينجدون أهل الأندلس وانتصارهم على الاسبان في معركة الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين.

المرابطون



1 ـ بنو هود ـ سرقسطة.

2 ـ بنو رزين ـ شمنترية الشرق

3 ـ بنو حمود ـ قرطبة.

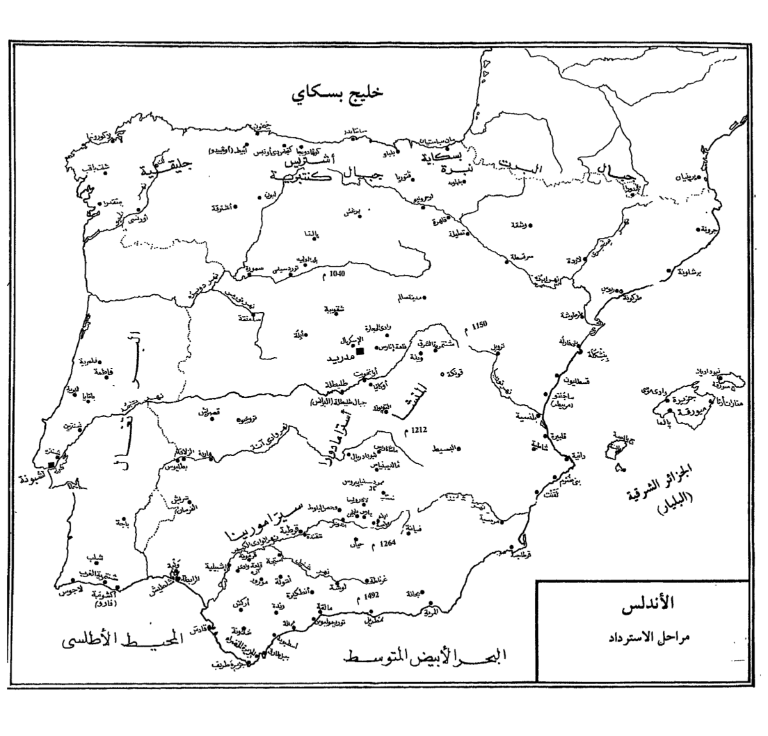
4 ـ بنو عامر ـ بلنسية.

5 ـ بنو الأفطس ـ بطليوس.

6 ـ بنو عباد ـ أشبيلية.

7 ـ بنو جهور ـ قرطبة

8 ـ بنو ذي النون ـ طليطلة.


خليج بسكاي
جليقية
أشتريس
جبال كنتبرية
بسكاية
نبرة
برغش
ليون
سمورة
سلمنقة
شقوبية
آبلة
مدريد
قونكة
طليطلة
1040 م
1150 م
1212 م
1264 م
1492 م
سرقسطة
وشقة
جرونة
برشلونة
طركونة
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
قرطاجنة
الجزائر الشرقية
(البليار)
ميورقة
شنترين
لشبونة
بطليوس
البسيط
باجة
سيرا مورينا
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
شلب
قادس
جزيرة طريف
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
مراحل الاسترداد

الفصل السادس

«الغروب»

دولة بني الأحمر : الاندلس الصغرى

اذا حل الغروب اثر يوم شاحب ، جاء باهتاً ، غير لافت للنظر . واذا حل اثر يوم تعاقبت فيه ومضات مشرقة وزخات عاصفة ، استمد من هذا التعاقب دراميته ، واستلهم منه مزاجيته ، وتشرب من تعاقب الوانه ذهب شمسه ولجين غيومه ، فتعانقا في لوحة الهية فريدة ، تبعث في النفس خليطاً من الرهبة والخشوع ، وتترك ، في معظم الاحيان ، لمسة من الكآبة والحزن ، تظل قابعة في أعماق النفس ، الى ان يحل الظلام ، وتنطوي صفحة أخرى من صفحات العمر ،لتبدأ صفحة جديدة مع انبلاج صبح اليوم التالي .

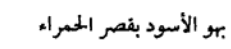
ولئن كانت اشراقة الوجود العربي في الأندلس خاطفة فإن غروبه كان طويلاً ، طويلاً جداً ، وكان غريباً ، غريباً حتى الوجع ، اختلطت فيه ازهى الألوان وأقتمها ، وتصارعت فيه بسمات الشمس الذهبية الدافئة ، مع دموع السحب القاتمة الكئيبة ، وحارت الطبيعة فيه بين الرضا والغضب ، فهي تفترّ مرة عن قوس قزح ، وتكشر مرة أخرى فترعد وتبرق ، وتهدر وتعصف . . .

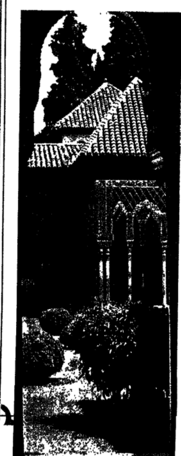
ويطول هذا الغروب ، كأن القدر اراد ان يمهل العرب علهم يفيقون قبل ان تغيب آخر خيوط شمسهم المشرقة . . يطول اطول غروب عرفه البشر، ويدوم اكثر من قرنين من الزمن ، شهد العالم اثناءهما دولاً تصعد وممالك تنقرض ، وشهد الأندلس خلاله عشرين ملكاً مسلماً يجلسون على عرش غرناطة ، الاندلس الصغرى ، وينزلون عنه ، وشهد جيوشاً عاتية تتجمع من كل حدب وصوب ، تتهيأ للانقضاض على هذه المملكة الصغيرة الباقية ، والغروب يأبى ان يستسلم لظلام الليل الدامس .

كان أطول غروب عرفه التاريخ . وكان اروع غروب عرفته الأندلس . وكان أقسى غروب عرفه العرب .

كان الحكم العربي في الأندلس قد انحسر وتقلص ، واقتصر على منطقة غرناطة ، التي جعل منها محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر ، حاضرة لدولته التي كانت تضم بسطة ووادي آش وشريش ومالقة وجيان ، والمرية .




بهو الأسود بقصر الحمراء





فناء الريحان او البركة بقصر الحمراء بغرناطة .

وكان معظم المسلمين الذين اقاموا في بلاد الأندلس نحواً من ستة قرون قد رحلوا عنها الى المغرب وغيره ، اما قسراً أو خوفاً من انتقام . وبقي عدد ابى النزوح ، وفضل البقاء في الأندلس ، إما تعلقاً بترابه الذي تغذق بدماء اجداده ، وبصروحه الحضارية التي عاصرها وشارك في اعلائها حجراً فوق حجر ، او استسلاماً لمشيئة القدر وخوفاً من المجهول .

وقد تعلقت آمال هؤلاء الذين اصبحوا يعرفون بالمدجنين (Los Mudejares) ، بملوك غرناطة الذين توسموا فيهم الخير لخلاص المسلمين من محنتهم ، وانبلاج صبح جديد يعيد الى الأندلس مجدها التليد ، فبدأوا يتوافدون على غرناطة ، وبينهم الكثير من أهل الفنون والحرف ، ومن الجنود الأشداء الذين آثروا ان يفتدوا الاسلام بدمائهم ، والجهاد في سبيل استعادة عزة العرب وكرامتهم . فأسهموا بنهضة غرناطة وعظمتها ورصعوها بأجمل لآلىء فنهم لتصبح ، حتى يومنا هذا ، واحدة من اجمل مدن العالم ، وتزهو باعجاز عمراني فني فريد قلما عرف التاريخ له مثيلاً ، تحج اليه ملايين البشر كل سنة ، وتظل فاغرة الأفواه امام عظمته ورشاقة هندسته وروعة نقوشه . وكان لهم باع كبير فيما اتحفت به غرناطة الأدب العربي من روائع القصيد وبدائع النثر ، وما خلّفته من مآثر العلم والمعرفة .

كل ذلك في ظل الوان الغروب ـ الغروب الطويل .

ولئن بذل الانسان المسلم ، منذ وطئت اقدامه تراب الأندلس ، من دمائه وعرقه ما لم يبذله في أي مكان من تاريخه الطويل ، فإن هذه البقية التي ظلت متمسكة بتراثها العظيم ، حتى آخر معاقله ، لهي جديرة بالخلود ، لو قدرت لها القيادة الحكيمة المنزهة عن المطامع . ولئن بدأ بنو الأحمر بداية تبشر خيراً ، وبرز منهم من الأبطال من تحلى بالرجولة والأنفة والكبرياء ، إلا ان نفوس الكثيرين ضعفت امام بريق السلطان وجاذبية الكرسي ، وتغلبت

الشهوات على الايمان ، ورجحت مصلحة الحاكم على مصلحة المحكوم ، وبدأ النّخر يدب في جسم هذه المملكة الباقية .

وفي هذا لم يختلف عهد غرناطة عن غيره من العهود . ذلك ان القبلية والعصبية والانفرادية ظلت المعادلة الوحيدة التي يقوم عليها المجتمع وهي التي تتحكم بتفاعلاته ، فالفتن والمؤامرات والمناحرات ظلت تتوالى طيلة القرنين ونصف القرن التي ظل الغروب الطويل مخيماً فيها على الأندلس الصغرى .

أما كيف ظلت هذه المملكة الصغيرة ممسكة بأهداب الغروب ، تؤجل انسدال ستارة الليل الدامس لأكثر من قرنين من الزمن ، فهذا ما يعجب له كل دارس لتاريخ العرب في الأندلس . ذلك ان بقية اجزاء الأندلس كانت قد انهارت خلال فترة قصيرة نسبياً ابان عهد الموحدين .

وكانت معنويات الاسبان قد بلغت من الاترفاع ما لم تبلغه منذ الفتح الاسلامي ، وأصبح لهم في حربهم حلفاء وفدوا لنجدتهم من جميع انحاء اوروبا ، وأعلنوا على المسلمين حرباً صليبية استهدفت اقتلاع جذور الاسلام من شبه الجزيرة الايبرية . كل هذا والحصن الباقي من الحكم العربي ينزف من التطاحن والفتن ، في رقعة ضئيلة تفتقر الى ابسط قواعد الاستقرار والمنعة .

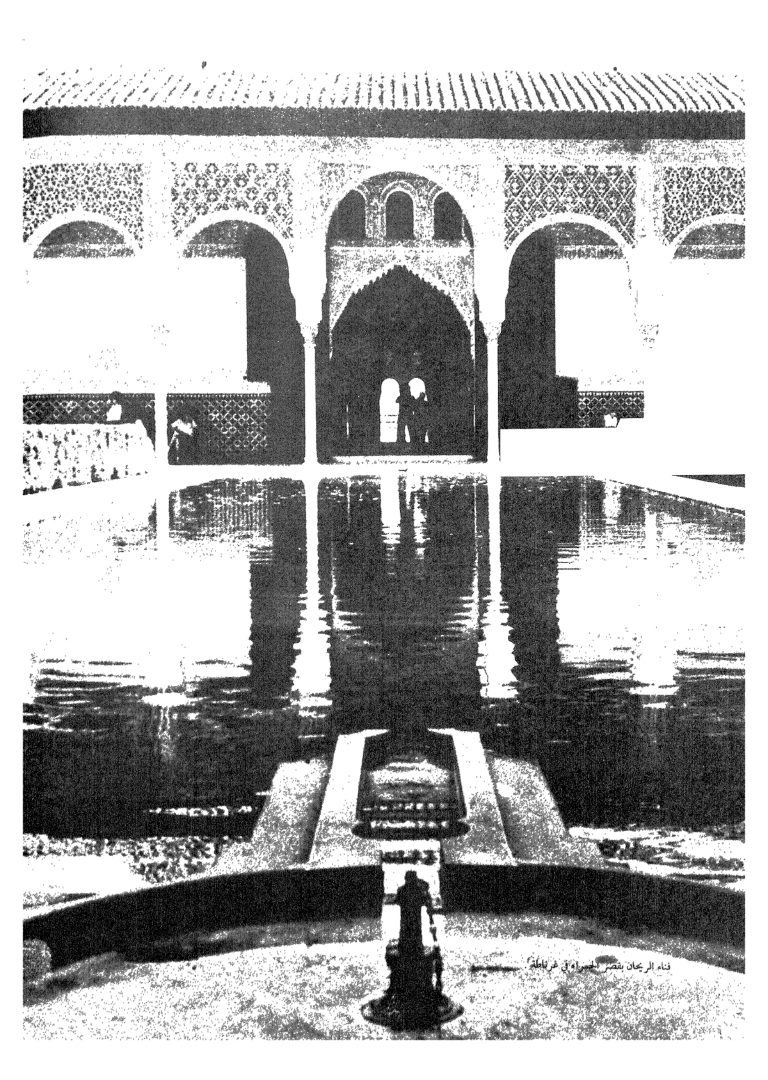
ومن غير المنطقي ، كما يحاول البعض تفسير هذه الظاهرة العجيبة ، ارجاع بقاء هذه المملكة الصغيرة ، في مثل هذه الظروف ، ولهذه المدة الطويلة ، الى صمود العرب فحسب . صحيح ان الانسان العربي استبسل ، كما لم يستبسل احد ، في الدفاع عن آخر معاقله ، وبذل في سبيل ذلك الكثير من الدماء الزكية ، غير أن هذا لم يكن يكفي وحده لوقف انسدال الستارة على الوجود العربي في مثل تلك الظروف لولا بعض العوامل الأخرى .

فموقع غرناطة المنيع كان واحداً من هذه العوامل التي ساعدت العرب في صمودهم . كما ان النجدات التي كانت تتوالى على المسلمين من اخوانهم في المغرب كانت عاملاً مهماً آخر . غير ان عاملاً آخر كانت له اهمية رئيسية وهو ان الاسبان ظلوا ، لمدة طويلة ، يتهيبون خوض حرب حاسمة مع المسلمين الذين لم يكونوا على استعداد للتفريط بآخر معاقلهم مهما كلفهم الأمر . فضلاً عن انهم رأوا ، على ما يبدو ، ان الصراع المتأجج بين المتنازعين على الحكم من العرب ، كفيل بأن يقوض ذلك الوجود دون ان يتكبدوا هم مشقة ذلك . وكان لسان حالهم يقول : فلتأكل النار بعضها بعضاً ، أما نحن فلننتظر .

ولقد قسا كثير من المؤرخين والكتّاب على بني الأحمر لتسليمهم آخر معاقل المسلمين الى الاسبان ، واتهموهم بالتخاذل والجبن والتواطؤ . ولربما كان في ذلك الكثير من التجني على عهد وقف امام أضخم تحالف عسكري عرفته

فناء الريحان بقصر الحمراء في غرناطة .

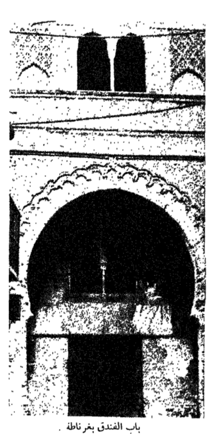




فناء الريحان بقصر الحمراء في غرناطة

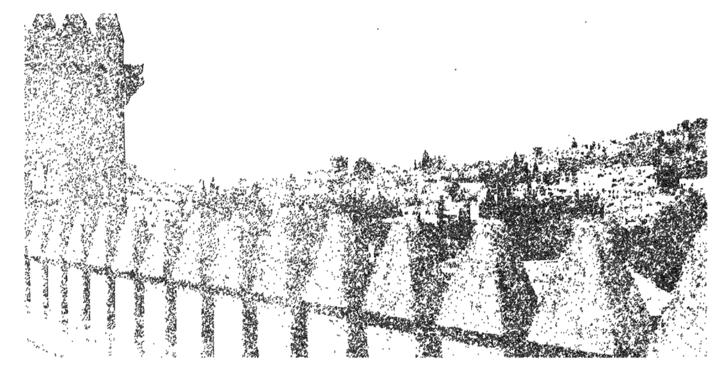
تلك الحقبة من تاريخ البشر . فقد ظل صامداً أمام هجماته الشرسة مدة قرنين ونصف القرن من الزمن، في حين انهارت دول وممالك اندلسية غيرها قبل ذلك خلال ومضة قصيرة من الوقت نسبياً ، كما أن التخاذل واللامبالاة والتواطؤ لم تكن حكراً على بني الأحمر ، بل عرفته الدويلات الاسلامية بعد التفتت الذي عانى منه الحكم اثر أفول الخلافة . ولئن انحطت نفوس بعض الحكام او الطامعين في جميع عهود المسلمين ، إلا أن معظمهم ظلوا على شموخهم وكبريائهم ، وظل الانسان العربي الأندلسي رافع الرأس ، يمنح ولا يمنع ، ويقدم ولا يحجم ، ويبني ولا يهدم .

وقد عرفت مملكة غرناطة رجالاً من هذا الطراز ومن ذاك ، ولا أفضل على ذلك مثالاً من قصة والد وولده ، هما السلطان ابو الحسن علي بن سعد ، الذي تبوأ عرش مملكة غرناطة في أواخر عهدها ، وهي على شفير الهاوية . كان جيش فرديناند وايزابيلا على أبواب مملكته . وكان أن

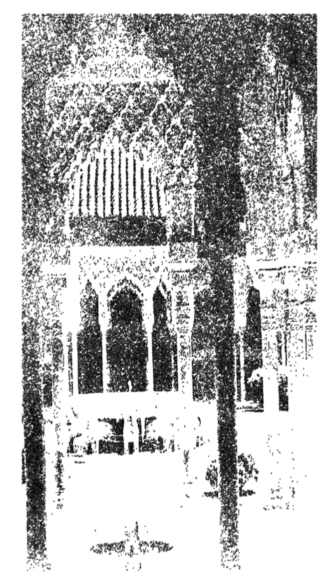


باب الفندق بغرناطة .

نقوش في جدران قصر الحمراء بغرناطة .



اسوار قصور الحمراء بغرناطة



بهو الأسود بقصر
الحمراء في غرناطة

وضراغم سكنت عرين رياسة
تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النُضار جسومها
واذاب في افواهها البلورا
أُسْدٌ كأن سكونها متحرك
في النفس ، لو وجدت هناك مثيرا

طلب السلطان ابو حسن اليهما مهادنته فقبلا ، شريطة ان يعترف بسيادة ملك قشتالة ، فرفض ، فبعثا اليه يطالبانه بدفع الجزية والخضوع لهما ، فقال لمبعوثي الملكين « اذهبوا واخبروا من ارسلكم ان الملوك الذين كانوا يؤدون الجزية قد ماتوا منذ زمن طويل ، وان دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب ذهباً ولا فضة ، ولا تضرب الا سيوفاً وحرابا » .

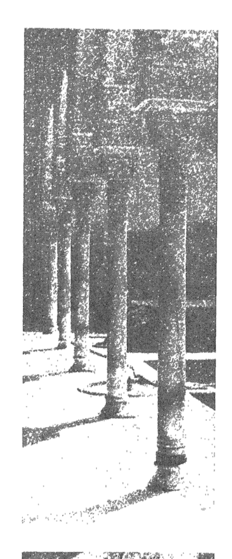
كان الاب من هذا الطراز ، وظل على حاله طوال مدة حكمه التي استمرت أكثر من عشرين عاماً ، ظل خلالها صامداً كصخور غرناطة المحيطة بقصره .

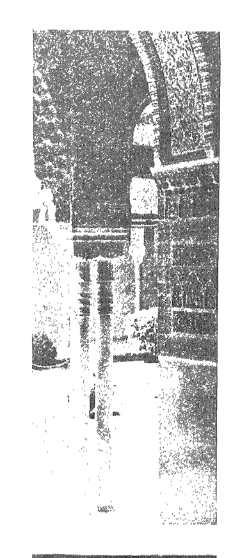
أما ابنه ابو عبدالله ، فهو الذي سلم مفاتيح غرناطة آخر حصون الاسلام لنفس الملكين ، فرديناند وايزابيلا . ولا يدخل ابو عبدالله هذا في عداد الطراز الآخر من المخلوقات ، لمجرد انه استسلم وسلم مفاتيح غرناطة الى اعدائه ذليلاً مطأطأ الرأس ، ولكن ايضاً لأن دناءته وطمعه الى الكرسي دفعاه الى خيانة والده واجهاض استبساله ونخوته وشموخه ، تمهيداً للانقضاض على عرشه .

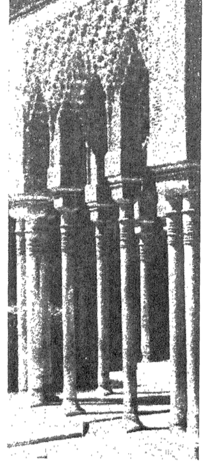
وتتخضب اركان قصر الحمراء بالدماء ، ويظل العرش يتأرجح بين الاب وابنه ، بينما فرديناند وايزابيلا يتمتعان ، عن كثب ، بلون هذه الدماء القاني ، الى ان ادركت الشيخوخة الاب فعهد بالملك لأخيه الزغل . وقد بلغ تعطش أبي عبدالله الابن ، الذي عرف بالشقي ، الى السلطة الى درجة انه استغاث بفرديناند وازابيلا ضد عمه .

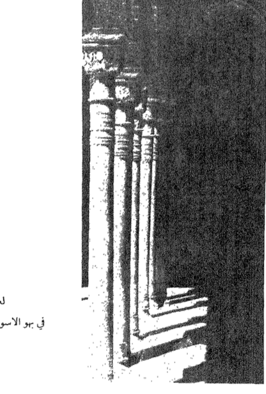
واستمر الصراع بين افراد العائلة العربية الواحدة ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش النصارى الأوروبية المتحالفة ، التي كانت حتى الأمس القريب غارقة في متاهات العداوة والصراع ، تزحف على آخر معاقل المسلمين تحت شعار الصليبية . وفي الوقت الذي ظل الزغل ممسكاً فيه بقبضة السيف دفاعاً عن آخر معاقل المسلمين ، بعث ابن اخيه ابو عبدالله يهنىء فرديناند وايزابيلا على دخولهما مالقة وتحويل مسجدها العظيم الى كنيسة .

ولما دب اليأس في قلب الزغل سلم ما كان بيده من البلاد الى الأعداء . اما ابو عبدالله حليف النصارى فقد تقوقع في قصره ، قصر الحمراء ، بعد أن تبين له ان حلفاءه استغلوا خيانته لإضعاف المسلمين ، وانهم منقضون عليه لا محالة . وبدأ حصار المدينة . وبعث حليف الامس يطالب ابا عبدالله بالاستسلام فقبل ، والتقى بالملكين فرديناند وايزابيلا ، فمد يده الى فرديناند بمفاتيح غرناطة ، آخر معاقل الاسلام في الأندلس قائلاً « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في اسبانيا ، خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا واشخاصنا ، كما قضت مشيئة الله تعالى ، فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها ، والتي ننتظرها منك » . ثم ادار ظهره وكانت شمس يوم 2 كانون الثاني ـ يناير 1492 تبزغ من الشرق ، وشمس الوجود الاسلامي العربي تغرق في دجى التاريخ ، بعد ذلك الغروب الطويل الطويل .









لعبة الأعمدة

في بهو الاسود بقصر الحمراء .

آخر العهد بالجزيرة كانت
بعد عرك من الزمان وضرْس
فتراها تقول : راية جيش
باد بالامس بين اسر وَحَسّ
ومفاتيحها مقاليد ملك
باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صمّ
من حفاظ لموكب الدفن خُرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت
تحت آبائهم هي العرش امس
رب بان لهادم وجموع
لمشتٍّ ومحسنٍ لمخسّ

(شوقي)

محرم ٨٩٧		
- 1492 سقوط غرناطة.		
- 1487 - 1492 أبو عبد الله (المرة الثانية).		
- 1483 أبو عبدالله محمد الزغل (عم أبي عبد الله)		
- 1482 أبو عبدالله (المرة الأولى).	1464	
	- 1479 اتحاد قشتالة وأراغون	
- 1463 أبو الحسن علي بن سعد - خلع.		
- 1463 سعد بن محمد (المرة الثانية) - خلع.	- 1469 زواج فرناندو وايزابيلا	
- 1462 يوسف الخامس (المرة الثانية)		
- 1458 سعد بن محمد (المرة الأولى) - خلع.	- 1462 سقوط جبل طارق بيد القشتاليين.	
- 1446 محمد العاشر الأعرج (المرة الثانية) - خلع		
- 1445 يوسف الخامس (المرة الأولى) - خلع.		
- 1442 محمد العاشر (الأعرج) (المرة الأولى) - خلع		
- 1332 أبو عبدالله الأيسر (المرة الثالثة) - خلع		
- 1432 ابو الحجاج يوسف الرابع.		
- 1430 أبو عبدالله الأيسر (المرة الثانية) - خلع		
- 1428 محمد التاسع، أبو عبدالله الصغير.		
- 1417 أبو عبدالله محمد الثامن (الأيسر) (المرة الأولى) - خلع.		
- 1408 يوسف الثالث (شقيق محمد السابع).		
- 1394 محمد السابع (ابن أبي الحجاج).		
- 1391 ابو الحجاج يوسف الثاني (شقيق محمد الخامس).		
- 1362 محمد الخامس (المرة الثانية).		
- 1360 أبو عبدالله محمد السادس - خلع		
- 1359 اسماعيل الثاني (شقيق محمد الخامس) - خلع.		
- 1354 محمد الخامس بن ابي الحجاج (المرّة الأولى) - خلع.	- 1348 انتشار الوباء الكبير في الأندلس وحوض البحر الأبيض.	
	- 1340 معركة بحرية استخدم العرب فيها المدفعية لأول مرة ولكنهم خسروا المعركة التى عرفت بمعركة طريف	
- 1333 أبو الحجاج يوسف الأول (شقيق أبي عبد الله) - اغتيل.		
- 1325 أبو عبدالله محمد الرابع (ابن أبي الوليد) - اغتيل.	- 1333 استعادة جبل طارق بمساعدة بني مرين.	
	- 1219 معركة ضد غرناطة اتسمت بنزعة صليبية انتصر فيها المسلمون.	
- 1314 أبو الوليد اسماعيل (شقيق محمد الأول) - اغتيل	- 1310 سقوط جبل طارق.	
- 1309 نصر (شقيق أبي عبدالله) - أرغم على التنازل.		
- 1302 أبو عبدالله محمد الثالث - خلع.		
	- 1287 سقوط جزيرة منورقة.	
	- 1278 عبر السلطان مرة أخرى فخشي محمد الثاني من مقاصده فتحالف مع ملك قشتالة ضده.	
	- 1275 وصول نجدة من السلطان المريني ونشوب معركة كبرى انتصر فيها المسلمون بالقرب من استجة.	
- 1272 محمد الثاني (ابن محمد الأول).	- 1268 سقوط أشبيلية.	
	- 1267 سقوط مرسية، توقيع معاهدة بين محمد الأول والفونس العاشر.	
	- 1247 سقوط شاطبة	
	1261	
	- 1246 سقوط جيان.	
	- 1244 سقوط دانية.	
- 1238 محمد الأول (ابن يوسف بن الأحمر). (المؤسس).	- 1237 سقوط بلنسية ومرسيه.	
	- 1236 سقوط قرطبة.	
	- 1230 سقوط جزيرة ميورقة.	
	- 1212 معركة العقاب وانهزام المسلمين.	


ولا غالب إلا الله

1 ـ محمد الأول بن يوسف بن الأحمر ـ
(635/ 1238 - 671/ 1272).

2 ـ محمد الثاني (ابن محمد الأول) ـ
(671/ 1272 - 701/ 1302).

3 ـ أبو عبد الله محمد الثالث (المخلوع) ـ
(701/ 1309 - 713/ 1309).

4 ـ نصر (شقيق أبي عبد الله) ـ (708/ 1309 - 713/ 1314).

5 ـ أبو الوليد اسماعيل (شقيق محمد الأول) ـ
(713/ 1314 - 725/ 1325).

6 ـ أبو عبد الله محمد الرابع (ابن أبي الوليد) ـ
(725/ 1325 - 733/ 1333).

7 ـ أبو الحجاج يوسف (الأول) (شقيق أبي عبد الله) ـ
(733/ 1333 - 755/ 1354).

8 ـ محمد الخامس بن أبي الحجاج (المرة الأولى) ـ
(755/ 1354 - 760/ 1359).

9 ـ إسماعيل الثاني (شقيق محمد الخامس) ـ
(760/ 1359 - 761/ 1360).

10 ـ أبو عبد الله محمد السادس ـ
(761/ 1362 - 793/ 1391).

11 ـ محمد الخامس (المرة الثانية) ـ
(763/ 1362 - 793/ 1391).

12 ـ أبو الحجاج يوسف الثاني (شقيق محمد الخامس) ـ
(793/ 1391 - 797/ 1394).

13 ـ محمد السابع (ابن أبي الحجاج) ـ
(797/ 1394 - 811/ 1408).

14 ـ يوسف الثالث (شقيق محمد السابع) ـ
(811/ 1408 - 820/ 1417).

15 ـ أبو عبد الله محمد الثامن (الأيسر) المرة الأولى ـ
(820/ 1417 - 831/ 1428).

16 ـ محمد التاسع، أبو عبد الله الصغير ـ
(831/ 1428 - 833/ 1430).

17 ـ أبو عبد الله الأيسر (المرة الثانية) ـ
(833/ 1430 - 835/ 1432).

18 ـ أبو الحجاج يوسف الرابع ـ835/ 1432 توفي بعد شهرين.

19 ـ أبو عبد الله الأيسر (المرة الثالثة) ـ
(835/ 1432 - 845/ 1442).

20 ـ محمد العاشر الأعرج (المرة الأولى) خلع.

21 ـ يوسف الخامس (المرة الأولى) لبضعة أشهر وخلع.

22 ـ محمد العاشر الأعرج (المرة الثانية) ـ
(849/ 1446 - 863/ 1458) (خلع).

23 ـ سعد بن محمد (المرة الأولى) ـ
(863/ 1458 - 86/ 1462) (خلع).

24 ـ يوسف الخامس (المرة الثانية) ـ
(867/ 1462 - 868/ 1463).

25 ـ سعد بن محمد (المرة الثانية)، خلعه ابنه أبو الحسن علي.

26 ـ أبو الحسن علي بن سعد ـ (868/ 1463 - 887/ 1482)
(868/ 1463 - 887/ 1482) (خلع).

27 ـ أبو عبد الله محمد الزغل (عم أبي عبد الله) ـ
(888/ 1463 - 887/ 1487).

29 ـ أبو عبد الله (المرة الثانية) ـ
(298/ 1487 - 897/ 1492).

الفصل السابع

«الليل الدامس»

وقف ، ابو عبدالله على قمة التل المطل على غرناطة ، يلقي نـظرة أخيرة على آخـر معـاقـل مملكتـه التي سلّم مفاتيحها الى فرديناند وايزابيلا . وكان ينخرط بالبكاء في البقعـة التي اصبحت تعرف فيـها بعد بـ« آخـر حسرات المغربي » ، عندما شدته امه من طرف جبته قائلة :

« ابـك مثل النسـاء ملكـاً مضـاعـاً

لم تحـافظ عليـه مثـل الرجـال »

وتبعها ابو عبدالله يجر اذيال الخيبة والحسرة ، الى ان ابتلعه الوادي الذي يفصل بين حاضرة ملكه البائد ومنفاه في أندرش (Andrax) ، حيث وافق الملكان المنتصران على أن يظل فيه هو وعائلته . ولم يكن ابو عبدالله يعلم انهما لن يلبثا ان ينقضا عهدهما هذا له ويأمراه بمغادرة شبه الجزيرة الايبيرية ليذهب الى المغرب ويموت فيها ، وتـظل ذريته تعيش هنـاك على صـدقة الاوقـاف الاسلاميـة شحاذين اذلاء .

ولربما لم يتصور ابو عبدالله ، عند التوقيع على معاهدة التسليم مع الملكين فرديناند وايزابيلا ، ما سيكون عليه حـال المسلمين بعـد استسلامهم وكيف سيكـون انتقـام الأسبان النصارى منهم ، فهل تصور يـا ترى ان ينقض ملكان معاهدة وقعا عليها ومهراها بخاتميهما واقسما بشرفهما الملكي بأن يراعيا شروطها ويعملا عـلى تنفيذ نصـوصها كاملة ؟ كانت هذه المعاهـدة تتكون من سبعـة وستين شرطاً تحدد كيف تكون عليه معاملة الاسبـان للمسلمين الباقين في دولة اسبانيا النصرانية ، رأينا ان ندرج أهم ما جاء فيها ، حسبما اورده المقري في نفح الطيب .

«تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وابقاء الناس في اماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم الا بشريعتهم ، وان تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا احداً ، وان لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وان يُفتكّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً اعياناً نص عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء ، وان لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وان لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وان من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاقب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة اجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وان يوافق على كل الشروط صاحب رومه ويضع خط يده . . .» .

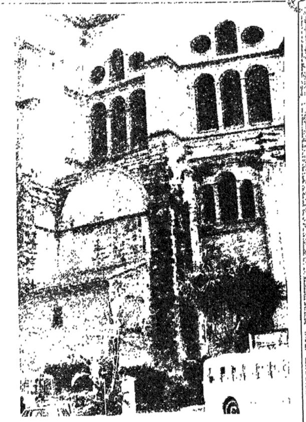
لم يدم احترام الاسبان لشروط المعاهدة أكثر من سبع سنوات بدأوا بعـدها يسـومون العـرب والمسلمين وحتى الموالي أبشع صنـوف الاضطهـاد والتعـذيب . وكـانت حجتهم في نقض المعاهدة ان المسلمين نقضوهـا عندمـا ثـاروا عام 1500/1499 ضـد محاولـة الاسبـان تعميـدهم وتنصيرهم بالقوة .

كان ستار الظلام الحالك قد بدأ ينسدل على اسبانيـا النصـرانية ، وأخـذت تتفجر في نفـوس ملوكها ورجـال الـدين فيها أبشـع ما عـرفه التـاريخ من مشـاعر الحقـد والتعصب ، وتغلي في قلوبهم شهوة البطش والتعذيب ، وتـطفح من اكبـادهم العفنة سمـوم الغـدر والخيـانـة ،

وهم الفاتحون المنتصرون الأقوياء ، تركوا للمغلوب حرية العبادة ، واقامة الكنائس والمعابد ، وحتى القضاء بين النصارى ظل في ايدي قضاتهم . نسيت اسبانيا كل ذلك عندما اجبر حكامها المسلمين على التنصر كرهاً ، وأمروا بقطع رؤوس الذين لا يتنصرون من المسلمين رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالا .

بل ان ذلك كله لم يكن كافياً بالنسبة للراهب بليدا الذي طالب بقتل العرب المتنصرين وغير المتنصرين لتعذر التأكد من صدق ايمانهم ، بحجة ترك امرهم لربهم في الحياة الأخرى ، فهو وحده يعلم ما بصدورهم ، فيدخل الجنة من كان ايمانه حقيقياً ، والنار من كان ايمانه مزيفاً . والعجب في الأمر ان الاكليروس اخذ برأيه هذا ، لولا ان الحكومة خشيت من اشتداد المقاومة ، فأمرت بطرد جميع العرب عام 1610!

غير أن امر الطرد لم يشف عليل هؤلاء المتعصبين المتعطشين للدماء . فقد ذكر غوستاف لوبون مثلاً ، ان



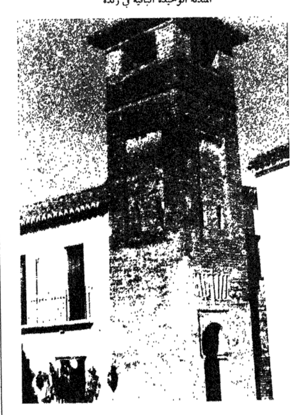
كتدرائية مالقة ويرى قوس الجامع الذي بنيت فوقه .

فيتصرفون ذلك التصرف الذي يندى له جبين الانسانية خزياً وعاراً .

وانجرفت اسبانيا في هذا الطوفان العارم متناسية تعاليم النصرانية السمحة ، تجتث من صميم كيانها ، بأبشع الوسائل ، الأمة التي انارت ظلماتها بمشاعل المعرفة ، وزرعت ترابها بالخيرات ، وغرست في قلوب أهلها روح التعايش والتآخي ، ونشرت في أرجائها بذور التسامح والمحبة ، واقامت في ربوعها صروحاً حضارية ظلت ترسل اشعاعها على العالم قروناً عديدة ، وما تزال هي ذاتها ، حتى يومنا هذا تزهو بها وتفخر على العالم بأسره .

نسيت اسبانيا النصرانية أو تناست كل ذلك في غمرة ذلك الحقد والتعصب الديني الذي غُشّي قلوب حكامها ورجال الدين فيها . نسيت ، أو تناست ان العرب لم يكرهوا نصرانياً واحداً على اعتناق الاسلام ، بل انهم ،

المئذنة الوحيدة الباقية في رُندة



الـراهب بيليدا شعـر بالارتيـاح اذ علم أن ثلاثـة ارباع المسلمين المطرودين قد قتلوا وهم في طريقهم الى المنفى في شمال أفريقيا ، وكان يتبجح بأنه قتل هو ورجاله مائة الف مهاجر من قافلة واحدة كانت تتألف من مائة وأربعين الف مهـاجـر وهي في طـريقهـا الى المغـرب . ويقـدر بعض المؤرخـين ، أن عدد المسلمـين الـذين تم طـردهم منـذ استسلام غرناطة بلغ نحو ثلاثة ملايـين مسلم . ويقول غوستاف لوبون في وصف ذلك « . . . ولا نعد ملحمـة سان بارتلمي ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين » .

ولم تقتصر جرائم محاكم التفتيش على العرب المسلمين وحدهم ، بل انها عمدت الى ابادة النصارى الذين كانت تجد فيهم قدراً من النباهة والتفتح والمعرفة ، فقد حرمت البلاد من ثلاثة ملايـين من السكان كـانت لهم الامامـة الثقـافيـة والصنـاعيـة والـزراعيـة والتجـاريـة والعلميـة والأدبيـة ، وكتمت انفـاس سكـانها من النصـارى ، وطمست معالم النهضة العلمية والفكرية التي خلفها العرب المسلمـون ، فكـأنها كـانت تخـاف من النـور ، وتخشى المعرفة ، وترتعد من الثقافة ، لأن في ذلك كله خطراً على هيمنتها وسلطانها ، في غيبة البديل الفكري والحضاري .

ومع رحيل السواعد التي قامت عليها الزراعة والصناعة والتجارة ، والفنون ، وهجرة العقول التي استندت اليها النهضة الفكرية والأدبية والعلمية ، لم يبق لدى الاسبان سوى السواعد التي تعلمت من العرب حمـل السيوف . فالاسبان كانوا يحتقرون جميع المهن سوى مهنة الكهنوت والجنـدية ، ومـا لبث جيشهم ان أصبح اقـوى جيـوش اوروبا ، تعظم اسبانيا عنـدما يعـظم وتعظم قيـادته ، وتنحط مع انحطاطه وانحطاط قيادته ، ذلك انه في غياب أي مظهر من مظاهر المدنية والتحضر ، لم يبق في اسبانيا سوى قوتها العسكرية .

ولـو استعرض الانسـان تاريخ الأمم لما عـرف امـة انحطت كما انحطت اسبانيا ولا بالسرعة التي انحطت بها بعـد طرد العـرب منها . فقـد أغلقت ابواب مصـانعها وجفت بساتينها وتقلصت مدنها الزاهرة لتصبح مجرد قرى خيمت عليها وحشة المقابر . فأصبحت قرطبة ذات نصف المليون نسمة عبارة عن قرية صغيرة عمها الخراب ، لم يبلغ عدد سكانها ، حتى اليوم ، نصف ما كـان عليه عنـدما كانت حاضرة الدولة العربيـة ، وكذا مـدريد وطليـطلة واشبيليـة وغرنـاطة حيث تـوفقت فيها جميعها الصناعـة الحرفية ، وظلت هكذا حتى القرن الثامن عشر ، عندما اضـطرت اسبانيـا الى جلب عمـال من الخـارج للقيـام بالأعمال الصناعية الضرورية .



كتدرائية طليطلة اقيمت مكان الجامع عام ١٤٩٣ .

ولا شـك في ان محـاكم التفتيش نجحت في تحقيق اغراضها ، ذلك ان سكان اسبانيا عادوا لا يقرأون غـير كتب العبادة ، ولا يعرفون عملاً غـير العمل الـديني او العسكري ، بعد ان قضت على كل من توسمت فيه قليلاً من ذكاء أو قدراً من معرفة ، فأصبح أهلهـا ، كما قـال

المؤرخون ، سكاناً وليس رجالاً ، وأصبحت هذه البلاد التي شعت بعلومها على العالم ابان عهد العرب ، تخلو من اية مدرسة للعلوم ، بل كما يقول الكاتب الاسباني كنبومانسي : لم يكن في اسبانيا كلها حتى عام 1776 كيميائي واحد يستطيع صنع ابسط التراكيب الكيميائية ، ولا من يستطيع بناء قارب شراعي ، ولم يسمع اطباء اسبانيا شيئاً عن الدورة الدموية الا بعد اكتشافها بقرن ونصف من الزمن . بل يقال ان سكان مدريد اقترحوا في عام 1760 ازالة الأقذار التي كانت تملأ شوارع البلد وتفوح منها الروائح الكريهة ، فرد عليهم المسؤولون بأن اباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون ، وان عليهم أن يعيشوا مثلهم ، ذلك ان ازالة هذه الأقذار قد تؤدي الى عواقب لا يمكن التنبؤ بها .

وظل هذا حال اسبانيا لعدة قرون ، بلغت فيها قوتها العسكرية ما جعلها أقوى امة في أوروبا ، فامتدت اجنحتها عبر اوروبا وعبر المحيط الى العالم الجديد، دون ان تضيء شمعة حضارية واحدة ، لا في أراضيها، ولا في أي طرف من أطراف امبراطوريتها الشاسعة . فأنّى لها ان تفعل ذلك ، وأعين سكانها ظلت معصوبة عن المسيرة الحضارية التي شيد العرب صروحها في أراضيهم ، والتي أخذ بها العالم المتحضر آنئذ ، في الوقت الذي عمدوا هم الى طمس معالمها وتدمير آثارها بل والى ازالتها من ذاكرتهم .

ولا عجب ان احصاء اجري في اواخر القرن التاسع عشر اظهر أن ثلاثة ارباع سكان اسبانيا ، أي 12 مليون شخص من مجموع سكانها الذي بلغ 16,620,000 نسمة كانوا اميين لا يقرءون ولا يكتبون . ولا عجب ، بمّا جاء على لسان لوقا ملاده في مجلة الجمعية الجغرافية بمدريد عام 1882 ، ان 45 في المائة من الأراضي الزراعية لم تعد صالحة للزراعة ، بالرغم من أنها كانت تزخر بالخيرات ايام العرب ، وانه برغم جميع الجهود ، لم تقم فيها صناعة ، وهي تضطر الى الاستعانة بالاجانب للقيام بأبسط انواع العمل ، وللاضطلاع بجميع الأعمال المتصلة بالعلوم والصناعة .


قلعة اغوارادبراس بين اشبيلية ورنده

وقـد كتب في اواسط القـرن التـاسـع عشر المؤرخ الانكليزي « بكل »في وصف اسبانيا « انها لا تزال نائمة هادئة ، فاقدة للحس ، غير شاعرة بكل ما يجري في بقية العالم ، أي معدودة غير موجودة ، لا تمثل سوى مشاعر القرون الوسطى وأفكارها، ومما يحزن فيها كثيراً اقتناعها بحالها واعتقادها بأنها ارقى أمم أوروبا ، مع انها أكثرها تأخراً ، وهي فخورة بكل مـا يجب ان يحمر وجههـا منه خجلاً ، فخورة بقـدم آرائها وبتـدينها ، وبقـوة ايمـانها وبسرعة تصديقها الطائش الذي لا حـد له ، وبـرفضها لإصـلاح معتقـداتهـا وعـاداتهـا ، وبحقـدهـا عـلى الملحـدين . . . ومن مجمـوع هـذه الأمـور تتـألف تلك الخلاصة الكئيبة التي تسمى اسبـانيـا » .

وقد أورد بارتـولومي بن نـاصر ، المؤرخ الفرنسي في كـتـابـه L'inquisition Espagnol xve- xixe Siecle الصادر عام 1980 ، نقلاً عن سجلات محاكم التفتيش في اسبـانيا ، بعض التفـاصيل عن التعسف الـذي مارسـه الحكم في اسبانيا ضـد المسلمين الـذين فضلوا البقاء في اسبانيا فقال ، ان الملكة ايزابيلا اصدرت في عام 1502 ، أي بعد استسلام غرناطة بعشر سنوات ، قراراً يفرض على المسلمين التنصر ، وبالتالي اجبر المسلمون على الخضوع لمراسم التعميد والاعتـراف للقساوسـة ، واتباع مـراسم الولادة والدفن ، حسب التعاليم النصرانية ، بل واجبار المسلمين على دفن امواتهم في مقابر النصارى . كما حرم عليهم الذبح على الطريقة الاسلامية ، بل كـان يفرض عليهم اكل لحم الخنزير ويحظر عليهم أكـل اللحوم يـوم الجمعة ، حسب تعاليم الكنيسة . وقد أغلقت حـمامات غـرناطـة عـام 1501 ، بـأمـر الكنيسـة التي دفعت بـأن الاستحمام من الأعمال المخـالفة للطبيعـة وبالتـالي كان المـدجن الذي يستحم يعتبـر غير متنصر . كـما حـرمت الكنيسة اقتناء الكُتب والمخطوطات العربية المتعلقة بالدين الاسلامي وفرضت تسليمها الى السلطات التي كانت تقوم بجلد المخالفين علناً ، وبسجنهم مع الأشغال الشاقـة ، ومصادرة املاكهم . كما منع المسلمون من حمل السلاح ، ومن ارتداء الزي العربي ، أو التكلم بالعـربية أو رقص الزمرة (Sambra) ، الرقصة العربية الـدارجة انـذاك .

وقد وردت في سجلات محاكم التفتيش بعض التفاصيل العجيبـة ، التي تبين مـدى تسلط الحكم ورجال الـدين وعكوفهم على اجتثاث جذور الاسـلام في بلادهم ومحـو الشخصيـة العربيـة فيهـا . والأسـماء التي تـرد في هـذه الأمثلة ، وان كـانت أسـماء اسبـانيـة ، فـإن اصحـابهـا مسلمون كما سنـرى ، اضطروا الى اتخـاذ اسماء اسبـانية لاخفاء شخصيتهم وانتمائهم الديني .

فقد سجنت ليونور هيرنانـدس لانها شـوهدت تـرقب ظهور الهلال في آخر ليلة من ليالي شهر رمضان ، وسجن زوجهـا لأنه ذهب الى أصحـابه يبشـرهم بثبوت الـرؤيا وبحلول عيد الفطر . وسجن غابرييل ماوروتو لأنه شوهد وهو يذبح شاة على الطريقة الاسلامية . وسجنت ماريـا ميـرينو لأنها جمعت من معـارفها الـزكاة لتـوزيعهـا عـلى الفقراء . وفي عام 1538 سجن خوان دي بورغوس في طليطلة لأنه اقام وليمة في منزله وقدم الكسكس لضيوفه ، الذين انهوا السهرة بـرقص « الزمـرة » . وسجنت يوانـا وهي جارية من مالقة لأنها قالت « يا الله » استعـانة بـه سبحانه وتعالى في رفع حمل ثقيل . وسجن آخر لأنه حاول ان يتذكر شيئاً ما غاب عن ذاكرته ، فقال « اللهم صلّ على النبي » . وسجن خوان سييرا عام 1573 لأنه شوهد وهو يغسل رأس ابنه بالماء الساخن ، بعد ان اكره عـلى تعميده ، وذلك بقصد ازالة اثر ماء التعميد من رأسه . وكثيراً ما كان المسلمون يـأخذون أولاداً سبق تعميـدهـم متظاهرين بأنهم أولادهـم . ومن ذلك امثلة كثيرة .

وكـان كلما زاد الضـغط عــلى المسـلمــين ، زادت مقاومتهم ، واتسعت الهوة بينهم وبين النصارى بعـد أن ظلت تربطهم بهم صلات ودية طيلة القرون الطويلة التي كانوا يعيشون فيها معاً في ظل الدولة الاسلامية .

ولما تبين للسلطات انه من غير المعقول ازالة الايمان من صدور المسلمين وغرس عقيدة جديدة في قلوبهم بين ليلة وضحاها ، عمدوا الى انتهاج سياسة اعتبروها أبعد امداً وأكثر تعقلاً وذلك بفضل تأثير شارل الخامس . فصدرت

وتعاظم الضغط على المدجنين بشكل خاص ، أثر غارات القراصنة الاتراك والمغاربة على السواحل الاسبانية ، حيث كان بعض المدجنين يتعاونون معهم ويهربون على مراكبهم الى شمال افريقيا ، ثم يعودون في عمليات انتقامية مع هؤلاء القراصنة . فصدرت اوامر عام 1579 تمنع المدجنين من الاقامة في المناطق الساحلية من الأندلس ، وملاحقتهم اينما كانوا بقصد الصاق اية تهمة بهم لمصادرة اموالهم التي كانت السلطات بحاجة اليها لصد حملات الاتراك ضد السواحل الاسبانية ، والتي كانت تحتاج اليها محاكم التفتيش لتمويل عملياتها التي كانت تقوم بها ليس ضد المسلمين فقط ولكن ايضا ضد اليهود والنصارى الذين جاهروا بآراء تقدمية لا تتفق والتعنت الديني الذي أطبق بفكيه على العقول والقلوب .

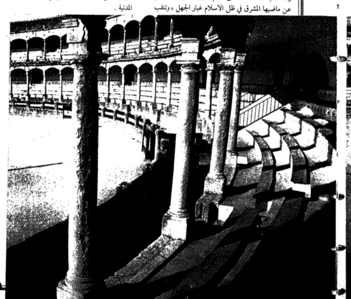


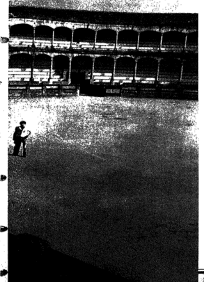


احدى واجهات بوابة طليطلة .

لائحة من الفونسو مانريكه ، الرئيس الخامس لمحكمة التفتيش في اشبيلية ، تحدد ما يمكن للمدجنين عمله وما عليهم الامتناع عنه . غير أن العقاب على المخالفة كان من القسوة ، بحيث أدى الى قيام ثورة المدجنين عام 1569 وهروبهم من المراكز الكبرى التقليدية ، التي كانوا يعيشون فيها ، وبيع املاكهم خوفاً من مصادرتها ، وانتشارهم في أماكن متفرقة في قشتالة وغيرها .

وعبثاً ذهبت الجهود المتكررة لاذابة المسلمين في بوتقة المجتمع الاسباني النصراني . وفي عام 1566 نشرت في فالنسية تعاليم الكنيسة باللغتين العربية والقشتالية تحت عنوان (Doctrina Christiana) ، وشجعت السلطات على التزاوج المختلط ، غير ان الاسبان احجموا عن ذلك بحجة ان دم المدجنين غير نقي .





حلبة مصارعة الثيران في رُنده
وهي اقدم حلبة مصارعة في اسبانيا

وظل الحال على هذا المنوال الى ان جاء فيليب الثالث ، وأصدر امره بطرد المسلمين من اسبانيا عام 1610 كما رأينا .

ظلت اسبانيا تعيش في هذا الظلام الدامس حتى مطلع القرن العشرين . اقامت اثناء ذلك امبراطورية لم تكن تغرب عنها الشمس ، وفقدتها بالسرعة التي قامت بها ، ذلك انها كانت تطفىء ولا تنير ، وتهدم ولا تبني ، وتكره ولا تحب .

ولما بدأ عصر الانفتاح يخيم على العالم في مطلع هذا القرن ، بدأت تصل الى اسبانيا اشعاعات حضارية كان لا بد لها ان تفتح الأذهان التي ظلت منغلقة على الجهل والتعصب ، فانفتحت على العالم تدريجياً . وبدأت تنفض عن ماضيها المشرق في ظل الاسلام غبار الجهل ، وتنقب عن الصروح التي اندثرت بحثاً عن صروح الحضارة التي فشلت هي في اقامتها . فأنشأت المدارس والجامعات ، وبدأ ابناؤها يرون في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ما يشرف ماضيهم ولا يلوثه . ويرون في الوجود العربي في بلادهم طيلة القرون الثمانية وجهة الخير ، وبدأت تنحسر عقد الشك وتنقشع غيوم التعصب ثم بدأت علاقة اسبانيا بالعرب تتسم بالاحترام المتبادل وتقوم بينهما صلات ودية على جميع الأصعدة . بل انك لتجد بين أهل الأندلس اعداداً ضخمة من المثقفين الذين يفخرون بأندلسيتهم وباحتمال انتمائهم العرقي الى العرب . ومن الطبيعي سماع البعض يقول ، إنه لولا الوجود العربي لكانت اسبانيا حتى الآن بلداً خالياً من أي مظهر من مظاهر المدنية .



تراث العرب الحضاري

نشأة الحضارة العربية

لو اننا احصينا عدد الأيام التي مرت على المسلمين خلال القرون الثمانية التي أمضوها في الأندلس ، دون ان يعملوا سيوفهم في رقاب بعضهم بعضاً ، لما زادت في مجموعها عن سنوات قليلة . والسؤال الذي يطرح نفسه على كل دارس لتاريخ العرب في الأندلس هو : ترى كيف استطاع العرب ان يقيموا هذا الصرح الحضاري العظيم في ظل ظروف كهذه ، ناهيك عن جهود الفتح المتواصلة تقريباً ، سواء في شبه الجزيرة الايبيرية أو في ما وراء جبال البرت والجهود التي بذلت في صد محاولات الطامعين بهم من كل حدب وصوب .

فإن آمنا بالمعجزات ، لوجدنا سؤالاً آخر يطرح نفسه أمامنا وهو : اذا استطاع العرب ، بمعجزة ، ان يحققوا كل ذلك ، بالرغم من هذه الظروف ، فيا ترى الى أي حد كان يمكن أن يذهبوا في مسيرتهم الحضارية ، لو انهم احتفظوا بسيوفهم لرقاب أعدائهم فقط ، وكرّسوا طاقاتهم ، جميع طاقاتهم ، في العمل الخلاق ، الذي برهنوا على أنه متأصل فيهم ، بل هو من صلب طبيعتهم وتكوينهم .

وان كان من الصعب ان نجد اجابة بسيطة عن التساؤل الأول ، فليس من العسير أن نتصور وضع العرب في الأندلس ، بل وضع العالم بأسره ، لو تحقق الافتراض الذي يتصور العرب في حالة اتحاد وتوافق وتعاضد ، كما لن يكون من العسير تصور وضع العرب الآن ، في أواخر القرن العشرين ، لو انهم يقفون صفاً واحداً في مواجهة الطامعين والمغتصبين .

ولو أتحنا لخيالنا أن يسرح قليلاً ، وتصورنا مسلمي الأندلس وقد رفرفت فوق رؤوسهم راية الوحدة والتضامن منذ وطئت اقدامهم أرض شبه الجزيرة الايبرية ، لما عجزنا عن تصور زحف عربي حضاري يعم أوروبا بأجمعها قبل ان يصلها نور الحضارة بقرون عديدة ، ولما عجزنا عن تصور العرب يفعلون في بلدان أوروبا ما فعلوه في الأندلس ، وبالتالي لما استطاعت الكنيسة أن تغرق أوروبا في متاهات الجهل والشعوذة ، وتعصب أعين أهلها عن مسيرة التقدم والمعرفة قروناً عديدة ، ولما تجمعت قوات أوروبا تحت شعار الصليب للقضاء على أصحاب الحضارة التي جعلت من الأندلس المشعل الذي ظل يضيء على العالم ويمهد له سبل التقدم والازدهار .

فالعرب كانوا سيقيمون ، كما أقاموا في الأندلس ، الجامعات والمستشفيات والمصانع والمزارع قبل أن تعرفها أوروبا بقرون عديدة . فإن تصورنا ذلك كله ، فلربما تصورنا كذلك ان النهضة الحديثة التي عرفها العالم الغربي كانت ستبدأ ولا شك ، قبل الموعد الذي بدأت فيه بقرون ، ولتغير مجرى التاريخ بأكمله .

واذا أردنا جواباً عن تساؤلنا الأول وهو : كيف تسنى للعرب اقامة ذلك الصرح الحضاري العظيم ، في ظل هذه الظروف ، فعلينا ان نستعرض بايجاز نشأة تلك الحضارة ومظاهرها وأبعادها .

لئن امكن التغلب على صعوبة الايجاز بعض الشيء ، في السرد التاريخي للوجود العربي في الأندلس ، بأن اقتصرت هذه الحكاية على اهم الأحداث فقط،الا ان محاولة الايجاز في عرض الوجه الحضاري لهي اشبه بمحاولة اغتراف كوب من مياه المحيط للتدليل على ماهيته . فإن وردت في هذه الصفحات بعض لمحات ، ليس إلا عن ذلك الصرح الهائل ، فليعلم القارىء أنها مجرد قطر من غيث .

وقبل الشروع في عرض هذه اللمحات الحضارية ، لا بد من القاء نظرة سريعة مرة أخرى على النسيج الذي تكوّن منه المجتمع الاندلسي الذي جاء بهذه الحضارة .

كانت أولى موجات الفتح الاسلامي تتكون ، كما رأينا ، من البربر ، جاءت مع طارق بن زياد ، وأن الموجة الثانية ومعظمها من العرب جاءت مع موسى بن نصير ، وان موجات أخرى بربرية وعربية وفدت الى الأندلس بقصد الاستقرار ، بعد استكمال عملية الفتح . غير ان

البربر ظلوا يشكلون غالبية سكان الأندلس من المسلمين، واستقر معظمهم مجبرين في المناطق الجبلية الشمالية، وأن أجناداً من بلدان عربية مختلفة وفدت كذلك إلى البلاد، واستقرت فيها ثم أتى بعض الحكام بالعديد من الصقالبة الذي ينتمون إلى أصول عرقية مختلفة.

وكان البربر أسرع الفئات امتزاجاً بالسكان المحليين، ذلك أنهم لم يكونوا قد انصهروا في البوتقة العربية تماماً، كما أن قلة منهم ظلت على نصرانيتها، كما يقول بعض المؤرخين، ناهيك عن خلفيتهم ذات الصلة بهذه البلاد ذلك أنهم كانوا يقطنون شبه الجزيرة الايبيرية، قبل أن يطردهم القوط منها إلى الشمال الأفريقي.

ولم تتأخر الفئات الأخرى من الفاتحين كثيراً عن البربر في الامتزاج بأهل البلاد. وتقول بعض المصادر أن عدد الاسبانيات اللاتي تزوجن من الغزاة المسلمين خلال الفترة الأولى للفتح زاد عن ثلاثين ألفا، كانت أولاها أرملة الملك لذريق التي تزوجها أول والٍ للأندلس، عبدالعزيز ابن القائد موسى بن نصير. وقلما توقف هذا التزاوج المختلط، ذلك أن معظم القادمين جاءوا بدون عائلاتهم، مما أدى إلى نشوء أجيال جديدة جرت في عروقها دماء مختلطة، كثيراً ما أتت بنتائج ايجابية، سواء من الناحية الفكرية أو الاجتماعية.

ولم يمض وقت طويل بعد فتح المسلمين لاسبانيا حتى دخل الاسبان بأعداد كبيرة في الدين الإسلامي، إما عن ايمان، أو لمصالح اقتصادية ومعيشية. كما نشأت طبقة أخرى في ذلك المجتمع، وهي فئة الاسبان المستعربين الذين بقوا على نصرانيتهم، وإنْ أخذوا بعادات العرب ولغتهم وثقافتهم، وعاشوا بينهم بحرية واحترام متبادل.

ولقد تساءلنا في مقدمة حكايتنا هذه كيف كان لذلك العربي الأمي الذي جاء من الصحراء. والذي تصلبت يده على مقبض سيفه، أن يصوغ بيده، بعد أن انفرجت عن مقبض سيفه، بعضاً من أجمل ما عرفه العالم من فن، وينطلق من وجدانه أجزل ما عرفه من أدب وشعر، ويتفتق ذهنه عن أرقى ما وصل إليه العالم من علم ومعرفة.

لم يكن في البلد الذي فتحه ذلك العربي الكثير مما كان يمكن له ان يتعلمه . كما ان المرحلة الأولى من وجوده في الأندلس كانت بمثابة امتداد للخط الجهادي الذي بدأ السير به منذ غادر موطنه الأصلي. وكانت مشاعره الدينية المتدفقة ، وروحه الجهادية المتوقدة ، وتحفزه أبداً للمزيد من الفتح وللمزيد من النصر ، عوامل ظلت تسيطر ، قدراً من الوقت ، على عقله وقلبه ، وتجعله في غفلة عن أمور الدنيا الأخرى ، ناهيك عن انه لم يكن يعلم بعد ، ان كان وجوده في هذه الديار الجديدة سيطول ويدوم ، أم انه سيتابع مسيرة الفتح الى اصقاع أخرى .

ولم يدرك ذلك العربي أن الأندلس سيصبح مستقراً له إلا بعد أن اعتلى عبد الرحمن الداخل عرش الامارة ، مقيماً بذلك دولة أموية في الغرب ، بعد أن غربت شمسها في الشرق .

والعربي الذي انطلق من الصحراء ، وفتح بلاد الشام ، وقضى على امبراطورية الفرس ، وقلص من حجم امبراطورية بيزنطة واستولى على مصر ، ثم قفز الى شبه الجزيرة الايبيرية ، بعد معارك في الشمال الافريقي دامت زهاء سبعين عاما ، لم يكن ، في الواقع ، كما يصوره بعض المؤرخين المغرضين من الأجانب ، ذلك الجلف الجاهل المتعطش ابداً للدماء . اذ لو صح ذلك ، لما استطاع مثل هذا ان يقيم في غضون قرن واحد من الزمن، تلك الحضارة الزاهرة التي ما زالت تضيء على البشرية ، ولما استطاع نشر عقيدة ما فتئت تشع على العالم من أقصاه الى أدناه نوراً وهداية .

فالحضارة لا يأتي بها جلف خلا قلبه من مشاعر انسانية، وافتقر عقله الى بذور ثقافية وتاهت عنه خصال النبل والاصالة . فلقد قامت دول وامبراطوريات قبل الامبراطورية العربية وبعدها ، وزالت جميعها دون ان تترك للعالم أثراً حضارياً يذكر . فلا العبرانيون ولا البربر ولا الترك ولا المغول استطاعوا انْ يوقدوا شمعة حضارية

في خدمة البشرية ، ذلك لافتقار هذه الشعوب الى المقومات الأساسية التي لا تقوم حضارة بدونها .

والعربي، حتى قبل الاسلام، كان يتحلى بخصال قلما عرفتها شعوب أخرى ، كان يتسم بالشجاعة والاقدام والنخوة والنجدة والكرم والكبرياء والفروسية الأصيلة ، وهي خصال تنبع من النبل والاصالة وهي من العوامل التي تدفع المرء الى تحقيق المزيد من التقدم والترقي .

ولقد كانت للعرب قبل الاسلام حضارة ، لم تكن دون حضارة الاشوريين والبابليين تقدماً . ولئن حالت ظروفهم الطبيعية والجغرافية دون قيام الكثير من الصروح العمرانية التي تدل ، مادياً ، على مدى تقدمهم الحضاري ، خلاف ما بقي في اليمن ، وما عرف عن حضارته العظيمة وسدوده الجبارة ، إلا أن حضارتهم الأدبية الثقافية كانت راسخة قبل الاسلام بمدة طويلة ، وبلغوا بلغتهم وأدبهم شأوا كبيراً من الرقي والنضج . كما ان اختلاطهم بأرقى امم العالم حضارياً ، من خلال صلاتهم التجارية ، حقق لهم كذلك خلفية ثقافية ، ساعدتهم على استيعاب كل ما استجد عليهم في البلدان التي فتحوها . ولولا ذلك الاستعداد الفطري ، والخلفية الثقافية، لما استطاع ذلك العربي البدوي ان يتقبل ، ولا ان يقدّر ، ولا أن يستوعب المظاهر الحضارية التي شهدها في تلك البلدان .

كما أن العربي البدوي ، ما كان له ان يحقق انتصاراته الحربية المذهلة على جيوش الفرس وبيزنطة النظامية المتمرسة ، التي احترفت الحروب منذ مئات السنين ، وكانت لها مِلاكاتها ونظمها العسكرية المدروسة المجربة، لولا استعداد ذلك العربي البدوي القتالي وشجاعته المتأصلة في نفسه . فقد انهزم العربي ، رغم بسالته ، في اولى اصطداماته الحربية مع الفرس وبيزنطة ،ذلك انه ذهب اليها وهو لا يعلم من فنون الحرب أكثر مما كان يعرفه عندما كان يغزو القبائل المجاورة ، أو يهاجم قوافل التجار أثناء عبورها الصحراء . غير أن خلفيته القتالية سهلت له اقتباس فنون الحرب من اعدائه ، والتعرف الى سلاحهم وأساليبهم القتالية ، وسرعان ما واجههم وبزّهم وحقق ما حقق من انتصارات مذهلة .

ولقد دفع الكبرياء بالعربي ، بعد ان حقق ما حقق من انتصارات حربية باهرة ، الى السعي نحو الارتقاء بنفسه ليصبح بمستوى الانجاز العسكري والسياسي الذي حققه بعد أن اصبحت له امبراطورية امتدت اطرافها من الهند الى المحيط الاطلسي . كما ان اعتزاز ذلك العربي بقبيلته وأمته ما كان ليجعله يقبل بوجود من يَفضُله تقدماً ولا علماً ولا ثقافة . فلقد أصبح سيد العالم ولا بد ان تقوم سيادته لا على السيف وحسب ، ولكن على الكتاب كذلك .

ولقد وجد هذا البدوي في الاسلام ما دفعه الى انتهال العلم ، وسمع نبيه يقول « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » . ورأى مدى ما يكنه أولو الفضل من احترام لأهل العلم وما يفعله قادته تشجيعاً لهم وتقديراً لعطائهم .

ولم يقف اهتمام العرب الفاتحين عند تقبل الحضارة التي سبقتهم اليها الأمم الأخرى التي جاءت قبلهم . بل انهم ما تركوا فرصة تفلت دون الإفادة بها . ولقد اسهم خلفاء المسلمين في ذلك اذ اجتذبوا بكافة الوسائل والطرق، رجال العلم والأدب للافادة من معارفهم، ولو أدى ذلك الى استخدام القوة ، كما فعل أحد خلفاء العباسيين ، الذي أعلن الحرب على قيصر الروم لاجباره على السماح لأحد العلماء المشهورين في بلاده بالتدريس في بغداد. ناهيك بما فعلوه لاغراء العلماء بالمال والجاه، مما جعل هؤلاء يتوافدون من جميع أنحاء العالم على بغداد وقرطبة والاسهام في ارساء قواعد التعليم فيهما .

ولقد حاول بعض المؤرخين المغرضين المتعصبين ايهام العالم بأن العرب ما كانوا إلا مقلدين لمن سبقهم من أصحاب الحضارات القديمة كالاغريق والرومان والفرس وغيرهم ، وبأن الفضل في أساس العلوم الحديثة يرجع الى الاغريق . ولربما كان هؤلاء محقين في دعواهم هذه لو ان العرب وقفوا عند حد الأخذ بما وجدوه من علوم وآداب قديمة . غير أن ذلك ما لم يفعله العرب. نعم لقد أخذ

العرب مما قدمته الحضارات القديمة ، كما أخذت كل حضارة من هذه الحضارات مما سبقها من حضارات . غير ان العرب بنوا على أساس ما أخذوه من الاغريق والرومان والفرس وقدماء المصريين صروحاً علمية جبارة ونقلوا ، من خلال لغتهم ، هذه العلوم القديمة الى العالم ، بعد ان كادت تندثر اثارها لعدم كتابتها بلغة حية عالمية كاللغة العربية انذاك .

وفي اقامة ذلك الصرح العلمي الجبار ، انتهج العرب نهجاً جديداً ، اذ اتبعوا نهج التجربة والاختبار في كل ما وقعت عليه أيديهم من نظريات ، وكل ما استجد لعلمائهم من آراء ، الأمر الذي ساعدهم في تحقيق تلك الاكتشافات العلمية العظيمة في ميادين الكيمياء والجبر والمثلثات والفلك والطب والتعدين . وظلت الكتب العلمية التي وضعها عظماء العلماء العرب ، المصدر الوحيد لتعليم الكثير من هذه المواضيع حتى امس القريب ، بل ان بعض النظريات العلمية ما زالت تعرف بأسماء أصحابها العرب حتى اليوم .

اذاً عندما بدأت تظهر بوادر النهضة العلمية في الأندلس كانت قد سبقتها نهضة علمية أدبية في بلاد المشرق العربي ، شجعت عليها واحتضنتها الخلافة العباسية في بغداد ، بادئة باستقطاب علماء ومترجمين قاموا بترجمة نفائس الكتب الأدبية والفلسفية والعلمية ، من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم بتدريس هذه المواد المترجمة في مختلف المعاهد التي انشئت في بغداد وغيرها .

ويرجع الفضل الأكبر في التشجيع على انتهال العلم في العصر العباسي الى الخليفة المأمون (198-218/813-833) ، الذي يقول ابن النديم عنه انه استلهم هذا الاهتمام ، اثر منام رأى فيه ارسطو يحفزه على رعاية العلم والعلماء ويشجعه على التمسك بمبدأ التوحيد.

وكان أول ما فعله الخليفة المأمون ، ان عمل على توسيع مكتبة دار الحكمة في بغداد ، فبلغت في عهده قمة عظمتها . وكان قد سبقه الى جمع نفائس كتب البيزنطيين والاغريق ، في المواضيع العلمية والفلسفية ، كل من الخليفة المنصور ، والخليفة هارون الرشيد .

وقد جند المأمون افضل المترجمين لنقل هذه الكتب الى العربية ، ومن أشهرهم الفلكي الفارسي ابن نوبخت الذي كان يترجم من الفارسية ، والغزاري ، وهو من أصل عربي ، وكان يترجم من السنسكريتية ، وحنين بن اسحق ، وهو مسيحي من الحيرة ، وكان ابنه اسحق يترجم كذلك كتب الطب من الاغريقية والسريانية ، وثابت بن قرّة الرياضي الفلكي ، وموسى بن شاكر الفلكي وأولاده الثلاثة ، محمد واحمد والحسن وغيرهم . كما أنشأ الخليفة هارون الرشيد ، عند توليه الخلافة ، مستشفى في بغداد ، مستعيناً بطبيب نسطوري اسمه جبرائيل بن بختشوع ، كان رئيساً لمدرسة الطب في جنديشابور . وقد بنيت مستشفيات أخرى عديدة على نسقه فيما بعد .

وهكذا بدأت النهضة العلمية واتسع نطاقها بعد ان جمع العلماء العرب موادها من مختلف المصادر ، وترجموها الى اللغة العربية مضيفين اليها من مكتشفاتهم وتعليقاتهم ، ومستعينين في ذلك ، كما رأينا ، بعلماء من مختلف الأمم ، الى جانب العلماء العرب الذين برزوا على مراحل مختلفة ، ليصبحوا اعلاماً في تخصصهم ، ما زال العالم يستشهد بآرائهم ونظرياتهم حتى يومنا هذا . وأصبحت اللغة العربية هي الوسيلة التي انتقلت بواسطتها العلوم والآداب والفلسفة والمنطق والجغرافيا الى مختلف البلدان .

وظل ركب العلم سائراً في المشرق العربي بنشاط لا يعرف الكلال ، وأصبحت بغداد مصنعاً للعلماء والأدباء والمفكرين ، ومسرحاً لمجادلات فلسفية ، ومناقشات علمية ، اذكت شعلة المعرفة ، وشحذت عقول طلاب العلم والأدب في كل مكان .

مظاهر النهضة الحضارية في الأندلس

بالرغم من العداء المستحكم بين اموي الأندلس وعباسيي بغداد، فإن العهد الأموي مشى مع الركب الحضاري ، الذي كان قد قطع شوطاً كبيراً في مسيرته ببغداد . بل ان الحكام الامويين الأوائل كانوا يتلهفون على

متابعة هـذه المسيرة ، ويتطلعون الى تقصي سيرتها من المسافرين العائدين من المشرق، الذين كانوا يذهبون اما للحج او التجارة او الدراسة .

وكما أن الحاكم في بغداد كان أول من شمل نشأة النهضة العلمية والأدبية برعايته وتشجيعه ، فقد كان الأمر كذلك في الأندلس .

وكان أول من اسهم في ارساء قواعد الانطلاقة الفكرية العلمية في الأندلس عبد الرحمن الداخل ، عندما بدأ في انشاء جامع قرطبة العظيم ، الذي أنشىء للعبادة والعلم ، شأنه في ذلك ، شأن معظم الجوامع التي ابتناها المسلمون في الأندلس ، حيث كان العلماء والفقهاء والادباء يعقدون فيها ، لطلاب المعرفة ، حلقات تدرس فيها مختلف المواضيع .

وما أن تولّى الحَكَمُ الثاني الحكم حتى بدأ يجمع نفائس الكتب ويعمل على استنساخها ، وعلى انشاء مكتبة قرطبة ، التي اصبحت في عهده تضارع مكتبة دار الحكمة ببغداد . كما أخذ يشجع العلماء وطلاب العلم على انتهال المعارف ، ويغدق عليهم الأموال ، لحفزهم على الاستزادة ، فأنشأ في قرطبة مدرسة في كل حي من احيائها ، كما أسس سبعاً وعشرين مدرسة للفقراء ، كان يدفع هو نفقاتها لكي يتيح لجميع افراد الشعب فرص التعليم .

غير ان العديد من الكتب القيمة التي امتلأت بها مكتبة قرطبة وخاصة ما يتصل منها بالفلسفة والمنطق ، احرق أو دفن أو أغرق بأمر من الحاجب المنصور كما رأينا ، وذلك ارضاء لرجال الفقه المتزمتين ، الذين عمدوا الى التشكيك في ايمانه ، وقد عوض بعضها في عهد ملوك الطوائف الذين لم يكونوا يتنافسون في السيادة والانتشار وحسب ، ولكن ، ولحسن الحظ ، في رعاية النهضة العلمية في البلاد .

وكان أول من انجبته النهضة الفكرية الاندلسية المفكر الفيلسوف ابن مسرة الذي توفي عام 931/319 ، وان كان لا يقارن بالكندي المفكر العملاق ، الذي انجبه المشرق العربي قبل ذلك بأكثر من نصف قرن . وكان أهم عمل ترجمة في مجال الطب ، كتاب ديوسكوريدس الطبي ، الذي تلقاه عبد الرحمن الثالث هدية من امبراطور بيزنطة . غير ان عظماء العلماء والفلاسفة الذين برزوا في الأندلس تأخروا حتى القرن السادس هجري / العاشر ميلادي ، كابن طفيل الطبيب الذي الف التحفة الخالدة « حي بن يقظان » وابن رشد الطبيب والفيلسوف العظيم وكاتب التعليق الشهير على أعمال ارسطو ، والطبيب ابو مروان ابن زهر ، الذي اشترك مع ابن رشد في وضع الموسوعة الطبية الشاملة ، والفلكي البطروجي والفيلسوف ابن باجه وابن حزم وغيرهم ممن استقطبتهم الأندلس المنفتحة بعد ان فروا من التعسف الذي بدأت وطأته تشتد على المفكرين المنفتحين في ظل التسلط التركي على الخلافة العباسية .

ولعل أهم ما قدمه الأندلس الى اوروبا على الاطلاق الأرقام العربية ، التي ما زالت تستخدم في جميع أنحاء العالم ، والتي نقلت عن الأرقام الهندية ، بفضل الترجمة التي اضطلع بها رياضيّ المشرق العظيم الخوارزمي ، لكتاب هندسند ، والذي ترجم بدوره من العربية الى اللاتينية ، الأمر الذي أدى الى قيام مدرسة علمية جديدة في أوروبا . تناولت علم الحساب الجديد هذا ، بأعداده التسعة والصفر ، وأصبحت تعرف بالمدرسة الخوارزمية ، وحتى ذلك الحين كان العالم يستخدم الحروف الأبجدية اللاتينية للتعبير عن الأرقام ، مما كان يجعل من الأعمال الحسابية أمراً في منتهى الصعوبة والتعقيد ، خاصة وان اوروبا لم تكن حتى ذلك الوقت تعرف الصفر .

ولقد انتقلت ، بفضل عرب الأندلس وصقلية ، الى أوروبا ، اختراعات واكتشافات عربية كثيرة على جانب كبير من الأهمية في مجالات الفيزياء والكيمياء والميكانيكا ، مما لا يتسع المقام للدخول في تفاصيلها ، وهي معروفة لكل من يهتم بتاريخ هذه العلوم .

ومن أهم المكتشفات التي أخذتها أوروبا عن عرب الأندلس، البوصلة وهي ، وان كانت قد اخترعت اصلاً

في الصين ، فإن تطوير استخدامها في الملاحة جاء بفضل العرب ، ذلك ان مخترعيها لم يستخدموها لهذا الغـرض قط . وقد ادخل العرب كذلك استخدام الاسطرلاب في علوم الفلك ومنهم انتقل الى أوروبا .

كما اهتم عرب الأندلس باستغـلال مناجم الكبـريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . وبرعوا في الدباغة وفي فن تسقيـة الفولاذ الـذي كان يستخـدم في صناعـة السلاح التي اشتهرت بها طليطلة والتي ما زالت تهتم بها حتى الآن .

على أن الحركة العلمية الفكرية في الأندلس لم تقتصر ، بعد ان استتبت جذورها ، وبلغت ما بلغته من زخم ، على الاطار الكاديمي وحده ، بل تعدته الى التطبيق العملي في مجالات متعددة كالطب والجراحة والزراعة والصناعة ، فانشئت مستشفيات ، كانت تجرى فيها عمليات جراحية معقدة ، كما تطور الطب البيـطري ، واستخدم العـرب التلقيـح الاصطنـاعي قبل ان تعـرفه اوروبـا بقـرون . وحققت الزراعة تقدماً ما زال أثره قائماً حتى الآن ، فشقت الترع واقيم نظام ري متقدم ، ما زال يستخدم حتى يومنا هـذا . وادخلت محاصيـل زراعية جـديدة كـالحمضيات والكثير من الخضر كالسبانخ والهليون الى جانب السكـر والقطن والكتان وغيرها كالتوت ، الذي كان يستخدم في تربية دودة القز المستوردة من الصين في انتاج خيوط الحرير وصناعة المنسوجات الحريرية .

وبفضل الانتاج الـزراعي تطورت صنـاعة الانسجـة القـطنية والكتـانية والبسط الصـوفية والجلود المـدبـوغة والورق ، الذي كان له أعـظم فضل في انتشـار الثقافة العربية في البلدان الأوروبية ، نظراً لانخفـاض تكاليفـه قياسا الى ورق البردي والحرير اللذين كانا يستخدمان في الكتابة حتى ذلك الوقت . ولئن كان الصينيون هم أول من اخترع الورق ، فإن ورق الصين كان يصنع من شرانق دودة القز ، التي تستخدم في استخراج خيوط الحـرير . وكانت قد أدخلت هذه الصناعة الى مدينة سمرقند قبل فتح العرب لها . فاقتبس العرب طريقة الصينيين في صنع الورق ، واستخدموا القطن في ذلك بدلاً من الشرانق التي لم تكن تنتج في بلادهم ولا في أوروبا . ثم طور العرب هذه الصناعة باستخدام السمال والنفايات ، فاستطاعوا انتاج ورق ، بتكاليف منخفضـة ، محدثـين بذلـك ثورة صناعية علمية لم يسبق لها مثيل .

ولقد سبق العرب اهل اوروبا في هذه الصناعة بما لا يقل عن قرن من الزمن ، حيث ان اقدم مخطوطة معروفة في أوروبا مكتوبة على هذا النوع من الورق يرجع تأريخها الى عام 1270 م ، وهي عبارة عن رسالة بعث بها جوانفيل الى الملك سان لويس قبل وفاته ، أي بعد حملته الصليبية الأولى الى مصر ، في حين ان في برشلونة مخطوطة لمعاهدة السلم المعقـودة بـين الاذفونش الثـاني ملك ارغـونـة والاذفونش الرابع ملك قشتاله بتاريخ 1187 م وقد كتبت على ورق صنع في مصنع شاطبة العربي . كـما استخدم الورق في طباعة أوراق النقود وورق اللعب الذي عرفته اوروبا ، فضلاً عن لعبة الشطرنـج والضامـة من خلال عرب الاندلس . كما نشأت صناعات اخرى كالصابون والـزجاج المـذهب والجلود المطرزة والمـذهبة والمفضضـة وصنـاعة الخشب المـطعّم بالصـدف والعـاج والنحـاس المزخرف والفخار .

وقد عم الأندلس ازدهار اقتصادي عظيم جعل موانئه التجارية كاشبيلية ومالقة وفالنسيا ودينيـا والمريـة تزدحم بالسفن القادمة من المشرق ، المحملة بالأقمشة الدمشقية وبـالبهارات الشـرقية وغيـرها لتعـود بمنتجات المصـانـع الأندلسية من البسط الصوفية والفراء والأغطية والمطرزات والخـزف والمجـوهـرات والجلود المـدبـوغـة والأسلحـة الطليطلية الشهيرة وما الى ذلك .

ولقد كان العرب أول من استخدم المدافع في الحروب بأوروبا . فقد صنع الأندلسيون قنابل من البارود الذي اكتشف اصلاً في الصين ، واستخدموها في حروبهم ضد الاسبان في بازا عام 1325 م . وفي اليقنت عام 1331 ، وفي الجزيرة الخضراء عام 1342 ، وفي معركة كريسي عام 1346 . وكانت هذه المدافع تثير الرعب والفزع في قلوب الأعداء الذين وصفوها بفوهات الشيطان . ومن غريب ما

ذكره المؤرخ رشيد الدين ، ان القائد المغولي كوبلاي خان كان قد استعان بالعرب عندما كان يحاصره الصينيون في مدينته فان تشينج ، فأوفد اليه حليفه السلطان العربي مهندسين من العرب ، صنعوا له سبع آلات كبيرة تطلق السهام عند انفجار البارود ، مما ساعد في فك الحصار عن المدينة عام 1233 م . ومن الواضح ان اهل الأندلس ، قد أخذوا هذه التكنولوجيا عن المشرق العربي .

أما في الميدان المعماري ، فقد حلق أهل الاندلس كما لم يحلق أحد في العالم انذاك ، وإن تلك الاثار اليسيرة التي لم يعف عليها الدهر ، ما زالت تقف شاهداً على ذلك النبوغ الهندسي الفذ والذوق الرفيع الذي بلغه هذا الفن ابان الحكم العربي هناك ، كقصور الحمراء في غرناطة ، وجامع قرطبة الكبير ، ومنارة الخيرالدا في اشبيلية ، أو بعد سقوط المدن الأندلسية تباعاً في يد الاسبان ، الذين استَبْقَوْا المهندسين والبنائين وعمال الزخارف العرب لبناء قصورهم كقصر اشبيلية الشهير .

ونرجع هنا الى تساؤلنا الذي أوردناه في مقدمة حكايتنا عن ذلك العربي وكيف كان له ، وهو الذي لم تعرف يده سوى مقبض السيف ، ان يقيم تلك الصروح العمرانية التي ما زال العالم يدهش لها حتى يومنا هذا .

مما لا شك فيه ان العالم الذي انتشر فيه الاسلام ، كان يتمتع بحضارة متقدمة جداً ، ان كان في بلاد الهند أو بلاد الفرس ، أو في البلاد السورية او العراقية ، أو التركية ، وان تلك الحضارات كانت تتفاعل في ما بينها ، وتتفاعل مع ما عرفته الامبراطورية البيزنطية من اتجاهات حضارية متقدمة . ولما جاء الاسلام ، ووحّد بين سكان هذه البلاد عقائدياً ، وفرض لغة القرآن عليهم ، انصهرت مواهبهم ومعارفهم الفنية في بوتقة واحدة ، من خلال وحدة اللغة ووحدة المعتقد .

ولم يرفض العرب الذين جاءوا بمعتقدهم السماوي ، تراث الشعوب الأخرى في المناطق التي بسطوا عليها سلطانهم ، سواء من اعتنق منهم الاسلام أو من بقي على دينه . اللهم إلا في ما يتعلق بالنحت وخاصة نحت الشكل البشري وذلك لاسباب معروفة . بل ان العرب شجعوا أصحاب الفنون والعلوم ، الذين بدأ يأخذ الواحد منهم من فنون الآخر ، مما أدى الى اثراء النتاج الفني والهندسي والمعماري والزخرفي ، والى خلق مزيج ، راح يأخذ طابعاً متشابهاً من حيث التعبير والشكل ، أصبح يعرف بالفن الاسلامي ، وان ظلت هنالك بعض الصفات العامة التي ميزت ، وبصورة شكلية ، بين فنون المناطق المختلفة ، كشكل المآذن وزخرفها ، والخطوط العربية وغير ذلك .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على اتساق الفن الاسلامي ، ان الاسلام لم يجعل فرقاً بين الفن المعماري الديني والمدني ، وبالتالي ، لم يفرض طابعاً خاصاً من الفن لغرض معين ، مما أدى بالفن الاسلامي لأن يصبح ديناميا من حيث نوعيته وانتاجه ، على نحو اتاح له ان يتفاعل مع الطاقات الفنية التي برزت حتى بين السكان غير المسلمين ، لا بل ان يستوعبها . فأسهمت هذه الفئات اسهاماً نشطاً في تطور الفن الاسلامي دون ان تغير من جوهره .

وكان للحركة التجارية التي نشطت بين مختلف أجزاء الامبراطورية الاسلامية، أكبر الأثر في تعريف أصحاب الفن في بلد ما بفنون البلدان الأخرى ، مما أدى الى التقليد ثم الاقتباس فالاندماج .

رأينا اذاً كيف استطاع ذلك البدوي القادم من الصحراء ان يستغل ذكاءه الفطري ، ومقومات شخصيته الفذة ، في تقبل مظاهر الحضارة التي وجدها حوله ، ثم في اقتباسها وهضمها وصقلها وصهرها في بوتقة تقاليده وخلفيته ، وكيف انه جعل من ذلك كله ، الأساس الذي أقام عليه صرحه الحضاري العظيم .

ورأينا أيضاً كيف ان أهل الأندلس تفاعلوا مع عطاء أهل المشرق الفني والأدبي والعلمي وجعلوا من هذا العطاء أساساً اقاموا عليه صرحهم العظيم الذي أضاء ظلمات العالم آنئذ ، فجاء قوياً في محتواه ، ورقيقاً في مظهره ، نمّ عن قوة الشخصية ورقة الشمائل .

وتراث أهل الأندلس ، كتراث أي شعب من شعوب

الأرض ، جاء مرآة لتاريخهم وشخصيتهم وظروفهم . والدارس لتراث أهل الأندلس المعماري يستطيع ، من دون عناء كبير ، أن يدرك الأطوار المختلفة لتاريخ الأندلس ، مما خلفه أهله من تراث .

والحديث عن فن العمارة يطول ، ولا مجال له في هذا الكتاب . كما أنه لا مجال للخوض في موضوع الأدب الأندلسي ، ذلك ان البحث فيهما يتطلب مجلدات ومجلدات .

غير أنه من غير المعقول الا نطل ، في عرضنا هذا ، على هذين الجناحين العظيمين من الصرح الاندلسي ، وإن بصورة عابرة . وسنقتصر في اطلالتنا على الجناح الأدبي ، على استعراض مجموعة من الشعر الأندلسي الذي قيل في مختلف المناسبات ، نختتم به هذه الحكاية ، حكايتنا في الأندلس .

أما جناح فن العمارة ، فستكون زيارتنا له من خلال الصورة . وفي هذا الصدد قال المؤرخ الكبير غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) ، « . . . ولا نرى غير طريقة واحدة لوصف الآثار الماثلة ، وهي عرض صورها . فصور البانتيون والحمراء وافروديت أولى من مجموعة الكتب التي وضعها جميع مؤلفي العالم لوصفها ، ولقد أصاب من قال ، ان صورة متقنة خير من مائة صفحة في الوصف ، وليس من المبالغة أن يقال ، انها خير من مائة مجلد » .

قال غوستاف لوبون ذلك قبل قرن من الزمن ، ويحتوي كتابه « حضارة العرب » على 363 صورة و 10 لوحات .

وايماناً مني بقيمة الصورة في مثل هذا المجال ، واجلالاً مني لروائع فننا العربي الخالد ، رأيت ان اسهم بعدستي ، املاً في أن افي هذه الروائع بعض حقها ، فأعطي للقارىء صورة بصرية واقعية لبعض نواحي العبقرية الفنية ، التي تتجلى في الصروح المعمارية التي اقامها العرب في الأندلس ، والتي طالما عجزت اقلام العباقرة عن وصفها وظلت حتى يومنا هذا تقف حيالها برهبة واجلال ، غير قادرة على اعطاء صورة ذهنية وافية ، تتيح للقارىء تصورها على حقيقتها بما فيها من تناسق ورشاقة وحساسية وشاعرية وجلال .

ولقد التقطت أثناء زياراتي المتكررة للأندلس الافاً من الصور ، اخترت منها ، لضيق المجال ، مجموعة صغيرة ، وقصرت اختياري على أهم الآثار والمواقع ، التي سنقوم بزيارتها معاً بعد اطلالتنا على الجناح الأدبي .

الشعر الأندلسي

العرب صاغة الكلم
والشعر اجمل جواهرهم
والشعر العربي احلى شعر عرفه لسان البشر
فلا عجب ان يحب العربي شعر قومه
فهو يسكر لسماعه ، ويسكر لإنشاده ،

يقوله ان احب
ويقوله ان كره ،

يقوله ان مدح
ويقوله ان هجا ،

يقوله ان انتصر
ويقوله ان انكسر ،

يقوله ان افتخر
ويقوله ان تذلل ،

يقوله ان فرح
ويقوله ان حزن ،

يقوله في كل مناسبة
ويقوله بلا مناسبة ،

فهو جزء منه ، من حياته ، من ماضيه ومن حاضره بل هو كذلك من مستقبله . واينما ذهب العربي ، أخذ معه جزءاً من وطنه ، من ثقافته ، من تاريخه من تقاليده وعاداته . وعندما ركب العربي صهوة جواده منطلقاً الى الجهاد في الأندلس ، حمل معه كل هذه الأشياء ، الى

جانب ايمانه بالرسالة التي وهب حياته لنشرها في العالم ، رسالة الحق والتوحيد .

ومن الطبيعي ان يحمل ذلك العربي معه الشعر الذي اعتاد سماعه وانشاده . ومن الطبيعي ان ينشد في موطنه الجديد على نحو ما كان ينشد في موطنه الأصلي . ومن قال ان عرب الأندلس كانوا مقلدين لأهل المشرق في كل شيء بما في ذلك الشعر، فلربما صح ادعاؤه بالنسبة الى اولى فترات الاستقرار فقط . ذلك ان حياة اهل الأندلس في وطنهم الجديد كانت امتداداً ، لا أكثر ، لحياتهم في موطنهم الأصلي . فلما تطورت حياتهم الجديدة في وطنهم الجديد ، بفضل الظروف السياسية والعسكرية والمعيشية والاجتماعية التي عاشوا في ظلها ، وبفضل اختلاطهم بأجناس جديدة من البشر ، بما لها من ظروف معيشية واجتماعية خاصة كانت جديدة عليهم ، تأقلموا في البيئة الجديدة وتطور اسلوب التعبير والتفكير ، وتطور بالتالي الشعر الأندلسي ، ليتخذ طابعاً خاصاً ، يعكس ، فيما يعكس ، سعادة الأندلسي بحياته الجديدة ، في وطنه الجديد ، بخيراته العميمة ، وبجوه المعتدل ، وطبيعته الشاعرية ، ووداعة من عاشر من أهل البلاد ممن اندمجوا في البيئة العربية .

ولهذه الأسباب ، كان الشعر في المراحل الأولى مطابقاً للشعر المشرقي التقليدي في شكله ومضمونه ، وان تطور المضمون حسب الاطار الفكري الذي خلقته البيئة الجديدة ، كوصف جمال الطبيعة الخلابة ، والتعبير عن الحنين الى بلد الاجداد .

ومع تطور النهضة العلمية في البلاد تطور نوع جديد من الشعر هو الشعر العلمي، ثم عندما بدأت تتساقط الممالك والمدن في يد الأعداء تطور نوع جديد آخر من الشعر ، هو شعر الاستغاثة بالمسلمين في المغرب وغيره لنجدتهم ضد أعدائهم النصارى .

ولعل أكثر ما يميز الشعراء الأندلسيين عن غيرهم من الشعراء العرب ، رقة الفاظهم وعذوبتها وسهولتها وشفافيتها ، فكلماتهم تقع على الاذن خفيفة ناعمة ، وتتسرب الى اعماق النفس بحنان ورفق . ولربما رجع ذلك الى طبيعة البيئة التي تحيط بهم ، بما تميزت به من اعتدال وما زخرت به من خضرة ومياه فياضة عذبة .

ومن الطبيعي ان تفيض قرائح الشعراء ، في مثل هذه البيئة الخلابة ، بأرق قصائد الغزل والحب واحلاها ، سواء كان غزلاً حسياً أو تعبيراً عن مشاعر وجدانية حقيقية . ولا بد هنا من الاشارة الى الجمال البشري الذي اكتشفه العرب بين اهل البلاد ، الذين كانت تجري في عروقهم دماء مختلطة ، يونانية ورومانية وجرمانية وبربرية وقوطية ، فبهرهم جمال نساء اسبانيا الشقراوات واوحى اليهم بالكثير من الشعر الرقيق .

أما أكثر انواع الشعر الأندلسي شهرة والذي يميزه عن غيره تماماً فهو الموشح الذي ابتكره اهل الأندلس في اواخر القرن الثالث الهجري وظل حكراً عليهم ، يغنونه في امسياتهم ، فرادى وجماعات ، بل انه نظم أصلا من اجل الغناء ، وبالتالي كان الموضوع الأساسي الذي تناوله الموشح هو الغزل اصلا ، وان نظمت موشحات كثيرة في مواضيع مختلفة كالمدح والتصوف وما الى ذلك .

الموشح والغناء

ولا بد لنا من وقفة هنا ، نعرض فيها بايجاز لهذا اللون الشعري الذي ابتدعه اهل الاندلس ، واصبح أشهر ما عرف به الأندلسي على الصعيد الأدبي ، وهو اللون الشعري الذي تواكب في تطوره مع فن الغناء فغذاه بالكلمة واستلهم منه الشكل التعبيري .

يرجع تاريخ الموشح الى اواخر القرن الثالث الهجري . ويكاد يجمع المؤرخون على ان رائد الموشح هو الشاعر الضرير مقدم بن معافي ، الذي كان يسكن (قبرة) بجوار قرطبة ، في عهد الاميرين عبدالله وعبد الرحمن الثاني ، في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجري ، التاسع / العاشر ميلادي . غير ان اعمال هذا الشاعر اندثرت كما اندثرت اعمال بعض من خلفه مباشرة في هذا المضمار ، ولعل ذلك يرجع الى ان موشحاتهم لم تكن قد بلغت مستوى النضج بعد ، ولأن الشعراء

الكلاسيكيين ، أي شعراء الفصحى ناصبوا هذا اللون من الشعر العداء قبل ان يشب عن الطوق وتنفذ جذوره الى اعماق المسيرة الأدبية .

ولعل الفضل في ارساء قواعد هذا اللون الشعري يرجع الى ابي بكر عبادة بن ماء السماء في عصر الطوائف ، ثم الى ابن رافع ، ثم الأعمى التطيلي ، ويحيى بن بقي ، وأبي بكر الأبيض ، وأبي بكر بن باجه وغيرهم ، كابراهيم ابن سهل الاسرائيلي الذي برز في القرن السابع الهجري ، ولسان الدين الخطيب ، في القرن الثامن ، ثم ابن زمرك ، وزير محمد الخامس بن الأحمر ، وأبي يحيى بن عاصم في القرن التاسع .

ونظراً للعلاقة العضوية بين الموشح والغناء ، فقد كان من الطبيعي ان يركز الموشح بادىء ذي بدء على الغزل ، ولما كان الغناء يتم في نطاق مجالس الشراب واللهو ، أصبح الموشح يتناول وصف هذه المجالس ، ويتطرق الى المجون وما يتصل بذلك ، ثم اصبح يقال في مجالات اخرى كالمدح والهجاء والتصوف والزهد .

ونظراً لسلاسة اسلوب الموشحات وبساطة تعابيرها ووضوح ايقاعها الموسيقي ، ولكونها ، كما قال اميليو غارثيا غوميث ، « الصوت القادم من السوق » فقد اجتذب بالاضافة الى عامة الشعب من العرب المولدين والمستعربين ، الذين لم يقتصر اهتمامهم بها على الاستماع والتقدير ، بل تطور الى المشاركة في النظم والغناء في مجالس مشتركة ، كانت تجمع بين محبي الموشح والغناء مهما كان مذهبهم. وكان من الطبيعي ، ازاء ذلك ، ان يُضمّن الشعراء مفردات وتعابير أعجمية في صميم الموشح وخاصة في الخرجة ، وهي القفل الاخير من الموشحة ،رغم أن كثيراً من هذه الخرجات الاعجمية سقطت من معظم الدواوين لصعوبة استنساخها انئذ ، وحلت محلها خرجات عربية ، عامية وفصحى .

ومن الوان الشعر الأخرى التي ابتدعها أهل الأندلس ، فن الزجل ، الذي اشتهر في عهد المرابطين على يد زجال الأندلس الشهير ابي بكر بن قزمان . ويمكن القول بأن الزجل جاء وليداً للموشح ، الذي تعشقته العامة لسلاسته ، وحلو كلامه ، وتصويره للحياة العادية اليومية ، وصياغته السهلة البعيدة عن التكلف والتنميق ، فنسجوا على منواله بلغتهم العامية ، دون التقيد بقواعد الاعراب ، وسموا هذا النتاج الأدبي بالزجل .

ولئن كان أهل المشرق لا يلمون كثيراً بهذا اللون من الأدب الأندلسي ، لورود تعبيرات عامية كثيرة فيه ، غير معروفة في المشرق ، إلا أن أهل المغرب العربي يعرفونه ويستمعون اليه ويواظبون على احيائه ، وهو مفهوم لديهم ، ذلك ان الكثير من تعابيره العامية لا يزال يستخدم في بلادهم ، بفضل هجرة معظم أهل الأندلس الى بلاد المغرب بعد خروجهم منه .

ويشيد مؤرخو الأدب الأندلسي الأجانب مثل ، خوليان ريبيرا ، واميليو غارثيا غوميث ، وليفي بروفنسال ، بهذا اللون الادبي على انه شعر صادق اصيل جاء من صميم وجدان افراد الشعب ، وعبر عن ابسط الاحاسيس التي تختلج في صدورهم .وقد اعتبر هؤلاء الشاعر ابن قزمان شاعر الأندلس الأول ،وواحداً من المع شعراء العصور الوسطى ، في أي لغة من اللغات المعروفة انذاك ، وقالوا انه يقف على قدم المساواة مع أي من شعراء العرب قاطبة . أما المواضيع التي تطرق اليها الزجل فلم تكن تختلف في جوهرها عن المواضيع التي تناولها الموشح .

ومن الجدير هنا ان نعرض لأثر الموشح والزجل في فن الغناء الأندلسي ، وتأثير البيئة المحلية الثقافية وغيرها عليهما من حيث الشكل والموضوع .

وقبل الخوض في ذلك لا بد لنا ان نعرض للمؤثرات اللغوية والتفاعلات التي حدثت بين اللغات المتداولة بين السكان انذاك .

فاستناداً الى كتابات ابن القوطي ، والى ما ورد في تاريخ قضاة قرطبة للخوشاني ، وغير ذلك من المصادر ، استطاع المؤرخ الاسباني خوليان ريبيرا ان يخرج باستنتاجات حول انتشار اللغة الرومانسية بين عرب الأندلس ، وهي لغة مشتقة من اللاتينية ، اتخذت اشكالاً مختلفة في مناطق

مختلفة من شبه الجزيرة الايبيرية ، الى ان تبلورت ، في آخر المطاف ، على النحو الذي اصبحت عليه اللغة الاسبانية . وقد خلص ريبيرا الى أن عرب الأندلس كانوا يتقنون اللغتين العربية والرومانسية ، ويتكلمون بهما بطلاقة متساوية ، وانهم ظلوا كذلك حتى عهد الموحدين ، والى حد ما ، حتى بعد ذلك ايضاً .

وقد افترض ريبيرا ايضاً ان المام العرب باللغة الرومانسية لم يقتصر على المحادثة فقط . فقد كانوا ينظمون ويغنون بالرومانسية كما كانوا ينظمون ويغنون بالعربية ، بل انهم كانوا احياناً يعبرون ، فيما ينظمون ، باللغتين معاً في القصيدة الواحدة .

ويقول المؤرخ الاسباني المعاصر اميليو غارثيا غوميث ، ان التيفاشي ، الذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي يقول نقلاً عن ابن سعيد ، عن ابن دريدة عن ابن حسيب ، ان اهل الأندلس كانوا ، في اوائل العهود ، يغنون على طريقة النصارى ، أو على طريقة حداة الابل .

ولما توطدت اركان الدولة الاموية ، وبدأت بوادر النهضة الثقافية الأندلسية تتبلور ، في عهد عبد الرحمن الثالث ، وما اعقب ذلك من انشاء مكتبة قرطبة العظيمة ، في عهد الحكم الثاني ، ثم انتشار الثقافة العربية واللغة العربية بين الاسبان المستعربين ، بدأ التفاعل الثقافي واللغوي بين العرب والمستعربة يتخذ شكلاً محلياً ، حين تداخلت اللغتان العربية العامية والرومانسية، واصبحت تستعير الواحدة منهما مفردات الأخرى ، الى ان اصبحتا بمثابة لغة تداول يومي تكاد تكون واحدة بين الفئتين ، سرعان ما استخدمت في نظم الموشح والزجل ، اللذين كانا يشكلان المادة التي قام عليها الغناء بالدرجة الأولى .

ولما كانت كلتا الفئتين تنظم وتغني بلغة مشتركة ، فقد كان من الطبيعي ان تأخذ كل فئة من الفئتين الشكل الموسيقي الذي كان معروفاً لدى الفئة الأخرى . ولما كان الشكل الموسيقي العربي أكثر تطوراً وتقدماً من الشكل القوطي البدائي ، حتى منذ بداية العهد الأموي ، وخاصة بعد وفود زرياب ، وما احدثه من ثورة تجديدية في صياغة النغم وفن العزف والغناء ، فقد طغى الشكل الموسيقي العربي على نظيره القوطي ، وظل أثره قائماً على الجمل الموسيقية التي ما زالت متداولة في الغناء الأندلسي حتى الآن .

وكان الشكل الموسيقي الذي مارسه الموسيقيون الأندلسيون العرب ، بقدر كبير من الالمعية ، حسبما ورد في بحوث ريبيرا وغيره ، هو « النوبة » ، وهي عبارة عن سلسلة من الاغاني المجمعة في حركات موسيقية مختلفة حسب ترتيب مقرر ، مؤلفة بأسلوب موسيقي واحد . وقد بلغ عدد النوبات أصلاً اربعاً وعشرين نوبة حسب عدد ساعات اليوم الواحد . غير ان عدداً منها اندثر اثره لسوء الحظ ، كما ان ما بقي منها ليس بكامل .

والنوبة ، حسبما ورد في هذه البحوث ، شكل موسيقي معقد ، يخلو من التعبيرية الدينامية ، تتزايد الحركات الموسيقية فيه بصورة مطردة ، ابتداء من منتصف النوبة حتى نهايتها . وتشتمل النوبة على عنصرين موسيقيين مميزين ، هما اللحن الآلي والصوتي ، والايقاع . وثمة عدد متباين من الألحان تسبقها مقدمة موسيقية آلية . ويقحم في النوبة نوع آخر من الغناء هو « الموّال » .

وثمة نوع آخر من الأغاني ، يعرف بالانشاد ، يستخدم في بعض الاحيان كمقدمة ، وقد استخدم في وقت من الأوقات في الربط بين مختلف الحركات . ويبدأ بعد المدخل ، في واحد من أشكال المقدمة ، اداء السلسلة الغنائية حسب نظام ايقاعي مخطط . والايقاع ، الذي يتسم دائماً بالتعقيد هو العنصر الذي يميز كلاً من الأجزاء الخمسة التي تتكون منها النوبة ، والتي تسمى حركات النوبة بأسمائها وهي : البسيط ، والقائم والنصف ، والبطيحي ، والدرج وقدام .

ويرجع الفضل في كتابة القواعد التي تحكم أداء النوبات وأسلوبها الى ذلك الموسيقي العبقري زرياب ، الذي تتلمذ على اسحاق الموصلي في بغداد ، وقدم في

الظروف التي نعرفها الى الاندلس في عهد عبد الرحمن الثاني . وبالاضافة الى وضع هذه القواعد ، التي اضفت على الفن الموسيقي طابعاً علمياً ، اسس زرياب في قرطبة معهداً موسيقياً أشبه بما يعرف الآن بالكونزيرفاتوار ، بدأ على نسق مدرسة اسحاق الموصلي في بغداد ، ثم اتخذ نهجاً جديداً قائماً بذاته فيما بعد .

ولقد عمل زرياب على ادخال أغان شرقية قديمة ذات اصول اغريقية ـ فارسية ، كانت بمثابة القالب اللحني الأصيل للموسيقى الأوروبية التي كانت معروفة قبل تلك العصور ، كما انه اضاف ، كما نعلم ، وتراً خامساً الى اوتار العود .

واذا نظرنا الى موقع الموسيقى العربية الأندلسية ، من حيث مضمونها التاريخي ، وجدنا ان العرب كانوا أول من اعاد الكشف عن النظريات الموسيقية الاغريقية وتمثيل هذه النظريات واثرائها . كما ان اثر هذه الموسيقى على أوروبا في العصور الوسطى ، كان أكثر عمقاً وأهمية مما يعتقده الناس عموماً .

فقد كتب بين القرنين التاسع والثالث عشر ميلادي ما يقدر بنحو مائتي بحث موسيقي لبعضها أهمية عظمى . وقد عرفت اديرة أوروبا الرئيسية هذه البحوث ودرستها . وأدت الآثار الفنية ، التي خلفها واضعو النظريات الموسيقية من العرب ، الى بذر بذور الموسيقى الأوروبية ، كما يتبين من الترانيم الرومانسكية الأولى التي عرفتها اسبانيا النصرانية وجنوب فرنسا ، كما يتبين من تطور الموسيقى الدينية فيهما . ويتضح هذا التأثير كذلك من عدد الآلات الموسيقية التي اصبحت متداولة بصورة اعتيادية في أوروبا ، والتي يرجع بعضها الى اصول شرقية وفارسية ، كالعود والقانون والربك ، في حين يرجع البعض الآخر الى اصل اغريقي ، كالأرغن .

وقد شاع الشكل الشعري المعروف بالموشح ، والشكل الشعري الذي عرف بالزجل ، شيوعاً عظيماً خلال القرون الوسطى ، عندما اصبحت جنوب اوروبا تأخذ بأسلوب الحياة في قصور حكام الأندلس ، وخاصة بروفانس بفرنسا ، حيث بدأت تظهر اولى بوادر الترف واداب الفروسية ومظاهر التقدم الاجتماعي في بلاط الحاكم ، وانتقلت اليها الموسيقى العربية الأندلسية وآلاتها بفضل التروبادور ، الذين كانوا يتنقلون من بلد الى آخر في جميع انحاء اوروبا النصرانية .

ويشير مؤرخو الموسيقى العربية والأوروبية في العصور الوسطى الى وجود أشكال من الزجل الأصيل في بعض أعمال الكثير من التروبادور القدامى ، مثل جيوم دي بواتييه (Guillaume de Poitiers) وآدام دي لا آل (Adam de la Halle) وجيوم دي ماشو (Guillaume de Machaut) منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي . كما ظهر الزجل في ايطاليا ، لأول مرة في احدى قصائد جاكوبوني داتودي (Jacopone da Todi) ، احد اتباع القديس فرانشيسكو دي أسيسي (St. Francesco D'Assisi) وانتشر العديد من الأعمال الشعرية في القرون الرابع عشر الى السادس عشر.

وقد أنشأ الملك الفونسو العاشر (Alfonso X) (الحكيم) (1230-1284) في اسبانيا النصرانية بلاطا ازدهرت فيه ارفع عناصر الحضارة العربية ، كما أنشأ معاهد تعليمية ، درست فيها مادة الموسيقى الى جانب الرياضيات والفلك والهندسة ، حسب ما كان يعمل به في مراكز الدراسة العربية . ومن بين المؤلفات التي تتكون منها مجموعة الفونسو (اناشيد القديسة مريم) (Cantigas de Santa Maria) وعددها 417 انشودة ، بلغ عدد ما صنف منها على انها تنتمي الى اصول زجلية 335 انشودة .

وتشكل الرسوم الدقيقة التي زخرفت بهاعناوين أناشيد دي لور (Cantigas de Loor) مصدرا ثميناً لدراسة الآلات الرومانسكية والقوطية والعربية ، إذ انها تظهر عدداً من الموسيقيين العرب ، يعزفون على الطبل والعود والبوق والقانون والغائطة والكمنجة والرباط والدربكة .

وتقسم الآلات الموسيقية العربية الأندلسية الى أربعة اقسام هي :

1 ـ الآلات الوترية ذات القوس ، ومنها الكمنجة (أو الكمان) والربابة .

2 ـ الآلات الوترية التي تعزف بضرب الوتر ، ومنها العود والقترة والطنبور والبزق والقيثارة والجنك (وهو هارب عربي من اصل فارسي) والمعزف والقانون والسنطور (وهو نوع من القانون) .

3 ـ آلات النفخ ، ومنها الارغن والشبّابة والغائطة (وهي مزمار القربة) والمزمار والناي والشاهين (القصبة) والسرناي أو الدوناي (وجاء من الهند وبلاد الفرس) والزمر (المجوز) .

4 ـ آلات الايقاع ، ومنها البندير والدف والدربكة والقصبة والحلة والجلاجيل والقراقب والصنج والزيل والطبل والطار والطرنية والطرية .

ولقد رأينا مما تقدم ، ومن الآلات الموسيقية التي استخدمها العرب في الأندلس ، ان الموسيقى العربية ، تأثرت بما سبقها من موسيقى الحضارات التي عرفها العالم قبل العرب ، كالموسيقى الاغريقية والفارسية والهندية ، وان العرب وضعوها في قوالب تقوم على قواعد علمية اصيلة ، وان هذه الموسيقى العربية قد تفاعلت مع غيرها من فنون الموسيقى المعاصرة ، كالموسيقى الفارسية والبيزنطية والقوطية ، وصهرتها في بوتقة فنية جديدة ، تفاعلت معها ، وأخذت منها وأعطتها ، ووضعت حصيلة ذلك التفاعل في قوالب موسيقية تقوم على أسس علمية لا تقل في دقتها وعمق مفاهيمها عن أي علم من العلوم التي انكب العرب على النهوض بها ضمن مسيرتهم الحضارية الوضاءة .

ورأينا كذلك كيف ان البحوث العلمية الموسيقية نقلت فن الموسيقى العربية الى أوروبا وأثرت موسيقاها ، من خلال الأديرة ، التي عكفت على دراستها والتعمق في أصولها ، حتى في الموسيقى والترانيم الدينية ، وكيف انها وصلت الى بلاط الأسر الحاكمة بفضل التروبادور المتنقلين ، وأصبحت من مظاهر الترف والحضارة في قصور الحكام والملوك .

فاذا كان هذا أثرها في الاصقاع البعيدة عن المجتمع الأندلسي ، فلنا ان نتصور مدى تأثيرها في البيئة التي نشأت فيها هذه الموسيقى وتطورت. واذا ما أخذنا بعين الاعتبار، ان لغة الغناء كانت اللغة المتداولة في المجتمع الاندلسي بشقيه العربي والاسباني ، وبمشاركة من افراد هذين الشقين معاً ، وبأن اللحن الذي غني به الموشح والزجل تأثر ، ولو الى قدر محدود ، باللحن المتداول بين السكان الأصليين ، وأنه اثر ، الى حد بعيد ، في الذوق الموسيقي لهؤلاء الناس ، بفضل تقدمه وتطوره وتلونه ، امكننا تصور مدى تأثير الموسيقى العربية على الموسيقى الأندلسية ، وهو التأثير الذي ما زال واضحاً في اغاني الفلامنكو ، والخوندا وغيرها من الأغاني الشعبية المتداولة حتى الآن وخاصة في منطقة الأندلس باسبانيا .

ومن السهل على المستمع العربي العادي ، مهما كان المامه محدوداً بتاريخ الموسيقى وتطورها وقواعدها ، ودون ان يعرف كلمة اسبانية واحدة ان يتعرف ، عند استماعه لاغنية فلامنكو أو خوندا، الى المؤّال، ذلك اللون المحبب من الغناء الذي نشأ على سماعه في كل ناحية من نواحي وطنه الكبير ، وان يربط بين صوت العود وصوت القيثارة وبين نقر الصنج ونقر الكاستانيت

ولئن بدأت في بلاد المشرق منذ عهد قريب نزعة الى احياء القديم من الموسيقى العربية ، إلا انها لم تتعد ذلك النوع من الموسيقى الذي بدأ يتطور منذ أوائل القرن الحالي . أما المغرب العربي فصَلتَه بالموسيقى الأندلسية لم تنقطع ، بل ان الجهود الحثيثة الصادقة ، ما فتئت تبذل للحفاظ على هذا التراث الخالد واحيائه وبعثه ، كما أن هنالك تعاوناً وثيقاً بين معاهد موسيقية مغربية واسبانية ، من اجل اعادة بناء ذلك الجسر الذي من شأنه ان يفتح آفاقاً جديدة لمزيد من التفاعل والحوار الفني ، وان يتيح بدوره لأهل المشرق التعرف على وجه حضاري آخر ، مما خلفه اجدادنا العظام في شبه الجزيرة الايبيرية .

وقبل استعراض نماذج من الشعر الأندلسي ، لا بد من العرض لطبيعة اهل الأندلس وخصائصهم وصفاتهم ،

لنتعرف على هؤلاء الذين جاءوا بهذه الدرر النفيسة ، التي صاغها أسياد الكلم من الأندلسيين .

لقد سبق ان رأينا كيف تكوَّن نسيج هذا المجتمع ، الذي اختلطت فيه دماء العرب بدماء أهل البلاد ، الذين كان يجري في عروقهم اصلاً خليط من دماء مختلفة ، ونداليه وقوطية ورومانية ويونانية وجرمانية وما الى ذلك ، بما ادى الى نشوء اجيال جديدة ، جمعت بين نواح عرقية متعددة الأصول والخصال ، وهو خليط كثيراً ما يؤدي الى بروز صفات ايجابية سواء من الناحية الذهنية او البدنية .

وقد كثر نسل العرب في الأندلس ، بفضل انتشار عادة اقتناء الجواري والاماء من الاسبانيات وغيرهن . ولئن كان للزواج المختلط واقتناء الاماء والجواري من الاجنبيات نتائج سلبية ، في بعض الاحيان ، بسبب التنافس بين الامهات لحساب اولادهن ، وتجسس الاسبانيات ، في كثير من الاحيان ، على القصور لحساب العدو ، غير ان نتاج هذا الاختلاط ، كانت له آثار اجتماعية ايجابية أيضاً ، ذلك انه اسهم في كثير من الحالات اسهاماً عظيماً في النهضة الفكرية التي شهدها الأندلس .

ومما اشتهر به اهل الأندلس ، كبرياؤهم وانفتهم وحرصهم على صون كرامتهم ، وهذه خصلة من أبرز خصال الاسبان حتى يومنا هذا . ولذلك قلما امتدت في الأندلس يد متسول الا لحاجة حقيقية ، ذلك ان اهل الأندلس كانوا اكره ما يكرهون رؤية يد تمتد سائلة ، اذا كانت قادرة على العمل .

ولعل هذا يفسر صفة الحرص الذي كان يوصف به اهل الأندلس ، والذي يوصف به الاسبان حتى الآن . فالاندلسيون ، لكبريائهم ، كانوا مدبرين ، غير متلافين ولا مبذرين ، وذلك لا لشيء ، إلا لأنهم يخشون العوز والفاقة وذل التسول .

وقد اشتهر أهل الأندلس كذلك بنظافتهم ، وفي ذلك قال المقري « واهل الأندلس اشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

أما من حيث الملبس فقد اقلع أهل الأندلس ، باستثناء الفقهاء والقضاة ، عن عادة التعمم . بل كانوا يرتدون نوعاً من البرنس الذي ما زال يرتديه أهل المغرب الأقصى ، وكانوا يستخدمون الغفائر ، وهي اشبه بطرحة تلتف حول العنق وترسل الى الظهر . وكان العلماء يرسلون ضفائر شعرهم الى الامام من تحت الاذن اليسرى . وكانت النساء الاندلسيات يتسمن بالاناقة ، ويكثرن من الحلي ويغلب عليهن طابع البذخ . وكان أكثر الأندلسيات محجبات واميات ، ولو ان عدداً منهن برز في عالم الأدب ، مثل ولادة بنت المستكفي ، وحفصة بنت الحاج الغرناطية ، وام الكرام بنت المعتصم ، واعتماد جارية المعتمد بن عباد وغيرهن .

وكان أهل الأندلس يحبون العلم ، وينفق الواحد منهم الكثير مما لديه في سبيل تحصيله . وكانت المساجد تغص دائماً بطلاب العلم الذين كانوا يتتلمذون على العلماء في مختلف المواضيع . وكان للعلماء في الأندلس منزلة عظيمة في المجتمع الأندلسي .

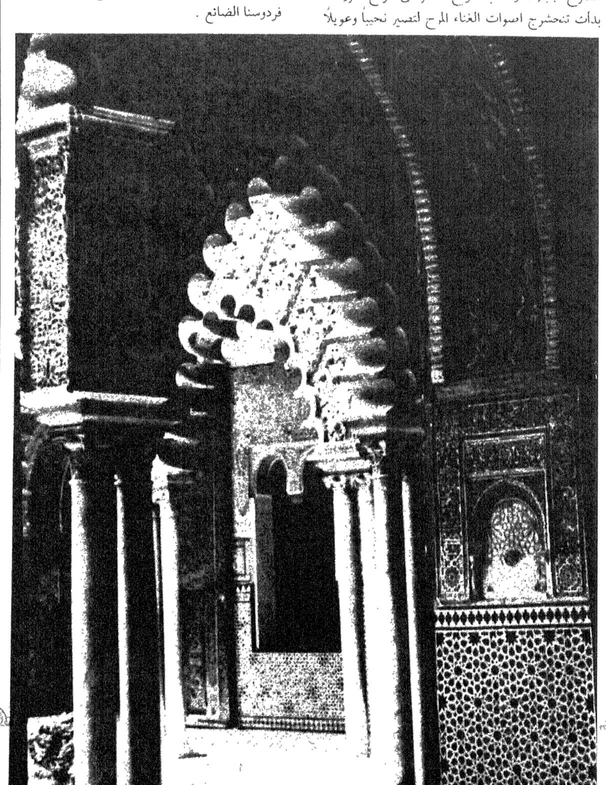
ولعل اكثر ما كان يشغف به أهل الأندلس فضلاً عن العلم والشعر ، الغناء . وقد اشتهر عدد من المغنين والموسيقيين والراقصين ، من الجنسين ، في الأندلس ، وخاصة اشبيلية مدينة المرح واللهو ، حتى ليقال ان الأندلسي يفضل ان يعيش على الكفاف مع الغناء ، على ان يعيش مترفاً بدونه .

وكانت الفروسية المثالية من ابرز صفات اهل الأندلس . وفي هذا يقول غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) « كان للفروسية العربية شروطها ، كما للفروسية الاوروبية التي ظهرت بعدها ، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلا اذا تحلى بهذه الخصال العشر : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشمائل والقريحة الشعرية ،

والفصاحة ، والقوة ، والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب » .

وفي مثل هذا الجو الرومانطيقي ، المفعم بالخيال والمرح والجمال ، انطلقت احلى القصائد واعذبها ، حتى اذا ما بدأ نجم العرب يأفل في هذه الربوع الجميلة ، وينهار ذلك الصرح الجبار ، وتنقلب افراح النصر الى اتراح الهزيمة ، بدأت تتحشرج اصوات الغناء المرح لتصير نحيباً وعويلاً جاء ، على مرارته ، بأبلغ القصيد واصدقه ، تعبيراً عن التفجع والألم .

ولقد اخترت هذه المجموعة الصغيرة من الشعر الأندلسي ، الذي قيل في مختلف المجالات والمواضيع ، لاحاطة القارىء ببعض ما انتجته قرائح اجدادنا العظام في فردوسنا الضائع .



باقة من الشعر الاندلسي

في الغزل

قُضْبٌ من البان ماستْ فوق كُثبانِ
وَلَيْنَ عنّي، وقد أزمعنَ هجراني
مَلَكْنني مَلِكاً ذَلَّتْ عزائمهُ
للحُب، ذُلَّ أسيرٍ موثَق عانِ
مَن لي بمغتصباتِ الروح من بدني؟
غَصبْنني في الهوى عِزي وسلطاني!

(الحكم بن هشام)، في خمس من جواريه أعرضن عنه وكان مولعاً بهن.

وقال فيهن أيضاً . . . :

ظلَّ من فَرْطِ حُبِّه مملوكا
ولقد كان قبلَ ذاك مَليكا
إن بكى أو شكى الهوى زِيدَ ظلما
وبعاداً يُدْني حِماماً وَشيكا
تركَتْه جآذرُ القصرِ صَبّا
مستهاما، على الصعيدِ تَريكا
يجعل الخدُّ واضعاً فوق تُرْبٍ
للذي يرتضي الحرير، أريكـا
هكذا يحسن التذلُّل للحُرِّ
إذا كان في الهوى مملوكا

أضحى التَّنائي بديلاً من تدانينا
ونابَ عن طيبِ لقيانـا تجافينا
ألاّ وقد حانَ صُبحُ الليل صَبَّحنا
حَينٌ فقام بنا للحَين ناعينا
مَنْ مُبْلغُ المُلْبِسينا بانتزاحِهم
حُزناً مع الدهرِ لا يَبلى ويُبلينا
أنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحكنا
أُنساً بقربهمُ قد عادَ يُبْكينا
غِيظَ العدا مِن تساقينا الهوى فدعوا
بأن نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمسِ كنّا وما يُخشى تفرُّقنا
واليومَ نحنُ وما يُرجَى تلاقينا
يا ليتَ شعري ولم نُعتبْ أعاديَكُمْ
هل نال حظّاً من العُتبى أعادينا
لم نعتقدْ بعدكم إلاّ الوفاء لكمْ
رأياً ولم نتقلَّدْ غيره دينا
كنّا نرى اليأس تُسْلينا عوارضُهُ
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنّا فما ابْتَلَّتْ جوانحنا
شوقاً إليكمْ ولا جَفّتْ مآقينا
نكادُ حين تناجيكمْ ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالتْ لفقدكمُ أيّامُنا فغدتْ
سوداً وكانت بكم بِيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيشِ طلقٌ من تألُّفنا
وموردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا
وإذ هَصرنا فنونَ الوصلِ دانيةً
قُطوفُها فجنينا منه ما شينا
ليُسْقَ عهدُكم عهدُ السرورِ فما
كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا
أن طالَ ما غيّرَ النّأيُ المُحبّينا

واللهِ ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً
منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسقِ به
من كان صرف الهوى والودِّ يسقينا

واسألْ هنالك هل عنّى تذكرنا
إلفاً تذكرهُ أمسى يُعَنّينا

ويا نسيمَ الصّبا بلّغْ تحيّتَنا
من لو على البعد حيّاً كان يحيينا

من لا يرى الدهر يقضينا مساعفةً
فيه وإن لم يكن عنّا يقاضينا

من بيتِ ملكٍ كأنَّ الله أنشأه
مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا

أو صاغه ورقاً محضاً وتوّجَهُ
من ناصع التبرِ إبداعاً وتحسينا

إذا تأوّد آدته رفاهيةً
تومُ العقودِ وأدمته البُرى لينا

كانتْ له الشمسُ ظئراً في تكلُّله
بل ما تجلّى لها إلّا أحايينا

كأنما أُثبتتْ في صحن وجنتهِ
زُهرُ الكواكبِ تعويذاً وتزيينا

ما ضرَّ أن لم نكن أكفاءهُ شرفاً
وفي المودةِ كافٍ من تكافينا

يا روضةً طالما أجنتْ لواحظنا
ورداً جلاه الصّبا غضّاً ونسرينا

ويا حياةً تَمَلّينا بزهرتها
مُنىً ضُروباً ولذّاتٍ أفانينا

ويا نَعيماً خطرنا من غَضارتِهِ
في وَشْيِ نُعْمى سحبنا ذيله حينا

لسنا نسدميكِ إجْلالاً وتَكْرِمةً
وقدركِ المعتلي عن ذاك يغنينا

إذا انفردتِ وما شوركتِ في صفةٍ
فحسبنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا

يا جنّةَ الخلدِ أُبدِلْنا بسلسلها
والكوثرِ العذبِ زَقُّوماً وغِسْلينا

كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا
والسعدُ قد غضَّ من أجفان واشينا

سرّان في خاطِرِ الظّلماء تكتمنا
حتى يكاد لسان الصُّبح يفشينا

لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهتْ
عنه النُّهى وتركنا الصبر ناسينا

إنّا قرأنا الأسى يومَ النوى سُوَراً
مكتوبةً وأخذنا الصبر تَلْقينا

أمّا هواكِ فلَمْ نَعْدلْ بمشربهِ
شرباً وإن كان يروينا فيُظمينا

لم نجفُ أُفْقَ جمالٍ أنتِ كوكبه
سالين عنه ولم نَهْجُرْهُ قالينا

لا اختياراً تجنّبناك عن كَثَبٍ
لكن عَدَتْنا على كره عَوادينا

نأسى عليك إذا حُثّتْ مشعشعةً
فينا الشَّمولُ وَغَنّانا مغنّينا

لا أكؤسُ الراح تُبدي من شمائلنا
سيما ارتياحٍ ولا الأوتار تُلهينا

دومي على العهدِ ما دمنا محافظةً
فالحرُّ من دان إنصافاً كما دينا

فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا
ولا استفدنا حبيباً عنكِ يغنينا

ولَو صَبا نحونا مِنْ أُفْقِ مطلعه
بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

أبْلى وفاءً وإنْ لم تَبْذلي صلةً
فالطيفُ يقنعنا والذكرُ يكفينا
وفي الجوابِ مَتاعٌ لو شَفَعْتِ به
بِيض الأيادي التي ما زلت تولينا
عليكِ منّي سلامُ اللّهِ ما بقيتْ
صبابةٌ بك تخفيها وتخفينا

ابن زيدون، في ولادة

ومُرْتجّةِ الأعطافِ أمّا قَوامُها
فلَدْنٌ، وأمّا رِدفها فرَداحُ
ألمّتْ فصار الليل مِن قِصَرٍ به
يطير، وما غيرُ السرور جَناح
وبِتُّ وقد زارتْ بأنعَم ليلة
يعانقني حتى الصباحِ صباح
على عاتقي من ساعدَيها حمائل
وفي خصرِها من ساعدَيّ وِشاحٌ!!
بأبي غزالاً غازَلَتْه مُقلتي
بين العُذَيْب وبين شَطيْ بارقِ
وسألت منه زيارةً تشفي الجوَى
فأجابني منها بوعدٍ صادقِ
طِبْتنا ونحن من الدجَى فيه لُجَّةٍ
ومن النجوم الزُّهر تحت سُرَادقِ
عاطيتُه والليل يسحب ذيلَه
صَهباءَ كالمسك الفتيق لناشق
وضممتُه ضمّ الكميّ لسيفه
وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالَتْ به سِنَةُ الكَرَى
زَحْزَحْتُهُ شيئاً وكان مُعانِقي
أبعدتُه عن أضلعٍ تشتاقه
كي لا ينامَ على وسادٍ خافق
لما رأيت الليل آخرَ عمره
قد شاب في لِمَمٍ له ومَفارقِ
ودَّعتُ مَن أهوى وقلتُ تأسفاً:
أعْزِزْ عليّ بأنْ أراك مفارقي

علي بن عطية البلنسي

طـال عمر الليـل عندي
مـذ تـولـعـت بـصـدّي
يـا غـزالاً نقض العهـد
ولـم يـوف بـوعـدي
أنسيت العهـد إذ بتنـا
عـلى مـفـرش ورد
واجـتـمـعـنـا فـي وشـاح
وانـتـظمـنـا نـظم عـقـد
ونـجـومُ الليـلِ تحـكـي
ذهـبـاً فـي لازورد
وتـعـانـقـنـا كـغـصـنـيـن
وقـدانـا كـقـد

عبد الرحمن الخامس (المستظهر بالله)

* * *

كأنها حين تخطو في تأودها
قضيب نرجسة في الروض مياس
كأنما خلدها في قلب عاشقها
ففيه من وقعها حفر وسواس
كأنما مشيها مشي الحمامة لا
كد يعاب ولا بطء به باس

(ابن حزم)

* * *

أغار عليك من عيني ومني
ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني
إلى يوم القيامة ما كفاني

(ولادة في ابن زيدون)

* * *

يا من غدوت بها في الناس مشتهراً
قلبي يقاسي عليك الهم والفكر
إن غبت لم ألق إنساناً يؤانسني
وإن حضرت فكل الناس قد حضروا

(ابن زيدون في ولادة)

* * *

يا مهجةَ المشتاقِ ما أوجعكْ!
ويا أسيرَ الحب ما أخضعك!
ويا رسول العين مِن لحظها
بالرد والتبليغ ما أسرعك!
تذهب بالسر فتأتي بهِ
في مجلس يخفَى على مَن معك
كم حاجةٍ أنجزتَ إبرازها
تبارك الرحمن ما أطوعك!

(الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن)

فتكاتُ لحظِكِ أم سيوفُ أبيكِ
وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيكِ
أجِلادُ مُرهَفةٍ وفَتْكُ مُهاجِرٍ
ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يا بنتَ ذي السيفِ الطويلِ نِجادُه
أكذا يجوز الحُكم في ناديكِ؟
عيناك أم مغناكِ موعدُنا وفي
وادي الكرَى نلقاكِ أم واديكِ؟
منعوكِ من سِنَةِ الكرى وسرَوْا فلَو
عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنُّوكِ
ودعَوْكِ نَشوى ما سَقَوْكِ مدامةً
فإذا تثنّى عِطْفُكِ اتهموكِ
حسِبوا التَكحُّلَ في جفونكِ حِيلةً
تاللهِ ما بأكُفِّهم كحلوكِ!

(ابن هانىء الأندلسي)

* * *

ودِّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعكْ
ذائعٌ من سِرِّهِ ما استودعك
يَقرعُ السِّنَّ على أن لم يكنْ
زادَ في تلك الخُطا إذ شيَّعك
يا أخا البدرِ سناءً وسنى
حفِظ اللهُ زماناً أطلعك
إنْ يَطلْ بعدك ليلي فلكم
بِتُّ أشكو قِصرَ الليل معك!

(ابن زيدون، أمير شعراء الغزل، في ولادة بنت المستكفي)

* * *

أأُسلب من وصالك ما كُسيتُ
وأُعزَلُ عن رضاك وقد وَليتُ
وكيف، وفي سبيل هواك طوي
لَقِيتُ من المكارهِ ما لقيتُ
فديتك، ليس لي قلبٌ فأسلو
ولا نَفَسٌ فآنف إن جُفيتُ
فإن يكن الهوى داءً مُميتاً
لمن يهوى، فإني مُستميتُ
أُسِرُّ عليك عتباً ليس يبقى
وأضمرُ فيك غيظاً لا يبيتُ
وما ردى على الواشين إلا
«رَضيتُ بجور مالكتي رضيتُ»

(ابن زيدون، في ولادة)

* * *

أغائبةً عني وحاضرةً معي
أناديك، لما عيل صبري، فاسمعي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أُرى
حريقاً بأنفاسي، غريقاً بأدمعي
ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشقٍ
جعلتِ الردى منهُ بمرأىً ومسمع
صليني بعض الوصل، حتى تبيِّني
حقيقة حالي، ثم ما شئتِ فاصنعي

(ابن زيدون، في ولادة)

* * *

لمّا التقينا وقد قيل: المساءُ دنَا
وغابت الشمس أو لاذتْ ولم تغب
واضلعي بين مُنقضٍّ ومُنقصفٍ
وأدمعي بين مُنْهلٍّ ومنسكِب
وأمَّلتْني «أمُّ المجد» قائلةً:
بمَن أراكَ أسيرَ الوجد والطربِ؟
فقلت: قلبيَ مَسْبيٌّ، وإنك لو
كتمتِ سِرِّيَ، لم أكتُمك كيف سبي
وأعرضتْ ثم قالت: قد أسأتَ بنا
ظنّاً! أيجمُلُ هذا من ذوي الأدبِ؟

فقلت: إني امرؤ لمّا لقيتكمُ
والمرء وقفُ على الأرزاء والنُّوَب
سَبتْ فؤاديَ ذاتُ الخال قادرةً
ولا نصيبَ له منها سوى النَّصَب
ألهو بها، وهي تلهو في بُلَهْنِيَةٍ
شتّان واللّهِ بين الجد واللعب
أصابت القلبَ لمّا أن رَمتْه، ولو
رمته أخرى إذن لا شك لم تُصِبِ
فقالت: اشكُ إليها، ما لقِيتَ ولا
ترهبْ، فلم تُبلـغ الآمالُ بالرَّهَب
علمى هواكَ سيُعديها فيُنصِبها
وقد يكونِ الهوى أعدَى من الجرَب
فقلتُ: أُعظِمُها، بل ما أكلمها
إلاَّ أشار إليّ الموتُ من كثَبِ
قالت: أنا أتولّى ذاك في لَطفٍ
فقد أُؤلِّف بين الماء واللهب
فقلتُ: مثلك مَن يُرجَى لمعضلةٍ
لا زلتِ في غبطةٍ ممتدةِ الطُّنُب
صِليه أو فاقتليه فالحِمامُ له
خيرٌ من الهجر في جهد وفي تعب
فلو تراني قد استسلمتُ مُرتقباً
منهـا حنـاد الرضـا أو جفـوة الغضب

حتى إذا ما ألانت تلك جانبَها
والقلب مهما أرُمْ تسكينه يجبِ
طفِقتُ ألثم كفَّيْها وقد جَنحت
إليَّ تضحك بين العُجْب والعَجَب
لله مثليَ ما أدنَى سَجيَّته
من المعالي وأنآها عن الريـب
كم مَأثمٍ مُستلَذٍّ قد هممتُ به
فلم يَدَعْني له ديني ولا حَسبي

(أبو العباس أحمد بن عبد الله، التطيلي)، متغزلاً بفتاة تدعى «لذيذة» متخذاً أسلوب الحوار مع امرأة تدعى أم المجدَ.

***

وقالوا

في التغزّل بالنصرانيات

عساكِ بحقِّ عِيساكِ، مريحةً قلبيَ الشاكي
فإن الحسن قد وَلَّاكِ إحيائي وإهلاكي
وأولَعني بصُلبانٍ، ورُهبانٍ ونُسّاكِ
ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهنَّ لولاكِ
وها أنا منك في بلوَى، ولا فرجٌ لِبلواكِ
ولا أسْطِيعُ سُلواناً، فقد أوثقتِ أشراكي
فكم أبكي عليك دماً ولا تَرثين للباكي
نُويرةُ إن قلَيتِ فإنني أهواكِ أهواكِ

(ابن الحداد)

* * *

وبين المسيحيات لي سامريَّةٌ
بعيد عن الصب الحنيفي أن تدنو
مثلثة قد وحد الله حسنها
فثُنِّيَ في قلبي بها الوجدُ والحزنُ
وفي معقد الزنار عقرُ صبابتي
فمن تحته دعْصٌ ومن فوقه غُصنُ
وفي ذلك الوادي رشأً أضلعي له
كناس، وقُمْريٍّ فؤادي له وكن

(ابن الحداد)

* * *

وقالوا

في التغـزّل بالغلمان

صباحُ شِيَمَ أم برقٌ بَدَا
أم سَنَا المحبوب أورَى أَزْنُدا؟
هبَّ من مَرقده مُنكسِرا
مُسْبلاً للكُمِّ مُرْخٍ للرِّدا
تمسحُ النَّعْسةَ من عينيْ رشاً
صائدٍ في كل يومٍ أسدا
لَهْو مِن دَلٍّ عَراهُ زُبدةٌ
من صريحٍ لم يخالط زَبَدا
قلت: هبْ لي يا حبيبي قُبلةً
تَشفِ من عسِّك تَبْرِيحَ الصَّدا
انثنى يهتَـزُّ من مَنكِبِـه
مائلاً لُطفاً وأعطاني اليدا
كـلـمـا كـلَّـمـنـي قـبَّـلتُـه
فهْوَ إمَّا قال قولاً رُدِّدا
كاد أن يَرجع من لَثْمي له
وارتشافي الثغر منـه أزرَدا
شربت أعطافُه ماءَ الصِّبا
وسقاه الحسن حتى عَرْبَدا
فإذا استنجزتُ يوماً وَعده
قال لي يَمطُل: ذكِّرْني غدا

(أبو عامر بن شُهَيد)

* * *

وهَـويـتُـه يَـسـقـي الـمـدامَ كـأنـه
قـمـرٌ يـدور بـكـوكـب فـي مـجـلسِ
مـتـأرِّجُ الـحـركـات تـنـدَى ريـحُـه
كـالـغـصـن هـزَّتـه الـصَّـبـا بـتـنـفُّسِ
يـسـعـى بـكـأسٍ فـي أنـامـلِ سـوسـنٍ
ويُـديـر أخـرى مـن مـحـاجـرِ نـرجِسِ
عَـنَّـا بـكـأسـكَ، قـد كـفـتـنـا مُـقـلةٌ
حَـوْراءُ قـاتـمـةٌ بـسُـكْـرِ الـمـجـلس

(أبو بكر بن عمار)

* * *

وقالوا

في الحِكْمة

أرَى أهـلَ الـيـسـار إذا تُـوُفُّـوا
بَـنَـوا تـلك الـمـقـابـرَ بـالـصـخـورِ
أبَـوْا إلاَّ مُـبـاهـاةً وفـخـرا
عـلى الـفـقـراءِ حـتـى فـي الـقـبـورِ!
فإنْ يـكـن الـتـفـاضـلُ فـي ذُرَاهـا
فـإن الـعـدلَ فـيـهـا فـي الـقـعـورِ
ألـمَّـا يُـبـصـروا مـا خـرَّبَـتْـه الـدُّ
هـورُ مـن الـمـدائـن والـقـصـورِ؟
لـعَـمْـرُ أبـيـهِـمُ لـو أبـصـروهـمْ
لـمـا عُـرِف الـغـنـيُّ مـن الـفـقـيـرِ
ولا عَـرفـوا الـعـبـيـدَ مـن الـمـوالـي
ولا عـرفَـوا الإنـاثَ مـن الـذكـورِ
ولا مَـن كـان يـلبَس ثـوبَ صـوفٍ
مـن الـبَـدَنِ الـمـبـاشـرِ لـلـحـريـرِ!
إذا أكـلَ الـثـرَى هـذا وهـذا
فـمـا فـضـلُ الـكـبـيـر عـلى الـحـقـيـرِ؟

(يحيى بن الحكم الغزال، حكيم الأندلس)

* * *

إني نظرت إلى المرآة قد جُلِيَتْ
فأنكرتْ مُقلتايَ كلَّ ما رَأَتَا
رأيتُ فيها شُوَيْخاً لستُ أعرفه
وكنت أعهدُهُ من قبلِ ذاك فتَى
فقلتُ: أين الذي بالأمسِ كان هنا؟
متى ترحّلَ عن هذا المكان؟ متى؟
فاستضحكتْ ثم قالت وهْيَ مُعْجَبةٌ:
إن الذي أنكرَتْهُ مقلتاك أتى
كانت سُلَيْمَى تنادي يا أُخَيَّ وقد
صارت سُلَيْمَى تنادي اليومَ يا أبَتَا!

(أبو بكر محمد بن عبد الملك في الشيخوخة)

* * *

مَثَلُ الرزق الذي تطلبُهُ
مَثَلُ الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مُتَّبِعاً
فإذا وليت عنه تَبِعك

(ابن مرج الكحل)

* * *

في الزهد

يا ذنوبي ثقَّلْتِ والله ظهري
بانَ عُذري، فكيف يُقبَل عذري؟
كلما تُبْتُ ساعةً عُدْتُ أخرى
لضروبٍ من سوء فعلي وهُجري
ثَقُلتْ خُطوتي وفَوْدي تَفرَّي
غَيْهَبُ الليل فيه عن نُور فجر
دَبَّ موتُ السكون في حركاتي
وخَبَا في رمادِهِ حُمْرُ جمري
وأنا حيثُ سِرتُ آكلُ رِزقي
غيرَ أنَّ الزمانَ يأكل عمري!
كلما مَرَّ منه وقتٌ بربحٍ
من حياتي، وجدتُ في الربح خُسْري
يا رفيقاً بعبدِهِ ومُحيطا
عِلمُهُ باختلاف سِرِّي وجَهري
مِلْ بقلبي إلى صلاحِ فسادي
منه، واجبُرْ برأفةٍ منك كَسْري
وأجِرْني مما جناهُ لساني
وتناجتْ به وساوسُ فكري

(ابن حمديس الصقلي)

* * *

قد تلذَّذتُ حقبةً بأمورٍ
فتأمَّلتُها، فكانت خيالا
أنا في حالتي التي قد تراني
إنْ تأمَّلتَ أحسنُ الناس حالا
منزلي حيث شئتُ من مستقرّ
الأرض، أُسقى من المياه زُلالا
ليس لي كُسوةٌ أخاف عليها
من مُغيرٍ، ولن ترى ليَ مالا
أجعل الساعدَ اليمينَ وسادي
ثم أُثني - إذا انقلبتُ - الشمالا
ليس لي والدٌ ولا مولودٌ
لا، ولا حزتُ مُذْ عقلتُ عيالا

(أبو الوهب العباسي القرطبي)

* * *

أسيرُ الخطايا عند بابكَ واقفُ
على وَجَلٍ مما به أنتَ عارفُ
يخافُ لم يغِبْ عنك غَيْبُها
ويرجوك فيها، فهْو راجٍ وخائفُ
ومَن ذا الذي يُرجَى سواكَ ويُتَّقى
وما لكَ في فصل القضاء مخالفُ؟
فيا سَيِّدي لا تُخزِني في صحيفتي
إذا نُشِرتْ يومَ الحساب الصحائفُ

(ابن الفرضي القرطبي)

* * *

وقالوا

في التصوف

لقد تهتُ عُجْباً بالتجرُّدِ والفقرِ
فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهرِ
وجاءت لقلبي نفحةٌ قُدُسيَّةٌ
فغبتُ بها عن عالَمِ الخلق والأمرِ
طويتُ بساطَ الكون، والطيّ نشرُهُ
وما القصدُ إلاّ التركُ للطي والنّشرِ
وغمَّضتُ عينَ القلب غيرَ مُطلَّقٍ
فألفيتَني ذاك الملقَّبَ بالغيرِ
وصَلت لمن لم تنفصل عنه لحظة
ونزَّهتُ من أعني عن الوصلِ والهجرِ
وما الوصفُ إلاّ دُونَه، غيرَ أنني
أريد به التشبيبَ عن بعض ما أدري
وذلك مثلُ الصوت أيقظ نائماً
فأبصر أمراً جلَّ عن ضابط الحَصْرِ
فقلتُ: له الأسماء تبغي بيانَه
فكانت له الألفاظ سِتْراً على سِتْرِ

(أبو الحسن الشُشْتري)

* * *

حقيقتي هِمتُ بها وما رآها بصري
ولو رآها لغدا قتيلَ ذاك الحَوَرِ
فعندما أبصرتُها صِرت بحكم النظـر
فبت مسحوراً بها أهيم حتى السَّحَرِ
يا حذري من حذري لو كان يغني حذري
والله ما هيَّمني جمال ذاك الخَفَرِ
في حسنها من ظَبية ترعى بذات الخَمَرِ
إذا رنت أو عطفتْ تسبي عقول البشرِ
كأنما أنفاسها أعراف مسكٍ عطِرِ
كأنها شمس الضحى في النور أو كالقمرِ
إذا أسفرت أبرزها نور صباح مُسْفرِ
أو سَدَلَتْ غيَّبها سواد ذاك الشَّعَرِ
يا قمراً تحت دُجىً خذي فؤادي وَذري
عيني لكي أبصركم إذ كان حظي نظري

(الشيخ محيي الدين بن عربي)

* * *

وقالوا

في المديح

أشهابٌ في دُجَى الليل ثقبْ
أم سِراج نارُه ماءُ العِنبْ
قهـوةٌ لو سُقيَتْهـا صخرةٌ
أورقتْ باللهو منها والطربْ
ما درَى خمَّارها عاصِرَها
فحديثُ الصدق فيها كالكذبْ
دفنـوا اللذةَ فيهـا حَيَّـةً
وأتى الدهر عليها وذهبْ
قلتُ إذ أبرزها في قَعْبِه:
أهْيَ بنتُ الكرم أم أُمُّ الحِقب
ومليحِ الدلِّ إنْ عَلَّ بَها
قلتَ: نجمٌ في فم البدر غربْ
شعشعَ القهوة في صَوب الحَيا
وسقاني فضلةً مما شرب
فَتَلاقَى في فمي من كأسه
ماءُ كَرْمٍ وغمـامٌ وشنب
وشدا من مدح يحيى نغماً
هزَّ منه الملكُ عِطفَيْه طربْ
مَن مُعز الدين في الفخر له
خيرُ جَـدٍّ، وتميمٌ خيرُ أبْ
ملكٌ عن ثُغرة الدين اتقَى
ورمَى الأعداء بالجيش اللَّجب
طاهرُ الأخلاق مألوفُ العلى
طيِّبُ الأعراق مصقول الحسـب
عادلٌ تعكف بالحمد على
ذكرِهِ أفواهُ عُجم وعرب

ابن حمديس، (في مدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز)

* * *

أدرِ المدامةَ فالنسيمُ قد انبرى
والنجمُ قد صرّف العِنان عن السُّرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافورَهُ
لما استردَّ الليلُ منه العنبرا
والروض كالحسْنَا كساهُ زهرُهُ
وَشْياً وقلّدَهُ نداهُ جَوْهَرا
أو كالغلامِ زَهَا بوَرْدِ خدودِهِ
خجَلاً وتاهَ بآسِهِنَّ مُعذّرا
روضٌ كأن النهر فيه معصمٌ
صافٍ أطلَّ على رِداءٍ أخضرَا

الوزير بن عمار، (في مدح المعتضد بن عباد)

* * *

وقالوا

في الهجاء

أهلَ الرياء لبِستُم ناموسكم
كالذئب يُدلج في الظلام العاتمِ
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ
وقسمتُم الأموالَ باسم القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ
وبأصْبغٍ صُبِغَتْ لكم في العالَم

(الأبيض الإشبيلي)، في هجاء الفقهاء المرائين

* * *

وقال فيهم أيضاً:

قُلْ للإمام سَنَا الأئمة مالكٍ
نورِ العيونِ ونُزهةِ الأسماعِ:
لله دَرُّكَ من إمامٍ ماجدٍ
قد كنتَ راعينَا فنعمَ الراعي
فمضيتَ محمودَ النقيبة طاهراً
وتركتَنا قَنَصاً لشرِّ سباعِ
أكلوا بكَ الدنيا وأنتَ بمعزلٍ
طاوي الحَشَا مُتكَفِّتُ الأضلاع
تشكوك دنيَا لم تزل بك بَرَّةً
ماذا رفعتَ بها من الأوضاع!

* * *

وقال (ابن خفاجة) فيهم كذلك:

دَرَسُوا العلوم ليملكوا بجدالهم
فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسِ
وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً
في أخذ مالِ مساجدٍ وكنائسِ!

إن المرابط باخلٌ بنواله
لكنه بعياله يتكرَّمُ!
الوجهُ منه مُخَلَّقٌ لقبيح ما
يأتيه، فهوَ من أجله يتلثَّمُ

(اليكيّ الاشبيلي)، في المرابطين الذين كانوا يعرفون أيضاً بالملثمين

وقال فيهم أيضاً:

في كل مَن ربط اللثامَ دنَاءةٌ
ولوَ انّه يَعلو على كِيوانِ
لا تطلبَنَّ مُرابطاً ذا عِفّةٍ
واطلب شعاعَ النار في الغدران[1]

* * *

عكف الزبيرُ على الضلالة جاهداً
ووزيرُه المشهورُ كلبُ النارِ
ما زال يأخذ سجدةً في سجدةٍ
بين الكؤوس ونغمة الأوتار!
فإذا اعتراهُ السَّهْوُ سبّح خلفَه
صوتُ القيانِ ورَنّةُ المِزمار!

(الأبيض الاشبيلي) في هجاء الامير الزبير أحد أمراء المرابطين.

* * *

رأيتُ آدمَ في نومي فقلتُ لهُ:
أبا البريّةِ إن الناس قد حكموا
أنَّ البرابرَ نَسْلٌ منك. قال: إذنْ
حَرَّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

(السميسر) في هجاء البربر

وقالوا

في الاستعطاف

سجاياكَ إن عافيتَ أندى وأسمحُ
وعذرُك إن عاقبتَ أجلى وأوضحُ
وإن كان بين الخُطتين مَزيّةٌ
فأنت إلى الأدنى من الله أنجحُ
حنانيْك في أخذي برأيك لا تُطعْ
عُداتي، وإن أثنوا عليّ وأفصحوا
وماذا عسى الأعداءُ أن يتزيّدُوا
سوى أنّ ذنبي واضح مُتصحِّح
نعم ليَ ذنبٌ: غيرَ أنّ لحلمِكم
صَفاةً يزِلُّ الذنبُ عنها فيسفح
وأنَّ رجائي أنّ عندك غيرَ ما
يخوض عدُوِّي اليومَ فيه ويمرَح
ولِمْ لا، وقد أسلفتُ وُدًّا وخِدمةً
يكُرّانِ في ليل الخطايا فيُصبِح؟
وهبني وقد أعقبتُ أعمالَ مُفسِدٍ
أمَا تَفسُدُ الأعمالُ ثُمّتَ تَصلُح؟
أقلني بما بيني وبينك من رضاً
له نحوَ رُوح الله بابٌ مُفتَّح
وَعَفِّ على آثار جُرمٍ جنيتُه
بنفْحة رُحمَى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفتْ رأيَ الوشاة وقولَهم
فكل إناءٍ بالذي فيه ينضَح
وما ذاك إلّا ما علمتَ... فإنني
إذا تُبتُ لا أنفكُّ آسو وأجرح

(الوزير أبو بكر محمد ابن عمار)، يستعطف المعتمد بن عباس من منفاه.

* * *

هبني أسأتُ فأين العفو والكرمُ
إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ
يا خير مَن مُدَّت الأيدي إليه: أمَا
ترثي لشيخ نعاه عندك القلمُ
بالغتَ في الحظّ فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ
إن الملوك إذا ما استُرحِموا رَحِموا

المصحفي (يستعطف الحاجب المنصور من سجنه).

* * *

عفا الله عنك! ألاَ رحمةٌ
تجود بعفوك إن أبعدا
لئن جلَّ ذنبي، ولم أعتمده
فأنت أجلُّ وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدَا طوره
ومولىً عفَا ورشيداً هدى
ومفسدَ أمرٍ تلافيتَه
فعاد فأصلح ما أفسَدَا
أقلني! أقالك من لم يزلْ
يَقيك، ويصرف عنك الردى

المصحفي، (يستعطف الحاجب المنصور من سجنه)

* * *

في الرثاء

يقولون: صبراً! لا سبيل إلى الصبر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هَوى الكوكبان: الفتحُ ثم شقيقهُ
يزيدُ، فهل بعد الكواكب من صبر؟
أفتحُ: لقد فتَّحت لي بابَ رحمة
كما بيزيدَ الله قد زادَ في أجري
هوى بكما المقدارُ عنِّي ولم أمُتْ
وأُدعَى وفيّاً! قد نكصتُ إلى الغدر
توليتما والسِّنُّ بعدُ صغيرةٌ
ولم تلبثِ الأيامُ أن صغَّرتْ قدري
فلو عُدْتُما لاخترتُما العَوْدَ في الثرَى
إذا أنتما أبصرتمانيَ في الأسرِ
يُعيدُ على سمعي الحديدُ نشيجَه
ثقيلاً، فتبكي العينُ بالحسِّ والنقْر
معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما
وأمُّكما الثكلى المضرَّمةُ الصدرِ
أبا خالدٍ: أورثتني البثَّ خالداً
أبا النصرِ: مذ ودَّعتَ ودَّعني نصري
وقبلكما ما أودعَ القلبَ حسْرةً
تجدَّدُ طولَ الدهر، ثُكلُ أبي عمرو

(المعتمد بن عباد في رثاء ولديه الذين قتلهما يوسف بن تاشفين).

* * *

أيَا رَشاقة غُصنِ البانِ ما هَصَرَكْ
ويا تألُّفَ نظمِ الشمل مَن نثَرك؟
لا صبرَ عنكِ! وكيف الصبرُ عنكِ وقد
طواك عن عينيَ الموجُ الذي نشرك؟
أيُّ الثلاثةِ أبكي فَقْدَهُ بدَمٍ
عميمَ خُلْقِك أم مَعناكِ أم صِغَرَك؟
من أين يَقبُح أنْ أفنَى عليكِ أسىً
والحسْنُ في كل فنٍّ يقتفي أثرك
كنتِ الشبيبةَ إذ وَلَّتْ، ولا عِوَضٌ
منها، ولو ربحَ الدنيا الذي خسِرَكِ!
ما كنتُ عنكِ مُطيلاً بالهوى سفري
وقد أطلتِ لِحَيْني في البلَى سَفَرَك
أقول للبحرِ إذ أغشيتُهُ نظري:
ما كدَّر العيشَ إلاّ شُربُها كَدَرَك!
هلا نظرتَ إلى تفتيرِ مُقلتِها؟
إني لأعجبُ منه كيف ما سحرَك!
يا وجهَ جوهرةَ المحجوبَ عن بَصري
مَن ذا يقيكِ كسوفاً قد علا قمرك؟
دُولةُ الوصلِ إنّ وَلَّيْتِ عن بصري
فالقلب يقرأ في صحْف الأسَى سمرَك!
وما نجوتُ بنفسي عنكِ راغبةً
وإنما مَدُّ عُمْري قاصرٌ عُمُرَكِ!

(ابن حمديس)، في رثاء جاريته جوهرة التي ماتت غرقاً

* * *

وقال فيها أيضاً:

وَاوَحْشَتَا من فِراق مؤنسةٍ
يُميتُني ذِكْرُها ويُحْيِيها
يا بحرُ أرخصتَ غيرَ مُكترثٍ
مَن كنتُ لا للبِياع أُغليها
جوهرةٌ كان خاطري صَدَفاً
لها، أقيها به وأحميها
أبَثُّها في جَشَاك مغرقةً
وبِتُّ في ساحليك أبكيها
ونفحةُ الطيب في ذوائبها
وصِبغةُ الكحل في مآقيها
عانقها الموج ثم فارقها
عن ضَمَّةٍ فاضَ روحُها فيها!

* * *

في الحنين

يا هَبَّةً باكرتْ من نحو دارينِ
وافتْ إليَّ على بُعد تحيِّيني
سَرَتْ على صَفَحاتِ النهرَ ناشرة
جَناحَها بين خَيْريٍّ ونِسْرِينِ
رَدَّتْ إلى جسَدي رُوحَ الحياة وما
خِلتُ النسيمَ إذا مَا مِت يُحييني
مَرَّتْ على عُقُداتِ الرمل حاملةً
مِن سِرِّكُم خبراً بالوَحْي يَشفيني
عَرفت من عَرْفِه ما كنت أجهلُه
لمّا تبسَّمَ في تلك الميادينِ
نَزَوْتُ من طَرَبٍ لمّا هَفَا سَحَراً
وظلَّ يَنشرني طَوْراً ويَطويني
خِلتُ الشَّمالَ شَمولاً إذْ سَكِرتُ بها
سُكْراً بما لستُ أرجوهُ يمنِّيني
أهدتْ إليَّ أريجاً عن شمائلكم
فقلتُ: قَرَّبَني مَن كان يُقصِيني
وخِلتُ من طمعٍ أنَّ اللقاءَ على
إثْرِ النَّسيم، وأضحَى الشوقُ يَحْدُوني
يا مَن يُزَيِّن لي التَّرحال عن بَلدي
كم ذَا تحاولُ نَسْلاً عند عِنِّينِ!
وأين يَعدِل عن أرجاءِ قرطبةٍ
مَن شاء يظفرُ بالدنيا وبالدِّينِ؟
قُطرٌ فسيحٌ ونهرٌ ما به كدَرٌ
حَفَّتْ بشطَّيْه ألفافُ البساتينِ
يا ليت لي عمرَ نوحٍ في إقامتها
وأنَّ ماليَ فيها كنزُ قارونِ
كلاهما كنت أفنيه على نَشَوا
تِ الرَّاحِ نَهْباً ووَصْلِ الحُورِ والعِينِ
وإنما أسَفي أني أهيمُ بها
وأنَّ حَظِّيَ منها حَظُّ مَغبونِ!
أرَى بعينيَ ما لا تستطيلُ يدي
لَهُ، وقد حَازَهُ مَن قَدْرُهُ دُوني!

وأنكدُ الناسِ عَيشاً مَن تكون له
نفْسُ الملوكِ وحالاتُ المساكين
قالوا: الكَفافُ مُقيمٌ، قلت: ذاك لمَن
لا يستخفُّ إلى بيت الزّراجينِ
ولا يُبلْبلُه هَبُّ الصَّبا سَحَراً
ولا يُلطِّفُه عَرْفُ الرياحين
ولا يَهيم بتفّاح الخدودِ ورُمّا
نِ الصدور وترجيعِ التلاحين
لا تُجْتَنى راحةٌ إلاّ على تَعَبِ
ولا تُنالُ العُلا إلاّ من الهُونِ
وصاحبُ العقلِ في الدنيا أخو كَدرٍ
وإنما الصفْوُ فيها للمجانين!
يا آمري أنْ أَحُثَّ العيشَ عن وَطنٍ
لمّا رأى الرزقَ فيه ليس يُرضيني
نَصحتَ، لكنَّ لي قلباً يُنازِعُني
فلو ترحّلت عنه حَلّهُ دوني
لألزَمَنْ وطني: طَوْراً تُطاوِعُني
قُودُ الأماني، وطَوْراً فيه تَعصيني
مُذَلَّلاً بين عِرفاني: وأضربُ عن
سَيْرٍ لأرضٍ بها مَن ليس يَدريني
هذا يقول: غريبٌ ساقَهُ طمَعٌ
وذاكَ حين أريهِ البِرَّ يَجفوني
إليكِ عنيَ آمالي... فبُعْدُكِ يَهْـ
ـدِيني، وقُربُكِ يُطغيني ويُغويني
يا لَحظَ كلِّ غزالٍ - لستُ أملِكُه
يَدنو، وما ليَ حالٌ منه تُدنيني
ويا مُدامةَ دَيْرٍ لا أُلِمّ بهِ
لولاكُما كان ما أُعْطِيتُ يَكفيني
لأصْبِرَنَّ على ما كان من كَدَرٍ
لِمَن عَطاياهُ بين الكاف والنونِ

أبو القاسم القرطبي، (عندما رق حاله في قرطبة هاجر إلى المغرب بناءً على نصيحة أصدقائه، فحنّ إلى قرطبة وقال هذه القصيدة التي اقتطفنا منها هذه الأبيات).

وقالوا

في الفكاهة

يا ليت شعريَ، إذْ أوْمَى إلى فمِهِ،
أحَلْقُهُ لَهَواتٌ أم ميادينُ؟
كأنها - وخبيثُ الزادِ يُضرِمُها -
جَهَنّمٌ قُذِفَتْ فيها الشياطينُ
تبارك الله ما أمضى أسِنّتَهُ!
كأنما كل فَكٍّ منه طاحونُ
كأنما الحَمَلُ المَشْوِيُّ في يَدِهِ
ذُو النُّونِ في الماءِ لمّا عَضَّه النُّونُ
لفُّ الجِداء بأيديها وأرْجُلِها
كأنما افترسَتْهُنَّ السّراحينُ
وغادر البَطَّ من مَثْنَى وواحدةٍ
كأنما اختطفَتْهُنَّ الشّواهينُ
يُخفِّضُ الوَزَّ من قَرْنٍ إلى قدَم
وللبلاعيم تطريبٌ وتَلحينُ
كأنما كلُّ رُكنٍ من طبائعِهِ
نارٌ، وفي كلِّ عضوٍ منه كانونُ
قوموا بنا فلقد ريعَتْ خواطِرُنا
وجاذبَتْنا الأعِنّاتِ البراذينُ
نصحتكم فَخُذوا من شِدْقِه وَزَراً
أولاَ فأنتم سَويقٌ فيه مَطحونُ
فليس تُرْويهِ أمواهُ الفرات، ولاَ
يَقُوتُه فُلْكُ نوحٍ وهْوَ مَشحونُ

ابن هانىء الأندلسي، (في وصف رجل أكول)

* * *

في وصف الأندلس وطبيعتها ومدنها

في أرض أندلسٍ تُلتذُّ نَعماءُ
ولا يفارقُ فيها القلبَ سَرَّاءُ
وليس في غيرها بالعيش مُنتَفَعٌ
ولا تقوم بحق الأنسِ صَهباءُ
وأين يُعدَل عن أرضٍ تَحُضُّ بها
على المدامة أمواهٌ وأفياءُ؟
وكيف لا تُبهجُ الأبصارَ رُؤيتُها
وكلُّ أرض بها في الوَشْيِ صنعاءِ؟
أنهارُها فضةٌ، والمسكُ تربتُها
والخزُّ رَوْضتُها، والدُّرُّ حَصْباءُ
وللهواء بها لُطْفٌ يَرقُّ به...
مَن لا يرقُّ، وتبدو منه أهواءُ
ليس النسيمُ الذي يَهفُو بها سَحَراً
ولا انتشارُ لآلي الطلِّ أنداءُ
وإنما أَرَجُ النَّدِّ استثارَ بها
في ماء وَرْدٍ فطابتْ منه أرجاءُ
وأين يبلغ منها ما أُصَنِّفُهُ
وكيف يحوِي الذي حازتْهُ إحصاءُ؟
قد مُيِّزتْ من جهات الأرض حين بَدَتْ
فريدةً وتولَّى مَيْزَها الماءُ
دارتْ عليها نِطاقاً أبحرٌ خفقتْ
وَجْداً بها، إذْ تبدَّت وهْي حسناءُ
لذاك يَبْسِم فيها الزهرُ من طَرَبٍ
والطيرُ يشدو، وللأغصان إصغاءُ
فيها خلعتُ عِذاري، ما بها عِوَضٌ،
فهي الرياضُ وكلُّ الأرض صحراء

(ابن سفر المريني)

***

وعشيةٍ كم كنت أرقب وقتَها
سمحتْ بها الأيامُ بعد تعذر
فالروضُ بين مُفَضَّضٍ ومُذَهَّبٍ
والزهرُ بين مُدَرْهَمٍ ومدنَّر
والوُرْقُ تشدو، والأراكة تنثني
والشمسُ ترفُلُ في قميصٍ أصفر
والنهرُ مرقوم الأباطِح والرُّبَا
بمصَنْدَلٍ من زهره ومُعَصْفَر
وكأنه وكأن خضرةَ شطِّهِ
سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخضرِ
نهرٌ يَهيم بحُسْنه مَن لم يَهِمْ
ويُجيد فيه الشِّعرَ مَن لم يَشعُرِ
ما اصفرَّ وجهُ الشمس عند غروبها
إلَّا لفُرْقةِ حُسْن ذاك المنظر

(ابن مرج الكحل)

***

وليلٍ بِتُّ أَكْلَؤُهُ بهيمٍ
كأنَّ على مَفارِقه غُرابا
كأنَّ سماءَهُ بحرٌ خِضَمٌّ
كَسَاهُ الموجُ مُلتطماً حبَابا
كأن نجومَه الزُّهْر الهوادي
وجوهٌ أخضلتْ تبغي الثوابَا
كأن كواكب الجوزاء شَرْبٌ
تعاطيهم ولائدُهم شرابَا
كأن الفرقدين ذَوَا عتابٍ
أجَالا طول ليلهما العتابَا
كأن بقية القمر المُوَلِّي
كئيبٌ مُدْنَفٌ يشكو اجتنابا

(طاهر بن محمد)

نامَ طِفلُ النّبتِ في حِجر النُّعَامَى
لاهتزازِ الطلِّ في مَهْدِ الخُزامَى
وسقَى الوَسْمِيُّ أغصانَ النّقا
فهَوَتْ تلثُم أفواهَ النّدامى
كحَلَ الفجرُ لهم جفْنَ الدُّجَى
وغَدا في وَجْنَة الصبح لِثَامَا
تَحسَبُ البدرَ مُحَيًّا ثَمِلٍ
قد سَقَتْهُ راحةُ الصبحِ مُدامَا
حولَهُ الزهرُ كؤوسٌ قد غَدَتْ
مِسْكَةُ الليل عليهن خِتاما
(يحيى بن هذيل)

* * *

لله نهرٌ سال في بطحاءِ
أشهى وُروداً من لَمَى الحسناء
مُتعطِّفٌ مثلُ السِّوارِ، كأنه
والزهرُ يكنُفُه مَجَرُّ سماء
قد رَقَّ حتّى ظُنَّ قَوساً مُفرَغاً
من فضةٍ في بُردةٍ خضراء
وغَدَتْ تَحفُّ به الغصونُ كأنها
هُدْبٌ تَحفُّ بمُقلةٍ زرقاء
ولطالما عاطيتُ فيه مُدامةً
صفراءَ تخضِب أيديَ النّدماء
والريحُ تعبث بالغصون وقد جرَى
ذهبُ الأصيل على لجَيْن الماء
(أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة)

* * *

وقالوا...

في الخمر ومجالس الإنس والطرب والمجون

رُبَّ كأسٍ قد كسَتْ جُنْحَ الدُّجَى
ثوبَ نورٍ من سَناهَا يَقَقَا
ظَلتُ أسقيها رَشأً في لَحْظِه
سِنَةٌ تُورِث عيني أرَقَا
خَفِيَتْ للعين حتى خِلْتُهَا
تَتّقي من لَحْظه ما يُتّقَى
أشرقتْ في ناصعٍ من كَفِّهِ
كشُعاعِ الشمسِ لاَقَى الفَلَقَا
فكأنَّ الكأسَ في أَنْمُلِهِ
صُفْرةُ النرجس تعلو الوَرَقا
أصبحتْ شمساً وفُوهُ مَغْرِباً
ويَدُ الساقي المُحَيِّي مَشرِقا
فإذا ما غَربَتْ في فَمه
تركتْ في الخَدِّ منه شَفَقا
(مروان بن عبد الرحمن ـ الطليق)

* * *

وهوِيتُه يَسقي المُدامَ كأنه
قمرٌ يدورُ بكوكبٍ في مَجلسِ
مُتَأرِّجُ الحركات تَندَى ريحُهُ
كالغُصْنِ هزَّتْهُ الصَّبَا بتَنفُّسِ
يسعَى بكأسٍ في أناملِ سَوْسَنٍ
ويُدير أخرى من محاجر نَرجِسِ
عَنّا بكأسكِ، قد كَفَتْنَا مُقْلَة
حَوْرَاءُ قائمةٌ بِسُكْرِ المجلِس
(ابن عمار)

باكَرَ اللهوَ ومَن شاءَ عَتَبْ
لا يَلَذُّ العيشُ إلاّ بالطرب
ما تَوانَى مَن رأى الزهرَ زَهَا
والصَّبَا تَمرَحُ في الروضِ خَبب
يا نسيماً عطّرَ الأرجاءَ، هل
بَعثُوا ضِمْنَكَ ما يَشفِي الكُرَب
هم أَعَلُّوهُ وهم يَشفُونَهُ
لا شفاهُ اللهُ من ذاكَ الوَصَب
كلُّ هذا قد دعاني لِلّتي
مَلكتْ رِقِّي على مَرِّ الحِقب
قهوةٌ أَبْسِمُ من عُجْبٍ لها
عندما تبسِم عُجْباً عن حَبَب
حَاكتِ الخمرَ، فلمّا شعشَعتْ
قلتُ: ما للخمرِ بالماء التهبْ؟
اسْقِنيها من يَدَيْ مُشبِهِها
بالذي يَحويه طَرْفٌ وشَنَبْ
لا جعلتُ الدهرَ نُقلي غيرَ ما
لَذَّ لي من ريق ثغرٍ كالضَّرَبْ
لا جعلتُ الدهرَ رِيْحاني سوى
ما بخَدَّيْهِ من الوردِ انتُخِبْ
(أبو الحسن علي بن سعيد العنسي)

***

قُمْ فاسقني والرياضُ لاَبِسَةٌ
وَشْياً من النُّور حَاكَهُ القَطر
في مجلسٍ كالسماء لاَحَ بِهِ
من وَجهِ مَن قد هَوِيتُه بَدر
والشمسُ قد عُصْفِرتْ غَلائلُها
والأرضُ تَندَى ثيابُها الخُضر
والنهرُ مثلُ المَجرِّ حُفَّ بِهِ
من الندامَى كواكبُ زُهْرُ
(علي بن أحمد)

ولقد شربتُ الراحَ يسْطعُ نورُها
والليلُ قد مَدَّ الظلامَ رِداءَ
حتى تَبدَّى البدرُ في جَوْزَائه
مَلِكاً تَناهَى بَهْجةً وبهاءَ
وتَناهضَتْ زُهْـرُ النجوم يَحُفُّهُ
لألاَؤهـا فـاستكمـلَ اللألاءَ
لمّا أراد تَنزُّهاً في غَرْبِهِ
جعلَ المِظلّةَ فوقَهُ الجَوْزاءَ
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حولَهُ
رفعتْ ثُرَيّاها عليه لِـواءَ
وحكَيْتُهُ في الأرض بين مواكبٍ
وكواعبٍ جمَعتْ سَناً وسَناءَ
إن نَشَّرَتْ تلكَ الدروعَ حَنادِساً
مَلأتْ لنا هذي الكؤوسَ ضياءَ
وإذا تَغنَّتْ هذه في مِزْهَرٍ
لم تألُ تلك على التّريكِ غِناءَ
(المعتمد بن عباد)

***

ومُوَسِّدِينَ على الأكُفِّ خُدُودَهم
قد غَالَهُمْ نَومُ الصباحِ وغَالَني
ما زِلْتُ أَسْقِيهمْ وأشربُ فَضْلَهم
حتى سَكِرْتُ ونَالَهم ما نَالَني
والخمرُ تَعرِفُ كيف تأخذُ حَقَّهَا
إني أَمَلْتُ إناءَهَا فأمَالَني
(أبو بكر محمد ابن عبد الملك بن زهر)

***

يـقـول أخـو الـفـضـول وقـد رآنـا
عـلى الإيـمـان يـغـلبـنـا الـمـجـونُ:
أتـنـتـهـكـون شـهـرَ الـصـوم؟ هَـلاَّ
حَـمـاهُ مـنـكـمُ عـقـلٌ وديـنُ؟
فـقلت: اصحبْ سِـوانـا، نـحن قـومٌ
زَنَـادِقـةٌ مـذاهـبـنـا فـنـونُ
نَـديـنُ بـكـلِّ ديـنٍ غـيـرِ ديـنِ الـرَّ
عَـاعِ، مـا بـه أبـداً نَـديـنُ!
بِـحَيَّ عـلى الـصَّـبُـوحِ الـدهـرَ نـدعـو
وإبـليسٌ يـقـول لـنـا: أمـيـنُ
فـيـا شـهـرَ الـصـيـامِ إلـيـك عـنـا
إلـيـكَ... فـفـيـك أكـفَـرُ مـا نـكـونُ

الوزير الكاتب أحمد بن طلحة، (الذي كلفه مجونُه حياته)

* * *

في وصف القصور

قصرٌ لَو آنك قد كحلتَ بنورهِ
أعمَى لعَادَ إلى المقام بصيرًا
واشْتُقَّ من معنَى الحيَاةِ نسيمُه
فيكاد يُحدثِ للعظامِ نُشُورًا
أعْيَتْ مصانعُه على الفُرْس الألى
رفعوا البناءَ وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهورُ وما بَنْوا
لملوكهم شَبَهاً له ونظيرًا
أذكَرْتنا الفردوسَ حين أرَيْتَنا
غُرَفاً رفعتَ بناءَهَا وقُصورا
أبصرتُه فرأيتُ أبدعَ منظرٍ
ثم انثنيتُ بناظري مَحْسُورَا
وظنَنْتُ أنيَ حالمٌ في جَنَّةٍ
لما رأيتُ المُلْك فيه كبيرًا
وضراغمٍ سكنت عَرينَ رياسةٍ
تركتْ خريرَ الماء فيه زئيراً
فكأنما غَشَّى النُّضارُ جُسومَها
وأذابَ في أفواهِها البَلُّورَا
أُسْدٌ كأن سُكونَها مُتحرِّكٌ
في النفس، لو وَجدتْ هناك مُثيرًا
وتـذكَّـرَتْ فَتكـاتِهـا فكـأنمـا
أقْعَتْ على أدْبَارِها لتثُورا
وبديعةِ الثمرات تَعبُرُ نحوَها
عينايَ بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورا
شجَريّةٍ ذهبيّةٍ نَزَعَتْ إلى
سحرٍ يؤثِّر في النُّهَى تأثيرَا
قد صَوْلَجَتْ أغصانَها فكأنما
قَنصَتْ لَهنَّ من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لِوُقَّعِ طيرها
أن تستقلَّ بنَهْضِها وتطيرا

من كلِّ واقعةٍ ترَى مِنقارَها
ماءً كسَلْسَالِ اللجَيْن نميرًا
خُرْسٌ تُعَدُّ من الفِصاح فإنْ شَدَتْ
جعَلَتْ تُغرِّدُ بالمياه صفيرا
وتُريكَ في الصُّهْريج موقعَ قَطْرِهَا
فوق الزَّبَرْجَدِ لؤلؤاً منثورَا
ضحِكتْ محاسِنُه إليك كأنما
جُعِلَتْ لها زُهْرُ النجوم ثغورا
ومصَفَّحِ الأبوابِ تِبْراً نظَروا
بالنَّقْشِ فوق شُكُولِهِ تنظيرا
تَبْدُو مساميرُ النُّضَار كما عَلَتْ
فَلَكَ النُّهود من الحِسان صدورا
خلعتْ عليه غَلائلاً ورْسِية
شمسٌ تَرُدُّ الطرْفَ عنه حسيرا
وإذا نظرتَ إلى غرائبِ سقْفِهِ
أبصرتَ رَوْضاً في السماء نضيرا
وَضَعَتْ به صُنَّاعُهُ أقلامَها
فأرتكَ كلَّ طريدةٍ تصويرًا
وكأنما للشمس فيه لِيقةٌ
مَشَقُوا بها التزويق والتشجيرًا
يا مالكَ الأرض الذي أضحى له
ملْكُ السماءِ على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدَّمتْ
واستوجبَتْ لقصورك التأخيرا
فَعَمَرْتَها وملكتَ كلَّ رئاسةٍ
منها ودَمَّرْتَ العِدا تدميرا

(ابن حمديس في وصف قصر المنصور وبركة القصر بمدينة باجه)

***

وقالوا...

في النقد السياسي

ثم تمادتْ هذه الطوائفُ
تَخلُفُهمْ من آلِهِمْ خَوالِفُ
دانتْ بدِين الجَوْر والعُدولِ
إذْ سُلِبتْ عقائلَ العقولِ
فأهملوا البلادَ والعِبادَا
وعطّلوا الثغورَ والجهادَا
واشتغلتْ أذهانُهمْ بالخمرِ
وبالأغاني وسماعِ الزَّمْرِ
وزادهم في الجهل والخِذلانِ
أنْ ظاهروا عصابة الصُّلْبانِ
لِما طوتْ صدورُهم من غِلِّ
ولاختبار البعض حالَ الكُل
فاستولتِ الرومُ على البلادِ
واستعبدوا حرائرَ العبادِ
وقتلوا الرجالَ كيف شاءُوا
وضاعَ دَلْوُ الدِّين والرِّشاءُ
وإذْ أطال القومُ، أسرَى القَدَرُ
نَحْوَهُمُ خَسْفاً وما إنْ شَعروا
فإذْ أرادَ الله نصرَ الدِّين
استصرخَ الناسُ ابنَ تاشفينِ
فجاءهم كالصبح في إثْر الغَسَقْ
مُستدركاً لما تبقى من رَمَق
وَافى أبو يعقوبَ كالعُقابِ
فجَرَّدَ السيفَ عن القِرابِ
وواصل السَّيْرَ إلى الزَّلاَّقَة
وسَاقَهُ لِيَوْمِها ما ساقه
لله دَرُّ مثلِها من وقْعَه
قامتْ بنصرِ الدِّين يومَ الجمعه
وثُلَّ للشِّرْكِ هناك عَرشُهُ
لم يُغنِ عنه يومَه أدفشُه

فوجبَ الخَلْعُ لذي الخَـلاعَـه
وصَـرَّحُـوا ليوسفٍ بـالـطاعـه
واتصل الأمرُ على نظامِ
وامتد ظلُّ الله لـلإسلام
(أبو طالب عبد الجبار)

* * *

يا أهل أندلسٍ حُثُوا مَطيَكُمْ
فما المقام بها إلاّ من الغلطِ
الثوب ينسُل من أطرافه، وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
مَن جاور الشر لم يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيّات في سَفَطِ؟
(ابن الغسال)

* * *

أرى الـمـلوك أصـابـتـهـا بـأنـدلسٍ
دوائـرُ الـسـوء لا تُـبـقـي ولا تـذرُ
نـامـوا وأسـرى لهم تحت الـدجى قمـرٌ
هـوَى بـأنجمهم خسفـاً ومـا شـعـروا
وكـيـف يـشـعـر مَـن في كـفّـه قـدحٌ
يحـدو بـه مُلهيـاهُ: النـايُ والـوتـرُ؟
(أبو القاسم بن الجد)

* * *

مـمـا يـزهّـدني فـي أرض أنـدلسٍ
سمـاعُ معـتـضـدٍ فيـهـا ومعـتـمـدِ
ألـقـابُ مملـكـة في غيـر مـوضعـهـا
كـالهِرُّ يحكي انتفـاخـاً صَـوْلـة الأسـدِ
(ابن رشيق القيرواني)

وقالوا...

في رثاء المدن والممالك

لـكـلِّ شـيءٍ إذا مـا تَـمَّ نُـقـصـانُ
فـلا يُـغَـرَّ بـطِيب الـعيش إنـسـانُ
هيَ الأمـورُ ـ كـمـا شـاهَـدْتـهـا ـ دُوَلٌ
مَـن سَـرَّهُ زمـنٌ سـاءتْـهُ أزمـانُ
وهـذه الـدار لا تُـبـقـي عـلى أحـدٍ
ولا يَـدومُ عـلى حـالٍ لـهـا شـانُ
وصـار مـا كـان من مُـلْكٍ ومـن مَـلِكٍ
كمـا حكَى عن خيـال الـطيف وَسْنَـانُ
فـجـائـعُ الـدهـر أنـواعٌ مُـنَـوَّعـةٌ
ولـلـزمـان مَـسَـرَّاتٌ وأحـزانُ
ولـلـحـوادث سُـلوانٌ يُـسَـهِّـلُهـا
ومـا لـمَـا حـلَّ بـالإسـلام سُـلْوانُ
دَهَـى الـجـزيـرةَ أمـرٌ لا عـزاءَ لـه
هَـوَى لـه أُحُـدٌ وانـهـدَّ ثَـهـلانُ
أصـابَهـا العينُ في الإسـلام فـارْتَـزَأَتْ
حـتـى خـلَـتْ مـنـه أقـطارٌ وبُـلدانُ
فـاسألْ بَلَنْسِيَـةً: مـا شـأنُ مُـرْسِيَـةٍ؟
وأيـن شـاطـبـةٌ أم أيـنَ جَـيّـانُ؟
وأيـن قـرطـبـةٌ دارُ الـعـلوم، فـكـم
مِن عـالمٍ قـد سَمـا فيهـا لـه شـأنُ؟
وأيـن حِـمصٌ ومـا تَـحـويـهِ من نُـزَهٍ
ونـهـرُهـا الـعـذبُ فـيّـاضٌ ومـلآنُ؟
قـواعـدُ كُـنَّ أركـانَ الـبـلاد فـمـا
عـسَى الـبقـاءُ إذا لـم تـبـقَ أركـانُ؟
تـبكي الحنيفيّـةُ البيضـاءُ من أسَـفٍ
كـمـا بكى لـفـراق الإلْـفِ هَيْـمَـانُ
عـلى ديـارٍ مـن الإسـلام خَـالِـيَـةٍ
قـد أقـفـرتْ ولهـا بـالـكفـر عُـمـرانُ
حيث المساجدُ قـد صـارتْ كنـائسَ مـا
فـيـهـنَّ إلاّ نـواقـيسٌ وصُـلْبَـانُ

حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدةٌ
حتى المنابرُ ترْثِي وهْيَ عِيدَانُ
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ
إنْ كنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشياً مَرِحاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ
أبعدَ حِمصٍ تَغُرُّ المرءَ أوْطانُ؟
تلك المصيبةُ أنسَتْ ما تَقدَّمَها
وما لَها معَ طويلِ الدهرِ نِسْيَانُ
يا رَاكبين عِتاقَ الخيلِ ضَامِرَةً
كأنها في مجالِ السَّبْقِ عِقبَانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مُرهفةً
كأنها في ظلامِ النَّقْعِ نِيرانُ
ورَاتعينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ
لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهلِ أندلسٍ
فقد سَرَى بحديثِ القومِ ركبانُ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرَى فما يهتزّ إنسانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكُم
وأنتمُ يا عبادَ الله إخْوانُ؟
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لهَا هِمَمٌ
أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟
يا مَن لذِلّةِ قومٍ بعد عزِّهِمُ
أحالَ حالَهمُ كفرٌ وطغيانُ؟
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازِلِهِمْ
واليومَ همْ في بلادِ الكفرِ عُبدانُ!
فلو تراهم حيارَى لا دَليلَ لهم
عليهمُ من ثيابِ الذلِّ ألوانُ!
ولو رأيت بُكاهمْ عند بَيْعِهِمْ
لَهَالكَ الأمرُ واسْتَهْوَتْكَ أحزانُ!
يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهما
كما تَفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ مثلِ حُسْنِ الشمس إذْ طلعتْ
كأنما هيَ ياقوتٌ ومَرْجَانُ
يَقودُهَا العِلجُ للمكروهِ مُكرَهةً
والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْرانُ!
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ
إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ!

(أبو البقاء الرندي)

* * *

تبكي السماء بدمعٍ رائحٍ غادِ
على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ
على الجبالِ التي هُدَّتْ قواعدُها
وكانتِ الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخُذْ
في ضمِّ رَحْلِكَ واجمعْ فَضلةَ الزاد
ويا مؤمِّلَ واديهم لِيَسكُنَهُ
خفَّ القطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادي
نسيتُ إلّا غداةَ النهرِ كَوْنَهُمُ
في المُنشآتِ كأمواتٍ بألحادِ
حُطَّ القِناعُ فلم تُستَرْ مُخَدَّرةٌ
ومُزِّقتْ أوْجُهٌ تمزيقَ أبرادِ
تفرَّقوا جيرةً من بعدِ ما نشأوا
أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حانَ الوداعُ فضجّتْ كلُّ صارخةٍ
وصارخٍ من مُفَدَّاةٍ ومن فَادي
سارتْ سفائنُهم والنَّوْحُ يتبَعُها
كأنها إبلٌ يَحدُو بها الحادي
كم سَالَ في الماء من دمعٍ وكم حَمَلت
تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكبادِ
مَن لي بكم يا بني ماءِ السماءِ إذا
ماءُ السماءِ أبَى سَقْياً حشَى الصادي؟

(الوزير أبو بكر محمد بن عيسى - ابن اللبانة)

من الموشحات

عبثَ الشوقُ بقلبي فاشتكى
ألَمَ الوَجْدِ فلَبَّتْ أدْمعي

* * *

أيها الناسُ فؤادي شَغِفُ
وهْو مِن بَغْيِ الهوَى لا يُنصَفُ
كم أُدارِيهِ ودمعي يَكِفُ
أيها الشادنُ مَن علَّمكا
بسِهام اللحظِ قتلَ السَّبُعِ؟
بَدْرُ تِمٍّ تحت ليلٍ أغْطَشِ
طالعٌ في غُصْنِ بانٍ مُنْتشِي
أهيفُ القَدِّ بِخَدٍّ أرْقشِ
ساحرُ الطرفِ وكم ذَا فتَكا
بقلوب الأسْدِ بين الأضْلُعِ

* * *

أيُّ ريمٍ رُمْتُه فاجْتَنَبا
وانثنى يَهتزُّ من سُكْرِ الصِّبَا
كقضيبٍ هَزَّهُ ريحُ الصَّبا؟
قلتُ: هَبْ لي يا حبيبي وَصْلَكا
واطْرحْ أسبابَ هَجْري ودَعِ

* * *

قالَ: خَدِّي زَهْرُهُ مُذْ فُوِّفا
جَرَّدَتْ عَيْنَايَ سَيْفاً مُرْهَفا
حَذَراً منه بأن لا يُقْطَفا
إنَّ مَن رَامَ جَنَاهُ هَلَكا
فأزِلْ عنك عِلالَ الطمعِ

* * *

ذَابَ قلبي في هَوى ظَبيٍ غَريرْ
وَجْهُه في الدُّجْن صُبحٌ مستنيرْ
وفؤادي بين كفَّيْهِ أسِيرْ
لم أجِدْ للصبر عنه مَسْلَكاً
فانتصاري بانْسِكَابِ الأدْمُعِ

(ابن بقي)

* * *

هل دَرَى ظَبيُ الحِمَى أن قد حَمَى
قلبَ صَبٍّ حَلّهُ عن مَكْنَسِ
فهْوَ في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما
لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بالقَبَسِ

* * *

يا بُدوراً أطْلعتْ يومَ النَّوَى
غُرَراً تسْلُكُ في نَهْجِ الغرَرْ
ما لقلبي في الهوَى ذَنْبٌ سوى
منكمُ الحسْنُ ومن عيني النظرْ
أجْتَني اللذاتِ مَكلومَ الجَوَى
والتذاذي من حبيبي بالفِكَرْ
كلّما أشكوهُ وَجْداً بَسَما
كالرُّبَا بالعارضِ المُنْبَجِسِ
إذْ يُقيمُ القَطْرُ فيها مأتما
وهْيَ من بَهْجَتِهَا في عُرُس

* * *

غالبٌ لي غالبٌ بالتُّؤَدَهْ
بأبي أفْدِيهِ من جَافٍ رَقِيقْ
ما رأَينا مثلَ ثَغْرٍ نَضَدَهْ
أُقحُواناً عُصِرَتْ منه رَحِيقْ
أَخَذتْ عَيناهُ منه العَرْبَدَهْ
وفؤادي سُكْرَهُ ما إنْ يُفيق

فَاحِمُ الجُمّةِ مَغسولُ اللّمَى
أكْحَلُ اللحْظِ شَهِيُّ اللّعَسِ
وَجْهُهُ يَتْلو الضُّحَى مُبْتَسِمَا
وهْو من إعراضِه في عَبَسِ

* * *

أيُّها السائلُ عنْ ذُلِّي لَدَيْهْ
لي جَزاءُ الذنْب وهْو المذْنِبُ
أخذَتْ شمسُ الضُّحَى من وَجْنَتَيْه
مَشْرِقاً للصَّبِّ فيه مَغرِبُ
ذهبتْ أدمُعُ أجفاني عَلَيْهْ
وله خدٌّ بلحْظِي مُذْهَبُ
يَطْلعُ الوردُ بغَرْسي كُلّما
لاَحَظتْهُ مُقلتي في الخُلَسِ
ليت شِعري أيُّ شيءٍ حَرّمَا
ذلك الوردَ على المغترِسِ؟

* * *

كُلّمـا أشكو إليـه حُرَقي
غـادَرَتْـني مُـقْـلتـاهُ دَنِـفَـا
تركتْ ألحاظُه من رَمَقي
أثَرَ النّمْلِ على صُمِّ الصَّفَا
وأنـا أشكـرهُ فيمـا بَقِي
لستُ ألحَاهُ على ما أتْلَفَا
فهْو عندي عادلٌ إنْ ظَلَمَا
وعَـذُولي نُـطقُـهُ كـالخَـرَسِ
ليس لي في الحب حُكْمٌ بعدَمَا
حَلَّ من نَفْسِي مَحَلَّ النّفَسِ
منه للنارِ بأحْشَائِي اضطرام
يَلْتظِي في كل حينٍ ما يَشَا
وهْيَ في خَدَّيْهِ بَرْدٌ وسَلامْ
وهْيَ ضُرٌّ وحريقٌ في الحَشَا
أتقِي منه على حُكْمِ الغَرامْ
أسَدَ الغابِ وأهـواهُ رَشَا

قلتُ لمّا أنْ تبدَّى مُعْلَما
وهْو من ألحَاظِهِ في حَرَسِ:
أيُّها الآخذُ قلبي مَغْنَمَـا
اجْعَلِ الوصلَ مكانَ الخُمُسِ
(ابن سهل الإسرائيلي)

* * *

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى
يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكنْ وَصْلُك إلاّ حُلُمَا
في الكَرَى أو خُلْسَةَ المخْتَلِسِ

* * *

إذْ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنَى
نَنْقُلُ الخَطْوَ على ما تَرسُمُ
زُمَـراً بين فُـرادَى وثُنَـا
مثلما يدعو الحَجيجَ المَوْسِمُ
والحَيَا قد جَلَّلَ الروضَ سَنَا
فثغـورُ الزهـرِ فيـه تَبْسِمُ
ورَوَى النُّعْمَانُ عن ماءِ السّمَا
كيف يَرْوِي مَالكٌ عن أنَسِ
فكَسَاهُ الحسْنُ ثوباً مُعْلَمَا
يَزْدهِي منه بأبْهَى مَلْبَسِ

* * *

في ليالٍ كتمتْ سِرَّ الهوَى
بالدُّجَى لولا شُمُوسُ الغُرَرِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهَوَى
مُستقيمَ السّيْرِ سَعْدَ الأثَرِ
وَطَرٌ ما فيه من عَيْبٍ سِوَى
أنـه مَـرَّ كلَمْـحِ البَصَـرِ

حينَ لَذَّ النومُ شيئاً أو كَمَا
هجَمَ الصبحُ هجوم الحَرَسِ
غَارتِ الشُّهبِ بِنَا أو رُبَّما
أثّرتْ فينا عيونُ النّرجِسِ

* * *

أيُّ شيءٍ لامْرِىءٍ قد خلَصا
فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيهْ؟
تَنْهَبُ الأزهارُ فيه الفُرَصَا
أمِنَتْ من مَكْرِهِ ما تَتّقِيهْ
فإذا الماءُ تَناجَى والحَصَا
وخلَا كل خليلٍ بأخِيهْ
تُبصِرُ الوردَ غَيوراً بَرِمَاً
يَكْتَسِي من غَيْظِهِ ما يَكتَسِي
وتَرى الآسَ لَبيباً فَهِمَاً
يَسرِقُ السّمْعَ بِأُذْنَيْ فَرَسِ

* * *

يا أُهَيْلَ الحَيِّ مِن وَادي الغَضَا
وبقلبي مَسْكَنٌ أنتمْ بِـه
ضاقَ عن وَجْدِي بِـكم رَحْبُ الفَضَا
لا أبَالي شَرْقَه من غَرْبِهِ
فأعيدوا عهدَ أُنْسٍ قد مَضَى
تُعْتِقُوا عبدكُمُ من كَـرْبِهِ
واتّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْـرَماً
يتلاشَى نَفَساً في نَفَسِ
حَبَسَ القلبَ عليكم كَرَمَا
أفتَـرضَـوْنَ عَفَـاءَ الحُبُسِ؟

* * *

وبِـقـلبي مـنـكـمُ مُـقْـتَـرِبُ
بأحاديثِ المُنَى وهْو بَعيدْ
قمرٌ أطْلعَ منه المَغربُ
شِقْوَةَ المُضْنَى به وهْو سعيدْ
قد تَساوَى مُحْسِنٌ أو مُذْنِبُ
في هَوَاهُ بينَ وَعْدٍ ووَعِيدْ
أحْوَرُ المُقْلَةِ مَعْسُولُ اللّمَى
جالَ في النفْسِ مَجالَ النّفَسِ
سَدَّدَ السّهْمَ فأصْمَى إذْ رمَى
بـفؤادي نَـبْـلَةَ الـمُـفْـتَـرِسِ

* * *

إنْ يكنْ جارَ وخابَ الأملُ
ففؤادُ الصّبِّ بالشوقِ يذوبْ
فهو للنّفسِ حبيبٌ أوّلُ
ليس في الحُبِّ لمحبوبٍ ذُنُوبْ
أمْـرُهُ مُـعْـتَـمَـلٌ مُـمْـتَـثَـلُ
في ضُلوعٍ قد بَرَاهَا وقلوبْ
حكّمَ اللحظَ به فاحْتَكَمَا
لم يُراقِبْ في ضِعَافِ الأنفُسِ
يُنصِفُ المظلومَ ممن ظلما
ويُجازِي البَرَّ منها والمُسِي

* * *

ما لقلبي كُلّما هَبّتْ صَبَا
عَادَهُ عيدٌ من الشوق جديدْ؟
جلبَ الهَمَّ لـه والوَصَبَـا
فهو للأشجان في جَهْدٍ جَهيدْ
كان في اللّوْحِ له مُكْتَتَبَا
قـولـه: «إنَّ عَذابي لشديدْ»
لَاعِجٌ في أضْلُعِي قد أُضْرِمَا
فهْيَ نارٌ في هَشيمِ اليَبَسِ
لم يَدَعْ في مُهْجَتي إلّا ذِمَاَ
كبقاءِ الصبح بعدَ الغَلَسِ

* * *

سَلِّمي يا نَفْسُ في حُكْمِ القَضَا
وَاعْمُرِي الوقتَ بِـرُجْعَـى ومَتَابْ

وذِكرِي ذكرَ زمانٍ قد مَضَى
بين عُتْبَى قد تقضَّتْ وعِتاب
واصرِفِي القولَ إلى المولَى الرِّضَى
مُلْهِمِ التوفيقِ في أمِّ الكتابْ
الكـريمِ المُنْتَهى والمُنْتَمَى
أسَدِ السَّرْجِ وبَدْرِ المجلِسِ
يُنزَلُ النَّصْرُ عليه مثلما
يُنزَلُ الوَحْيُ بِرُوحِ القُدُسِ

* * *

مُصطَفَى الله سَمِيُّ المُصطَفَى
الغنيِّ بالله عن كلِّ أحَدْ
مَن إذا ما عَقَدَ العهدَ وفَى
وإذا ما فُتِحَ الخطبُ عَقَدْ
مِن بني قيسِ بن سَعْدٍ وكَفَى
حيثُ بيتُ النصرِ مَرفوعُ العَمَدْ
حيثُ بيتُ النصرِ مَحْمِيُّ الحِمَى
وجَنَى الفضلِ زكيُّ المَغْرِسِ
والهوى ظِلٌّ ظليلٌ خَيَّمَا
والنَّدى هَبَّ إلى المُغْتَرِسِ

* * *

هَاكَها يا سِبْطَ أنصارِ العُلَى
والذي إنْ عَثَرَ الدهرُ أقالْ
غادةً ألْبَسَها الحُسْنُ مُلا
تَبْهَرُ العينَ جلاءً وصِقالْ
عارضَتْ لفظاً ومَعنىً وحُلَى
قولَ مَن أنطقَهُ الحُبُّ فقالْ:
«هل درى ظبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى
قلبَ صَبٍّ حَلَّهُ عن مكنس
فهو في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما
لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بالقَبَسِ»

(لسان الدين بن الخطيب)

أيُّها الساقي إليكَ المُشْتَكى
قد دَعَوْنَاكَ وإنْ لم تَسمعِ
ونـديـمٍ هِـمْـتُ فـي غُـرَّتِـهِ
وبـشـربِ الـراحَ مـن رَاحَـتِـهِ
كـلـمـا استـيـقظَ مـن سَـكْـرَتِـهِ
جَـذَبَ الزقَّ إليـه وَاتَّكَا
وسقاني أرْبعاً في أربعِ

* * *

غُصْنُ بَانٍ مالَ من حيثُ اسْتَوى
بَاتَ من يَهْواهُ من فَرْطِ الجَوَى
خَفِقَ الأحشـاءِ مَـوْهُـونَ الـقُـوَى
كلما فكَّرَ في البينِ بكَى
وَيْحَهُ يبكي لما لم يَقعِ!

* * *

مـا لِعَيْـنِـي عَـشِيَـتْ بـالـنَّظَرِ؟
أنْـكَـرَتْ بَـعْـدَكَ ضَـوْءَ الـقـمـرِ
وإذا مـا شئتَ فـاسـمـعْ خَبَـري
عَشِيَتْ عينايَ من طولِ البُكَا
وبكَى بَعْضِي على بَعْضِي مَعي

* * *

ليس لي صَبْرٌ ولا لي جَلَدُ
يـا لَـقَـوْمٍ هَـجـرُوا واجـتـهـدُوا
أنـكـروا شـكـوايَ مـمـا أجِـدُ
إنَّ مثلي حَقُّه أن يشتكي
كَمَدَ اليأسِ وذُلَّ الطَّمَعِ

* * *

كَـبِـدٌ حَـرَّى ودمـعٌ يَـكِـفُ
يـعـرِفُ الـذنـبَ ولا يَـعـتـرِفُ
أيُّـهـا الـمُـعـرِضُ عـمَّـا أصِـفُ
قد نَمَا حُبُّكَ عندي وزَكَا
لا تقلْ في الحُبِّ إني مُدَّعي

(ابن زهر)

شابَ مِسْكَ الليلِ كافورُ الصباحْ
وَوَشَتْ بالروضِ أعرافُ الرياحْ

* * *

فاسْقِنِيها قبلَ نورِ الفَلَقِ
وغِناءِ الوُرْقِ بينَ الوَرَقِ
كاحمرارِ الشمسِ عند الشَفَقِ
نَسَجَ المَزْجُ عليها حينَ لاحْ
فلَكَ اللّهوِ وشمسَ الإصْطِباحْ

* * *

وغَزالٍ سَامَني بالمَلَقِ
وبَرى جِسْمي وأُذكى حُرَقي
أهْيَفٌ عنه مشاهيرُ الصِّفاحْ
وانْثَنَتْ بالذُّعْرِ أغصانُ الرِّماحْ

* * *

صارَ بالذُّلِّ فؤادي كَلِفَا
وجُفوني ساهراتٍ وُطُفَا
كلما قلتُ: جَوى الحُبِّ انْطَفا
أمْرضَ القلبَ بأجْفانٍ صِحَاحْ
وَسبى العقلَ بجِدٍ ومِزَاحْ

* * *

يُوسُفيُّ الحُسْنِ عَذْبُ المُبْتَسَمْ
قَمَريُّ الوَجْهِ لَيْليُّ اللِّمَمْ
عَنْتَريُّ البأسِ عَبْسيُّ الهِمَمْ
غُصْنيُّ الوَصْلِ مَهْضُومُ الوِشَاحْ
مَادِرِيُّ الوَصْلِ طَائيُّ السَّمَاحْ

* * *

قَدَّ بالقَدِّ فؤادي هَيَفَا
وَسبى عَقلي لمّا انعطَفا
ليتَه بالوَصْلِ أحْيا دَنِفَا
مُسْتطارَ العقلِ مقصوصَ الجَناحْ
ما عليه في هَواهُ مِن جُناحْ

* * *

يا عليٌّ أنتَ نُورُ المُقبِلِ
جُدْ بوصلٍ منك لي يا أمَلي
كم أُغنّيكَ إذا ما لُحْتَ لي:
طَرَقَتْ والليلُ مَمْدُودُ الجَنَاحْ
مَرْحَباً بالشمسِ من غيرِ صبَاحْ

(محمد بن عبد الملك بن زهر)

* * *

وقالوا...

في الاستغاثة

أدرِكْ بخيلكَ خيلِ الله أَنْدَلُسَا
إنّ السبيل إلى مَنجاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما الْتَمَسَتْ
فلم يزل منك عِزُّ النصر مُلْتَمَسَا
يا لَلجزيرة أضحى أهلُها جَزَراً
للحادثاتِ، وأمسَى جَدُّها تَعِسا
في كل شارقة إلمامُ بائقةٍ
يعود مَأتمُها عند العِدَا عُرُسَا!
وفي بَلنسيةٍ منها وقُرْطُبةٍ
ما يَنسِفُ النفسَ أو ما ينزف النَّفَسَا
مدائنٌ حَلّها الإشراكُ مُبتسماً
جذلانَ، وارتحلَ الإيمان مُبْتَئِسا
وصيَّرَتْها العوادي العائثاتُ بها
يَستوْحِشُ الطَّرْفُ منها ضِعفَ ما أَنِسا
يا لَلْمساجدِ عادتْ للعِدَا بِيعاً
وللنداءِ غدَا أثناءَهَا جَرَسَا
لَهْفي عليها إلى استرجاعِ فائتِها
مَدارساً للمثاني أصبحتْ دُرُسَا

* * *

وَارْبُعاً نَمْنَمَتْ أيدي الربيع لها
ما شئتَ من خِلَعٍ مَوْشيّةٍ وكسَا
كانتْ حدائقَ للأحداق مُونِقةً
فصَوَّحَ النضْرُ من أدواحِها وعَسَا
سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفر واحرَبَا
عَيْثَ الدَّبىَ في مغانيها التي كبسَا
فأين عيشٌ جنيناهُ بها خَضِراً
وأين غُصْنٌ جَنَيْناهُ بها سَلِسَا؟
مَحَا محاسِنَها طاغٍ أُتيحَ لها
ما نامَ عن هضمها حِيناً وما نَعَسَا

* * *

صِلْ حبلَها أيها المولى الرحيمُ فما
أبقَى المِراسُ بها حبلاً ولا مَرَسَا
وأَحْيِ ما طَمَسَتْ منها العُداة كما
أَحْيَيْتَ من دعوةِ المهديِّ ما طَمَسَا
أيامَ سِرتَ لنَصْرِ الحق مُسْتَبِقاً
وبِتَّ من نور ذاكَ الهَدْيِ مُقتبِسَا
وقمتَ فيها بأمر الله منتصراً
كالصارِمِ اهتزَّ أو كالعارضِ انبجَسَا

* * *

هذي رسائلُها تدعوك من كَثَبٍ
وأنت أفضلُ مرجوٍّ لمَن يَئِسَا
تَؤُمُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي
حفصٍ مُقَبِّلَةً من تُربِهِ القُدُسَا
يا أيها الملكُ المنصورُ أنت لها
علياءُ تُوسِعُ أعداءَ الهُدَى تَعَسَا
وقد تواترتِ الأنباءُ أنك مَن
يُحيي بقتل ملوكِ الصُّفْر أندلُسَا
طَهِّرْ بلادك منهم إنهم نَجَسٌ
ولا طهارةَ ما لم تَغسِل النَّجَسَا
وأَوْطِيءِ الفَيْلَقَ الجرَّارَ أرضَهم
حتى يُطأْطِئَ رَأساً كلُّ مَن رَأسَا
وانصر عبيداً بأقصى شَرْقِها شَرِقَت
عيونُهم أدْمُعاً تَهمي زَكاً وخَسَا
هُم شيعةُ الأمرِ وهي الدارُ قد نُهِكَتْ
داءً، متى لم تُباشِرْ حَسْمَه انتكسا
فـاملأْ هنيئاً ـ لك التأييدُ ـ ساحتَها
جُرْداً سَلاهِبَ أو خَطِّيَّةً دُعُسَا
واضربْ لها مَوعداً بالفتح ترقُبه
لعل يومَ الأعادي قد أتى وعَسَى

(الأمير زيان ابن الأبار بن أبي الحجاج مستنجداً بسلطان تونس)

* * *

نادتْكَ أندلسٌ فلَبِّ نِداءَهـا
واجعلْ طَواغِيتَ الصليبِ فداءَهَا
صرختْ بدعوتكَ العَلِيَّةِ فاحْبُها
مِن عاطفاتكَ ما يَقِي حَوْبَاءَهَا
وبها عبيدُكَ لا بقاءَ لهم سوى
سُبُلِ الضَّراعة يسلكون سَواءَهَا
دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعُونِها
فهمُ الغَداةَ يصابرون عَناءَهَا
تلكَ الجزيرةُ لا بقاءَ لها إذا
لم يضمنِ الفتحُ القريبُ بقاءَهَا
أشفى على طرَف الحياة ذَماؤُها
فاستبقِ للدِّين الحنيفِ ذَمَاءَهَا
حاشاكَ أن تَفنَى حُشَاشَتُها وقد
قصَرَتْ عليك نِداءَها ورجاءَها

* * *

إيهِ بلنسيةٌ وفي ذكراك ما
يُمرِي الشؤونَ دماءَها لا ماءَها
بأبي مدارسُ كالطلول دوارسٌ
نَسخت نواقيسُ الصليب نِداءَها
ومصانعٌ كسَفَ الضلالُ صَباحَها
فيخالُه الرَّائي إليه مَساءَها
أمّا العلوجُ فقد أحالوا حالَها
فمَن المطيقُ علاجَها وشفاءَها؟
مولايَ هاكَ مُعـادةً أنباءَهـا
لتُنيلَ منك سعادةً أبناءَها
جَرِّدْ ظُبَاكَ لِمَحْو آثار العِدَا
تقتلْ ضراغمَهـا وتَسْب ظِباءَها
واستدعِ طائفةَ الإمامِ لِغزْوها
تسبِقْ إلى أمثالها استدعاءَهَا

* * *

هُبّـوا لهـا يا معشـر التـوحيد قد
آنَ الهبـوبُ وأحـرِزُوا علياءَهَا
أَوْلُوا الجزيرةَ نُصْرةً إن العِدَا
تبغي على أقطارها استيلاءَهَا
نُقِصَتْ بأهل الشرك من أطرافها
فاستحفِظوا بالمسلمين نَمَاءَها
خُوضُوا إليها بحرَها يُصبحْ لكم
رَهْواً وجُوبوا نحوَها بَيْداءَها
وَافَى الصريخ مُثوِّباً يدعو لها
فَلْتَجْمِلُوا قصدَ الثوابِ ثَواءَها
دارُ الجهاد فلا تَفُتكم ساحةٌ
ساوت بها أحياؤُها شهداءَها

(صاحب بلنسية، يستنجد بسلطان يونس)

* * *

هل من معين في الهوَى أو مُنجِدِ
من مُتْهِمٍ في الأرض أو مِن مُنْجِدِ؟
هذي سبيل الرشد قد وضَحَتْ فهل
بالعُدْوَتَيْن من امرىء مسترشِدِ؟
هذا الجهادُ رئيسُ أعمال التقى
خُذْ منه زادَكَ لارتحالك تَسْعَدِ
هذا الرباطُ بأرض أندلسٍ، فَرُحْ
منه لما يُرضي إلَهَكَ واغْتَدِ
مَن ذا يُطهِّر نفسَـه بعريمة
مَشْحُوذَةٍ في نَصْرِ دينِ محمدِ؟

* * *

كم جامعٍ فيها أعيدَ كَنِيسةً
فَاهْلِكْ عليه أسىً ولا تتجلَّدِ
أسَفاً عليها أقفرتْ صلواتُها
من قانتين وراكعين وسُجَّدِا
كم من أسيرٍ عندهم وأسيرةٍ
وكلاهما يبغي الفداءَ فما فُدِي!

كم من عقيلةِ مَعْشرٍ معقولةٍ
فيهم تودُّ لو أنّها في مَلْحَدِ
كم من تَقِيٍّ بالسلاسل مُوثَقٍ
يبكي لآخَرَ في الكُبُول مُقَيَّدِ
وشهيدِ مُعترِكٍ توزَّعَهُ الرَّدَى
ما بين حَدَّيْ ذابلٍ ومُهنَّدِ
ضجَّتْ ملائكةُ السماء لحالهم
وبكَى لهم من قلبُه كالجَلْمَدِ
أفلا تذوب قلوبُكم إخوانَنا
مما دَهَانَا من رَدىً أو من رَدِي؟
أكذا يَعيث الرومُ في اخـوانكـم
وسيوفكم للثأر لم تُتَقلَّدِ؟
أنبي مَرِيتٍ أنتمُ جيـرانُنـا
وأحقُّ مَن في صرخةٍ بهمُ ابْتُدِي

* * *

أبـني مَرِيـنٍ والقبائـلُ كلُّهـا
في المغرب الأدنى لنا والأبعدِ
كُتِب الجهادُ عليكمُ فتبادروا
منه إلى الفرضِ الأحقِّ الأوكدِ
هذي الثغُور بكم إليكم تشتكي
شكوَى العديم إلى الغنّي الأوحد
ما بَالُ شَمْلِ المسلمين مُبَدَّداً
فيها، وشَمْلِ الضدِّ غير مُبَدَّدِ؟
أنتم جيوش الله ملء فضائه
تأسَوْن للدِّين الغريب المفرد
ماذا اعتذارُكُم غـداً لنبيِّكم
وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ مُمهّدِ؟

(أبـو عمـر المرابـط)، باسـم سيده ابـن الأحمـر، يستنجد فيها بالسلطان يعقوب

* * *

أحقّاً خَبَا من جَوِّ رُندَةَ نُورُها
وقد كُسِفَتْ بعدَ الشموسِ بُدورُها؟
وقد أظلمتْ أرجاؤُها وتزَلْزَلتْ
مَنازِهُها ذاتُ العُلا وقُصورُها؟
أحقّاً خليلي أنَّ رُندةَ أقفرتْ
وأزعِجَ عنها أهلها وعَشيرُها؟
وهُدَّتْ مَبانيها وثُلّتْ عُروشُها
ودارتْ على قطب التفرُّق دُورُها؟
تَسلَّمَها حِزبُ الصليب وقادَها
وكانت شَروداً لا يُقادُ نَفُورُها
فبادَ بها الإسلام حتى تقطّعتْ
مناسبها واستأصلَ الحقَّ زُورُها
وأصبحت الصُّلبانُ قد عُبِدَتْ بها
تماثيلُها دُون الإلَهِ وصُورُها

* * *

فواحَسْرَتَا كم من مساجدَ حُوِّلَتْ
وكان إلى البيت الحرام شُطورَها!
فمِحرابُها يشكو لمنبرها الجَوى
وآياتُها تشكو الفراقَ وسُورُها

* * *

ويا مِلّةَ الإسلام هل لكِ عَودةٌ
لأرجائها يشفي الصدورَ صُدورُها؟
وهل تسمع الآذانُ صوتَ الأذانِ في
معالمها يعلو بذاك عَقِيرُها؟
ويا لَعزاء المؤمنين لِفَاقةٍ...
على الرغم أغنَى مَن لديها فقيرُها
لأندلسَ ارتجّتْ لها وتَضَعْضَعَتْ
وحَقَّ لدَيْها مَحْوُها ودُثُورُها
مَنـازِلُهـا مَصْـدورةٌ وبِـطاحُهـا
مـدائنُهـا مَـوْتُـورةٌ وثُغُـورُهـا
تَهـائِمُهـا مَفجـوعـةٌ ونُجـودُهـا
وأحجارُها مَصدوعةٌ وصُخورُها

وأحياؤها تُبدي الأسَى وجَمادُها
يكاد لفَرْطِ الحُزن يَبدو ضميرُها
علىٰ فُرْقة الدِّين الذي جاءَها به
بشيرُ الأنام المصطفى ونذيرُها

* * *

أضَعْنا حقوقَ الربِّ حتى أضاعنا
وقُضَّتْ عُرَى الإسلام ألاّ يسيرُها
وملّتُنا لم نَعرف الدهرَ عُرْفَها
من النُّكْر، فانظرْ كيف كن نكيرُها
بِشقْوَتِنا الخِذْلانُ صاحَبَ جَمْعَنا
وبؤْنا بأحوالٍ ذَميمٍ حُضورُها
بِعِصْيانِنا استولَى علينا عَدُوُّنا
وعَاثَتْ بنا أُسْدُ العِدَا ونُمورُها
نَعمْ سلبوا أوطانَنا ونفوسنا
وأموالنا فَيْئاً أُبيحَتْ وُفورُها
عَلَوْها بلا مَهْرٍ وما غُمِزَتْ لهم
قَناةٌ، ولا غارتْ عليهم ذُكورُها
وقد عَوَتِ الإفرنجُ من كلِّ شاهقٍ
علينا، فوَقّتْ للصليبِ نُذورُها
وجاءت إلى استئصال شأفَةِ ديننا
جيوشٌ كموج البحر هبّت دبورُها
معاشر أهل الذين هبّوا لِصعْقَةٍ
وصاعقةٍ وارى الجسوم ظُهورُها
أصابتْ مَنارَ الدِّين فانْهَدَّ رُكْنُه
وزعزع من أكنافه مُستطيرُها
ودَبّتْ أفاعيها إلى كلِّ مؤمنٍ
وعَضَّ بأكبادِ التُّقاةِ عَقُورُها
أُنادِي لها عُجْمَ الرجال وعُرْبَها
نِداءَ سُراةِ القَفْرِ إذْ ضَلَّ عِيرُها
وأستنفرُ الأدنَى فالادنى فريضةً
على زُمَرِ الإسلام جلّتْ أُجورُها
ألاّ وارجعوا يا آلَ دِينِ محمدٍ
إلى الله يغفر ما اجترحتم غَفُورُها
ومن كلِّ ما يُردِي النفوسَ تطهّروا
فليس يُزكّي النفسَ إلاّ طُهورُها
ألاّ واستعدوا للجهاد عزائماً
يَلوحُ على ليلِ الوغى مُستطيرُها
بأسْدٍ على جُرْدٍ من الخيل سُبَّقٍ
يَدُعُّ الأعادي سَبْقُها وزئيرُها
بأنفسِ صدق مُوقناتٍ بأنها
إلى الله من تحت السيوف مَصيرُها
يَمينُ هُدىً إنْ تتقوا الله تُنصَروا
وتَحْظَوا بآمالٍ يَشوق غَريرُها
فلا يَخذلُ الربُّ المهَيْمن أُمّةً
تدين بدِين الحقّ وهو نصيرُها
وإن أنتمُ لم تفعلوا فترَقّبوا
بوادرَ سُخطٍ ليس يُرجى فُتورُها
وأيامَ ذُلٍّ واهتضامٍ وفُرقةٍ
يطاول آناءَ الزمان قصيرُها
وليس لها يا كاشفَ الكَرْبِ ملجأٌ
إذا لم يكن منك التلافي ظهيرُها
أغِثْ دعواتِ المستغيثين إنهم
ببابك مَوْقوفو الحُشاشاتِ بُورُها
دعَوناك، أمّلناك، جئناك خُشّعاً
بأنفسٍ استولَى عليها قُصورُها
فأرسلْ على هذا العدوِّ رَزِيّةً
يروح ويغدو بالبَوارِ مُبيرُها
يُشَتِّتُ شملَ الكفر تشتيتَ نِقمةٍ
وَينظِم شَمْلَ المسلمين حصيرُها

(لشاعر مجهول)

* * *

وقالوا...

من الزجل

وهو فن ابتدعه الأندلسيون وقالوه في مختلف المناسبات وشاع بين الخاصة والعامة لسهولة نظمه وفهمه، وهو لا يخضع في نظمه لقواعد النحو والإعراب، كما أنه بعيدٌ عن التكلف والتنميق.

دنيا هي كما تراها فاجتهدْ واربحْ زمانَكْ
كلّ يوم وكلّ ليلة لا تُخلّي مهرجانَكْ
واشتفي عليه من قبل أن يجيء الموت في شانكْ
لَسْ ذي عندك مصيبة والدنيا حَيّا؟

* * *

ساعَ دون شُرَيبَ عندي لا شَكَل. ولا ملاحه
وأشْ يوم بلا رقاعه وأشْ يوم بلا وقاحه؟
لَسْ نعدّ اللذّ لذه ولا يَذّ الراحَ راحه
حتى تدخل شفة الكاسْ بالشراب بين شفتيّا

ابن قزمان، (إمام الزجّالين ـ في الخمر)

* * *

ثلاث أشيا في البساتينْ
لَسْ تُجَدْ في كلِّ موضعْ
النّسيمْ والخضرَ والطيرْ
شِمّ وَاتْنَزَّه وإسْمَعْ
قُمْ تَرَى النّسيم يُوَلْوِل
والطيورْ عَلَهْ تِغَرِّدْ
والثمارْ تُنثُرْ جَوَاهِرْ
في بِسَاطْ مِن الزُّمُرُّدْ
وبوَسْطِ المرجِ الأخْضَرْ
سقي كالسيفِ المُجرَّدْ
شُبِّهتْ بالسيف لَمّا
شفِتْ الغديرْ مدَرَّعْ

* * *

ورذاذاً دقّ ينزِلْ
وشعاعِ الشمسِ يِضْرَبْ
فترَى الواحِدْ يِفَضَّضْ
وتَرى الآخرْ يذهَبْ
والنباتْ يشربْ ويسْكَرْ
والغصونْ تُرقصْ وتِطرَبْ
وتريدْ تِجي إلينا
ثُمّ تِستَحي وتِرْجَعْ

مدغليس ، (في وصف الطبيعة)

* * *

والثمارْ تنشرْ حليّه
بثياب بحَلْ زبَرْجَدْ
والرياضْ تلبسْ غِلالاً
من نبات فَحلْ زُمرد
والبُهارْ مع البنفسجْ
يا جمال أبيض فأزرقْ

* * *

والندَى والخيرِ والآسْ
والراحْ والظلّ وَالْما
والمليح خلطي مُهاوِدْ
والرقيب أصمّ أعمى
وزْميرْ من فمّ ساحرْ
وغُنا من كفّ سلمى
والزجاجْ مِليحْ مِجزَّعْ
والشرابْ أصفرْ مروّقْ

* * *

يا شراباً مُرّ ما أحلاك!
علقم أتْ ممزوج بسكّرْ
بالذي رَزَقَن حبّك
من نشرْ عليك جوهر؟
وترى لشْ تشتكي ضُرّ؟
لشْ نراك رقيق أصفر؟
ما أظن إلاّ ألمْ بيكْ
أو مليحْ لا شك تَعشقْ
ابن قزمان، (في الطبيعة والخمر)

***

مَن وَلي
في أُمّة أمراً ولم يعْدل
يُعزَلِ
إلاّ لحاظَ الرَّشا الأكْحلِ

***

جُرْتَ في
حُكْمكَ في قتْليَ يَا مُسْرِفُ
فَانْصِفِ
فواجبٌ أن يُنصَفَ المنصفُ
وارأفِ
فإن هذا الشوقَ لا يَرأَفُ
عَلّلِ
قلبي بذاكَ البارد السلْسَلِ
يَنْجَلي
ما بفؤادي من جوى مُشْعَلِ

***

إنّما
تَبْرُزُ كي تُوقِدَ نارَ الفِتَنْ
صَنَمَا
مُصَوَّرَاً في كلِّ شيء حَسَنْ
إنْ رَمَى
لم يُخطِ من دون القلوبِ الجُنَنْ

كيف لي
تَخلُّصٌ من سَهمِكَ المُرسَلِ
فَصِلِ
واسْتَبْقِني حَيّاً ولا تقتلِ

***

يا سَنَا
الشمسِ ويا أبهى من الكوكبِ
يا مُنَى
النفس ويا سُؤْلي ويا مَطْلَبي
هَا أنَا
حَلَّ بأعدائك ما حَلَّ بي!
عُذَّلِي
مِن ألمِ الهِجران في مَعْزِلِ
والخَلِي
في الحُبّ لا يسأل عَمَّنْ

***

أنتَ قدْ
صَيّرْتَ بالحُسْنِ من الرُّشْدِ غيّ
لم أجِدْ
في طَرَفَيْ حُبِّكَ ذَنْباً عليّ
فَاتّئِدْ
وإنْ تَشَا قَتْليَ شيئاً فشَيّ
أَجْمِلِ
ووَالِني منكَ يدَ المُفْضِلِ
فَهْيَ لي
من حَسَناتِ الزمَنِ المُقبلِ

***

ما اغْتَذَى
طَرْفيَ إلاّ بِسَنَا نَاظِرَيْك
وَكَذَا
في الحُبِّ ما بي ليس يَخْفَى عَلَيْك
وَكَذَا
أنشُدُ والقلبُ رَهينٌ لَدَيْك

قيل في قرطبة:

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة
من شاء يظفر بالدنيا وبالدينِ؟
قطر فسيح ونهر ما به كدرٌ
جفت بشطيه ألفاف البساتينِ
يا ليت لي عمر نوحٍ في اقامتها
وأن مالي فيها كنز قارونِ
كلاهما كنت أفنيه على نشوات
الراح نهباً ووصل الحُور والعَينِ
وإنما أسفي اني أهيم بها
وأن حظي منها حظ مغبونِ
أرى بعيني ما لا تستطيل يدي
له، وقد حازه من قَدرُهُ دوني
وأنكد الناس عيشاً من تكون له
نفس الملوك وحالات المساكينِ

وقيل أيضاً:

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قرطبةٌ
منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثةٌ
والعلم أعظم شيء وهو رابعها

قرطبة ثكلى ، حزينة .

قرطبة ، حاضرة الدولة العربية في الأندلس لأكثر من خمسة قرون ، ظلت قابعة في مسجدها منذ انهيار الخلافة تبكي أولادها من غير دموع . فقد جف دمعها منذ قرون ، وان لم تجف دموع زائريها من المسلمين عند دخولهم المسجد .

قرطبة المتألقة ، حاملة مشعل الحضارة ، لم تبتسم مرة واحدة منذ سقوطها في يد النصارى عام 1236/636 .

قرطبة الحية النابضة بالحركة كخلية النحل ، المترامية الأطراف ، التي كان يسكنها أيام الحكم العربي أكثر من نصف مليون نسمة ، يخيم عليها سكون المقابر ، وقد تقلص حجمها فأصبحت بمثابة قرية كبيرة ، لا يزيد عدد سكانها عن ربع ما كان عليه أيام العرب .

قرطبة ينحصر جمالها في الحي الذي حافظ على طابعه العربي ، الحي العربي الذي يحيط بالمسجد . وأول ما يسأل عنه الزائر هو المسجد (La Mezquita) .

والفضل في بناء هذا المسجد الجامع يرجع الى عبد الرحمن الداخل الذي أمر ببنائه عام 786/170 في مكان الكنيسة القوطية ، التي يقال انه دفع ثمنها مائة الف دينار لأصحابها النصارى . ومن الواضح أنه استعان في بنائه بعرفاء (مهندسين) وبنائين سوريين ، لما في طابع هذا المسجد الجامع من تأثير سوري ، اذ انه يشبه في بعض نواحيه المسجد الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس .

لم يدخر عبد الرحمن جهداً ولا مالاً من اجل جعل هذا المسجد تحفة فنية ، يفوق في عظمته أياً من مساجد الأندلس . غير أن عبد الرحمن توفي قبل استكمال بنائه ، فأتم ذلك الجزء منه ابنه هشام ، ثم اضاف اليه عبد الرحمن بن الحكم أجزاء أخرى في الناحية الجنوبية عام 833/218 . وقام محمد بن عبد الرحمن بتجديده وبانشاء مقصورة فيه . ثم عمل ولده عبدالله بن محمد على انشاء ممر مسقوف يصل بين الجامع وقصر الامارة .

وأسهم في انشاء هذا الجامع كذلك عبد الرحمن الناصر فجدد واجهته واقام في عام 951/340 منارة جديدة له ، مكان المنارة التي أنشأها الأمير هشام بن عبد الرحمن ، فأصبحت تعرف بمنارة الناصر وكانت مربعة الشكل يرقى اليها الصاعد على سلم ويهبط من سلم آخر ، وجعل في قمتها ثلاث كرات ضخمة اثنتان من الذهب ، والأخرى من الفضة ، كانت تبهر الأنظار عندما تقع عليها أشعة الشمس .

ثم أحدث ولده الحكم المستنصر في المسجد بعض التحسينات والزيادات المهمة كالمحراب الثالث الذي جاء قمة في الفن والابداع ، يقف امامه الانسان مشدوهاً لجمال زخرفه ، وبديع نقوشه ، حيث تكسوه زخارف فسيفسائية ارسل بها قيصر القسطنطينية هدية الى الحكم وارسل معها الفنيين الذين قاموا بتركيبها حسب الرسوم العربية . وتعلو المحراب قبة رائعة الجمال ، وخلفه مقصورة لاستراحة الامراء والخلفاء .

وكان آخر من اسهم في بناء هذا المسجد العظيم الحاجب المنصور وذلك عام 987/377 ، فأصبح الجامع يمتد شرقاً مما جعل مساحته تزيد بنحو الثلث ، وأصبح عدد سواريه الفاً وأربعمائة وسبع عشرة سارية وثرياته مائتين وثمانين .

وقد لعب هذا الجامع ، كما رأينا ، دوراً مهماً جداً في الحياة الدينية والادارية والعلمية في قرطبة والاندلس عموماً ، ذلك انه بالاضافة الى دوره الاصلي كمسجد

جامع ، فقد كان منبره يستخدم في تلاوة القرارات والمراسيم الادارية ، وفيه تؤخذ البيعة للحاكم ، كما أصبح بمثابة الجامعة الأولى في الأندلس ، تخرج فيها عدد من عباقرة الآداب والعلوم والفقه .

وقد تعرض مسجد قرطبة الى قدر كبير من التشويه ، عندما أقامت الكنيسة الكاثوليكية، في عدد من أركانه ، هياكل نصرانية عديدة ، ورفعت على الكثير من جدرانه صلباناً وتماثيل ، جاءت متنافرة مع طرازه العربي الاسلامي ، لدرجة ان العديد من المؤرخيّن الاسبان اعربوا عن اشمئزازهم وسخطهم لما صنعته يد التعصب المقيت الذي مارسه رجال الكنيسة ، ذلك التعصب الذي أعماهم عن أهمية الحفاظ على أعظم الآثار الفنية التي عرفها بلدهم . حتى ان شارلكان ، الذي أذن اصلاً باقامة هيكل رئيسي داخل الجامع ، غضب عندما شاهد ذلك التشويه والتجني ، وقال ساخطاً للمسؤولين عن اقامة الهيكل : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر ، وقضيتم بذلك على ما كان أثراً فريداً من نوعه في العالم » . وكان للجامع عدة أبواب رائعة الزخرف لم يبق منها سوى ثلاثة ، وله فناء جميل مليء بأشجار النارنج .

كان بجوار الجامع قصر روماني قديم اتخذه الولاة مقراً لهم ، وعمل امراء بني امية على توسيعه وتحسينه ، فجعلوا منه قصراً على جانب من الفخامة والجمال ، وجرّوا اليه المياه واقاموا في جنباته البرك والنوافير ، واضافوا اليه اجنحة وقصوراً أخرى . إلا أنها تعرضت للحرائق أكثر من مرة بعد سقوط قرطبة في يد الاسبان ولم يبق منها ما يدلّ على انها كانت قائمة في يوم من الأيام .

وكان عبد الرحمن الداخل قد بنى قصراً على النمط السوري ، في ضواحي قرطبة اسماه قصر الرصافة ، تيمنا بقصر اجداده في دمشق ، تحيط به حدائق غناء ، جلب لها ، من دمشق وغيرها ، أشجاراً غريبة عن الأندلس ، كالنخيل والرمان ، وغير ذلك من أشجار الفاكهة والثمار ، وقال عند استكمال بناء القصر وقد حن الى بلده الأصلي :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض انت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقاك غوادي المزن من صوبها الذي
يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

مدينة الزهراء

ومن المعالم الرائعة التي اندثرت تماماً ، وظلت مطمورة تحت طبقات التراب ، حتى مطلع القرن الحالي ، مدينة الزهراء التي أمر ببنائها أول الخلفاء الأمويين في الأندلس ، عبد الرحمن الناصر ، لتكون الحاضرة الجديدة للخلافة ، بعد ان ضاقت قرطبة بسكانها ، كما ذكرنا ونحن نعرض لسيرة هذا الخليفة . ويستدل مما أورده المؤرخون ، ومن الآثار التي تم الكشف عنها حتى الآن ، ان هذه المدينة ، ولاسيما قصر الخليفة الخاص الذي اسماه بالمؤنس ، كانا على قدر مذهل من الجمال والابداع .

وما دامت العدسة لا تستطيع العودة بنا الى هذه المدينة قبل ان تندثر ، فلا بد لنا من تخيلها من خلال وصف المؤرخين لها ، ومن خلال صور آثارها التي بدأت تتكشف ، كما أوردنا ، منذ وقت سابق من هذا القرن .

يقول المؤرخون ، في وصف الجهود البشرية التي بذلت في انشاء هذه المدينة ، ان عدد الذين اسهموا في أعمال الانشاء بلغ عشرة آلاف ، بين مهندس (عريف) وبناء ونجار وعامل ، واستمر العمل في بناء الزهراء مدة أربعين سنة . وقيل ان عدد سواري الرخام التي استخدمت في إنشاء المدينة بلغ 4313 سارية جيء بعدد منها من كل من افريقيا وروما والقسطنطينية ، وان عدد ابواب المدينة بلغ 1500 باب .

وقد بدأ العمل أولاً في بناء قصر الخلافة ، الذي انشىء فيه جناحان ، شرقي للنوم ، به حوض رخامي اخضر

اللون جيء به من اليونان، وأقيم حوله اثنا عشر تمثالاً نحاسياً مرصعاً بالدرر النفيسة، تمثل أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً وعقاباً وفيلا وحمامة وشاهيناً وطاووساً وديكاً وحدأة ونسراً، تنفث جميعها الماء من أفواهها.

أما الجناح الآخر، الغربي، أو مجلس الذهب، فهو المجلس الذي كان يستقبل الخليفة فيه الزائرين والعظماء، وكان يضجّ بالترف والفخامة. وكانت جدرانه الرخامية تزينها تربيعات ذهبية وفضية، وفي وسطه حوض مذهب جاءه هدية من صاحب القسطنطينية، كان يملؤه بالزئبق، وكان، حسب وصف المقرّي «في كل جانب من المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته، فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في ذلك المجلس، لمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك».

وكان بين هذين المجلسين بهو كبير، يستخدم في المناسبات المهمة، كمبايعة الخلفاء، واستقبال السفراء في مراسم على جانب من العظمة والأبهة. وقد قال المقري في وصف القصر «وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد، ورسول وافد، وتاجر جهبذ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً، بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله...».

وقد استرسل المؤرخون في وصف حدائق القصر فقالوا إنها كانت آية في الجمال والذوق السليم احتوت حيوانات مختلفة كالجمال والفهود والسباع والفيلة والزراف والطيور الجارحة والداجنة، وتتوسطها برك للسباحة وبحيرات للأسماك، وتحيط بها أسود مذهبة، تنفث الماء من أفواهها.

وكانت مدينة الزهراء تضم الى جانب القصر جامعاً كبيراً، ومباني للحاشية، ودوراً للحكومة، وأسواقاً وحمامات ومساكن عامة، شجع الخليفة الناس على ابتنائها، بأن عرض دفع مبلغ معين لكل من يبني بيتاً هناك، فأصبحت مدينة عامرة متصلة بقرطبة.

غير ان هذه المدينة العظيمة تعرضت للهدم والدمار والسلب، عقب سقوط الخلافة، على يد البربر، فنهبت أعمدتها ومعادنها وزخارفها. واستخدمت حجارتها في مبان أخرى، كما أن الاسبان اعادوا استخدام احجارها في بناء الكنائس، وفي ترميم اسوار قرطبة، وبالتالي، فمهما نشطت الجهود الحثيثة التي تبذل الآن للكشف عن اطلالها ومحاولة اعادة بنائها، فإنها لن تفلح، مع الأسف، في اعطاء ادنى فكرة عما كانت عليه هذه المدينة العظيمة.

مدينة الزاهرة

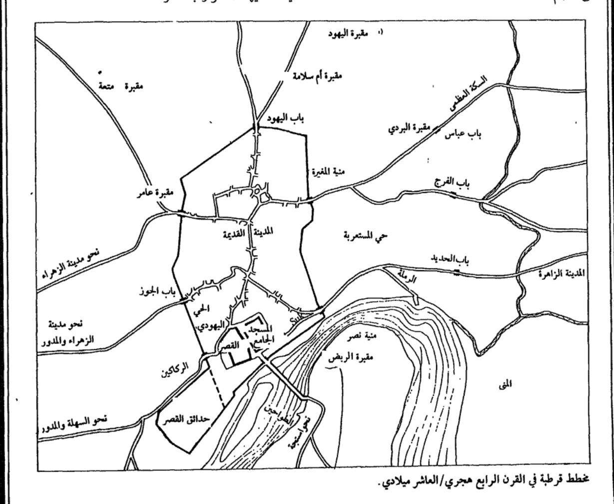
بدأ الحاجب المنصور في بناء مدينة الزاهرة عام 979/368 اثباتاً لسلطانه ونفوذه، بعد ان اصبح الحاكم الفعلي، والملك غير المتوج للدولة العربية في الأندلس.

ويرى البعض، انه بالاضافة الى ذلك، فقد أصبح يخشى التردد على مقر الدولة في مدينة الزهراء، حيث كان يقيم الخليفة الرمز، كما ذكرنا في عرضنا لسيرتيهما فيما تقدم، بعد أن زاد عدد خصومه في قصر الخلافة واشتدت اواصر التحالف بينهم. وبعد عامين من بدء أعمال البناء، انتقل الحاجب المنصور اليها بعد ان اقام حولها الاسوار وابتنى فيها جامعاً وغير ذلك من المرافق اللازمة، ونقل اليها دواوين الحكومة. فاجتذبت الكثير من أهل الزهراء، الذين انتقلوا الى المدينة الجديدة، أما لعلاقتهم بالدولة، أو للتقرب من الحاكم الفعلي. وكانت حدود الزاهرة متصلة تقريباً بحدود قرطبة، فانتقلت اليها الحياة التي كانت تزخر بها مدينة الزهراء، من استقبالات واحتفالات

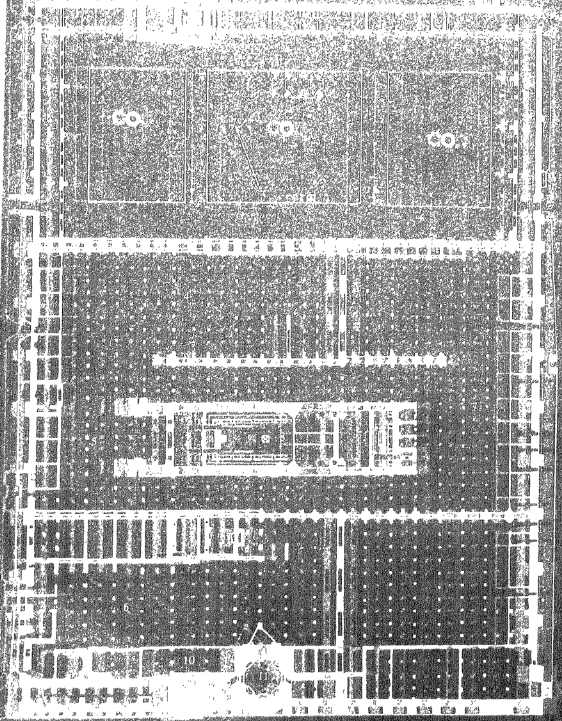
رسمية ، كان مسرحها قصور الحاجب المنصور الرحبة التي اتسمت هي الأخرى بالفخامة والعظمة .

غير أن عمر هذه المدينة لم يزد عن ثلاثين عاماً . فبعد ان غاب عنها الحاجب المنصور ، جاء في منصب الحجابة ابنه عبد الملك ، الذي مات بعد ذلك بسبع سنوات ، فخلفه أخوه شنجول ، الذي استصدر من الخليفة الرمز براءة بتعيينه ولياً لعهد الخلافة ، مما أثار الامويين ، بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الذي أودى به كما ذكرنا ، بعد أن استولى على مدينة الزاهرة أثناء غياب شنجول عنها ، فأعمل فيها الهدم والنهب ، حتى طمس معالمها عن بكرة ابيها ، ولم يبق من آثارها ما يشير الى انها كانت تقوم على وجه الأرض في يوم من الأيام .

وفيما عدا القنطرة العربية ، التي بناها الرومان اصلاً ، وأصلحها العرب ، والتي تقطع النهر بالقرب من المسجد الجامع ، وبعض من أسوار المدينة ، لا يجد المرء الكثير من آثار العرب العظيمة التي خلفوها في هذه المدينة . حتى الحي القديم فيها تقلص وأحاطت به مبان حديثة ، أودت بطابع قرطبة الاندلسي ، وقصرته على بضع طرق وبيوت تحيط بالمسجد الجامع ، تعود الى العهد العربي وتحتفظ بطابعها القديم الجميل ، بلونها الأبيض ومداخلها النظيفة ، التي يمكن للزائر ان يرى في وسط كل بيت من بيوتها فناء يشتعل بألوان الزهور التي تغطي جدرانه وتظلل نوافيره وتملؤه شذى يبعث في النفس أحاسيس عجيبة يختلط فيها الاعتزاز بالحسرة.



مخطط قرطبة في القرن الرابع هجري/العاشر ميلادي.



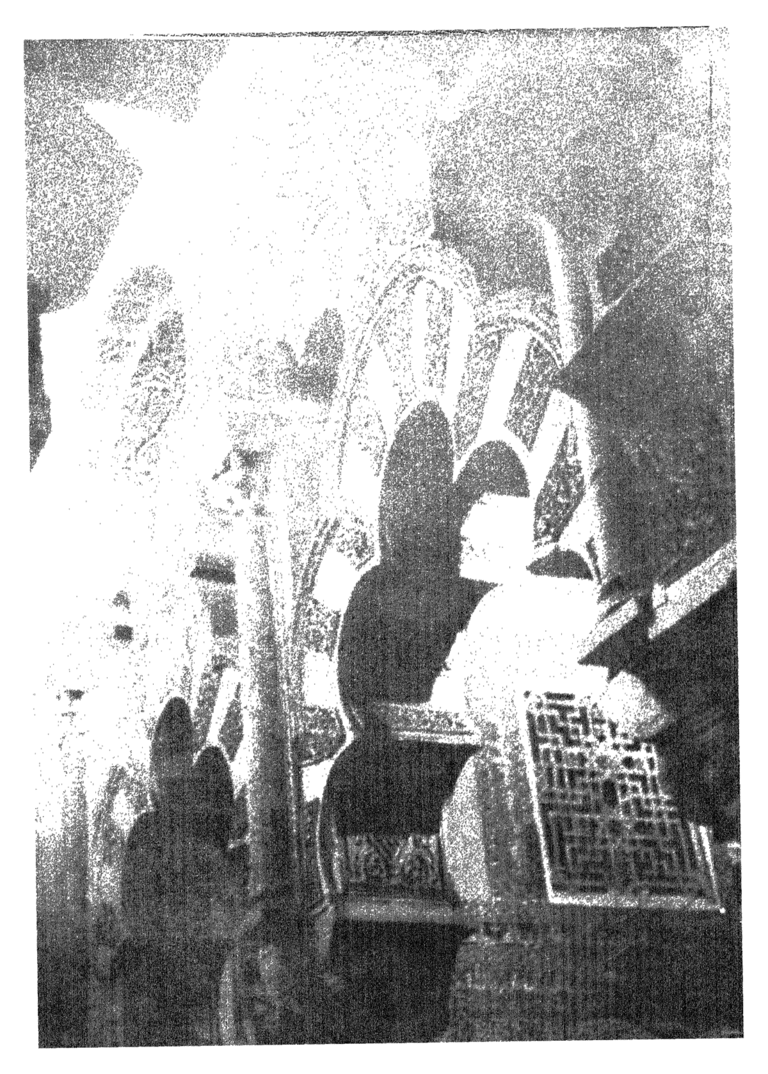
مخطط المسجد الجامع بقرطبة.

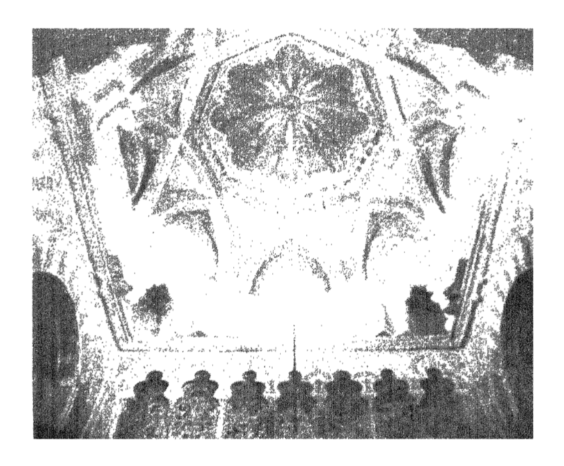


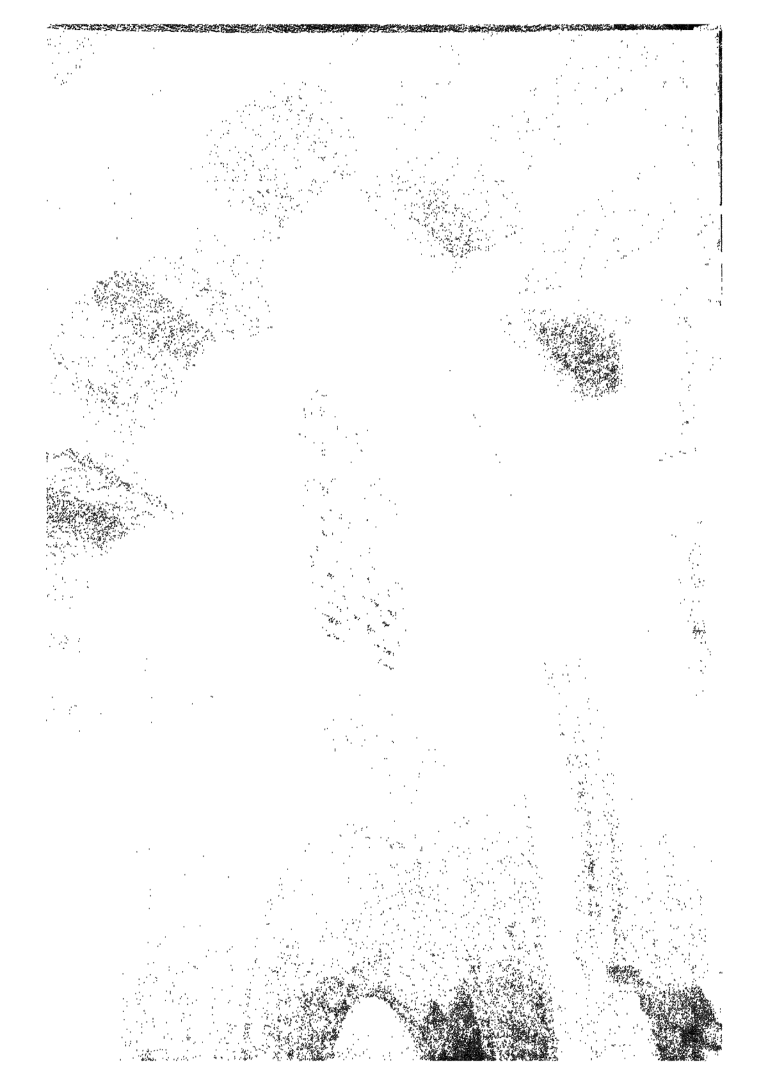


وأيـن قـرطـبـة دار الـعـلـوم فـكـم
من عـالم قـد سمـا فيهـا لهـا شـأن

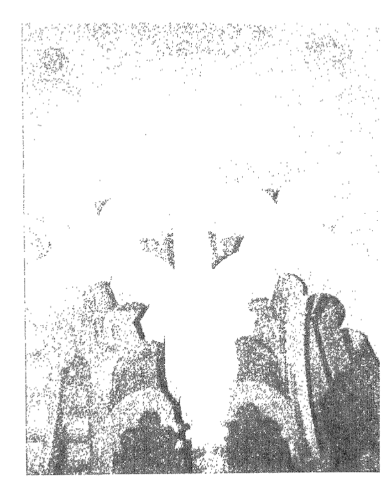
أقـرطـبـة الـغـراء هـل لـي أوبـة
إليك، وهـل يـدنـو لنـا ذلك العهـد
سقى الجـانب الغـربي منـك غمـامـة
وقعقـع في سـاحـات دوحتك الـرعـد
لـيـاليـك أسـمـار، وأرضـك روضة
وتـربـك فـي استنشـاقهـا عنبـرٌ ورد







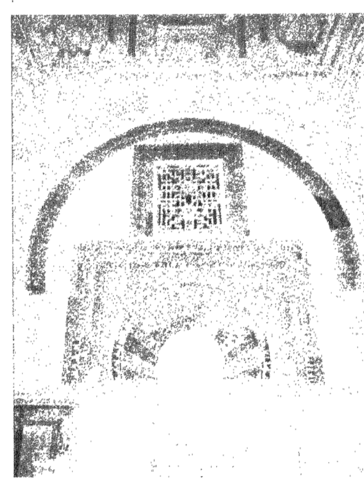




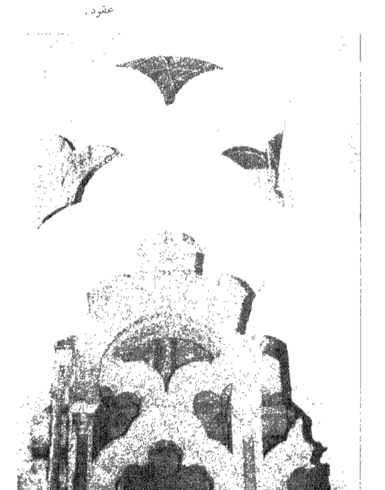
شارة وسط المحراب.

الرواق المؤدي إلى المحراب.

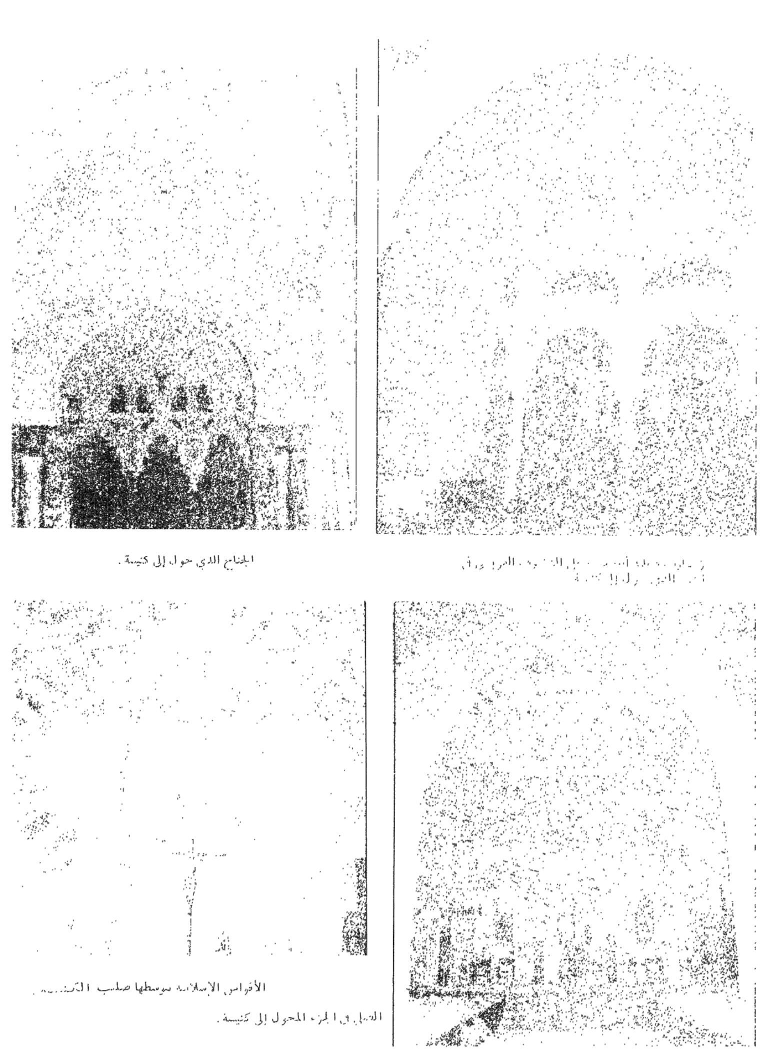
الأدراج العليا الجامعة خلف المحراب.



عقود.







الجناح الذي حول إلى كنيسة .

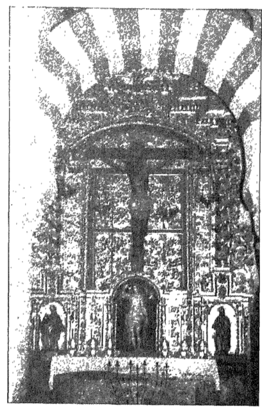
[illegible]
... المحول إلى كنيسة .

الأقواس الإسلامية يتوسطها صليب الكنيسة .

الداخل في الجزء المحول إلى كنيسة .

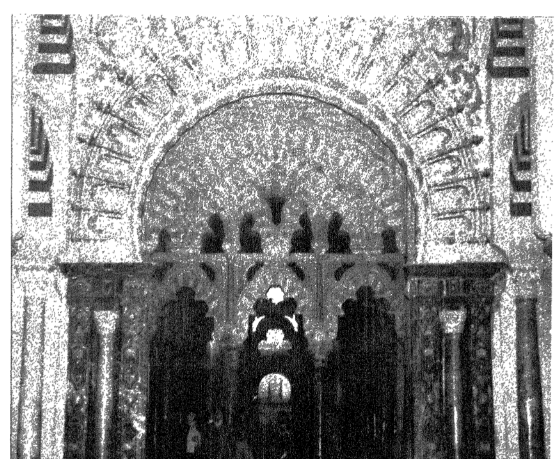
نسلمها حزب الصليب وقادها
وكانت شروداً لا يقاد نفورُها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت
مناسبها واستأصل الحق زُورُها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها
تماثيلها دون الإله وصُورُها

مدائنُ حلّها الإشراك مُبتسماً
جذلان، وارتحل الإيمان مُبتئسا
وصيّرتها العوادي العائثاتُ بها
يستوحش الطّرْفُ منها ضِعْفَ ما أنسا
يا للمساجد عادتْ للعدا بيعاً
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهْفي عليها إلى استرجاع فائتها
مدارساً للمثاني أصبحتْ دُرُسا



مذبح الكنيسة في قلب الجامع.

صور القديسين تحيط بالعقد المؤدي إلى المحراب.

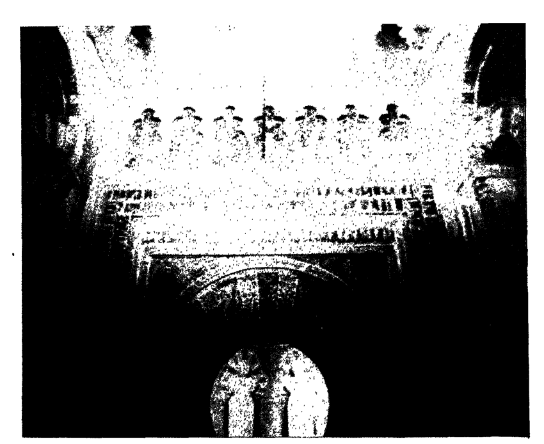


منتزه جامع قرطبة
بعد ترميمها
وتحويلها إلى جراسيه

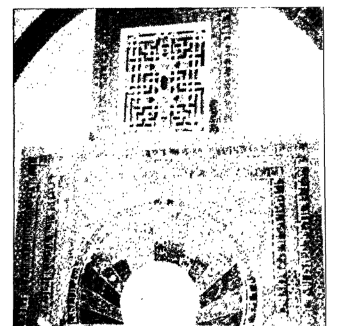


مئذنة الجامع المعدلة وفناء النارنج .



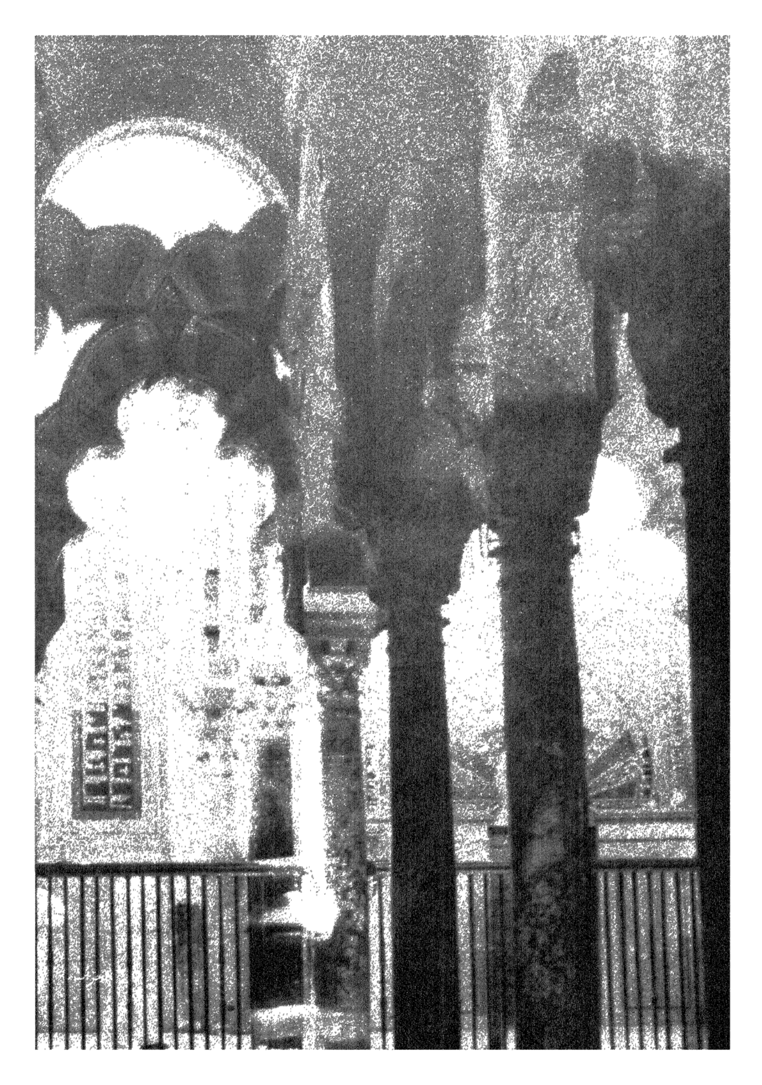


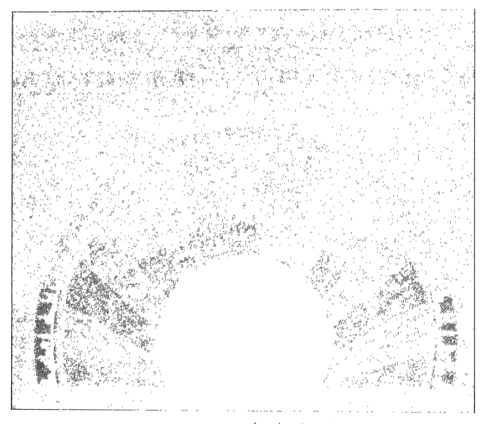
المحراب.



المحراب.

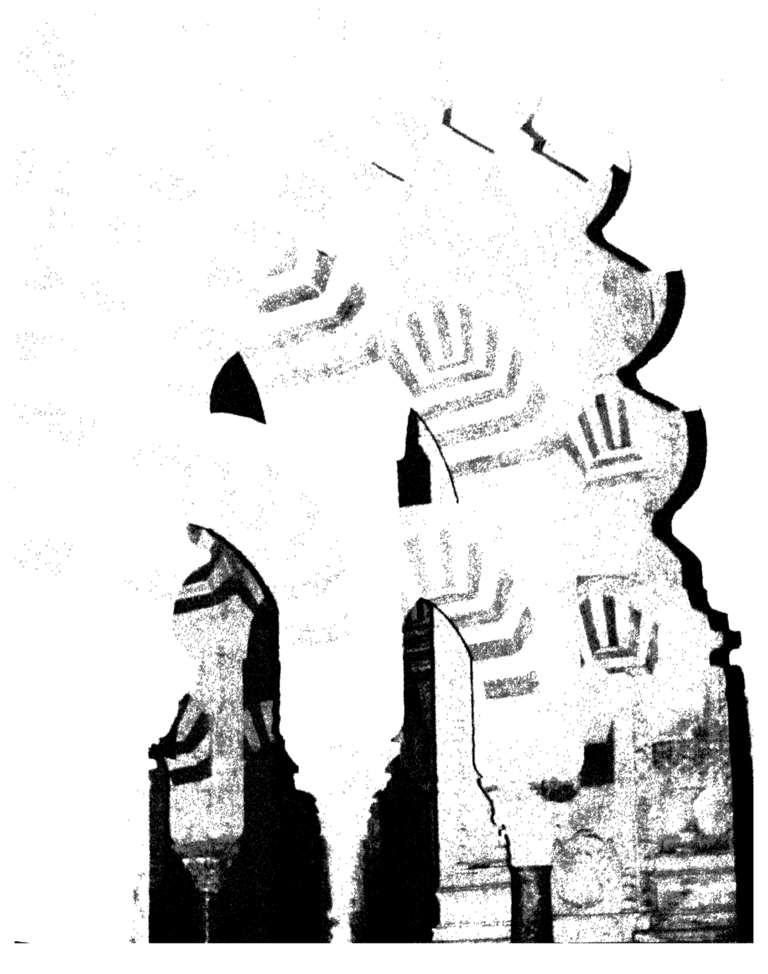
فواحسرتا كم من مسجد حولت　　وكان إلى البيت الحرام شطورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى　　وأياتها تشكو الفراق وسورها

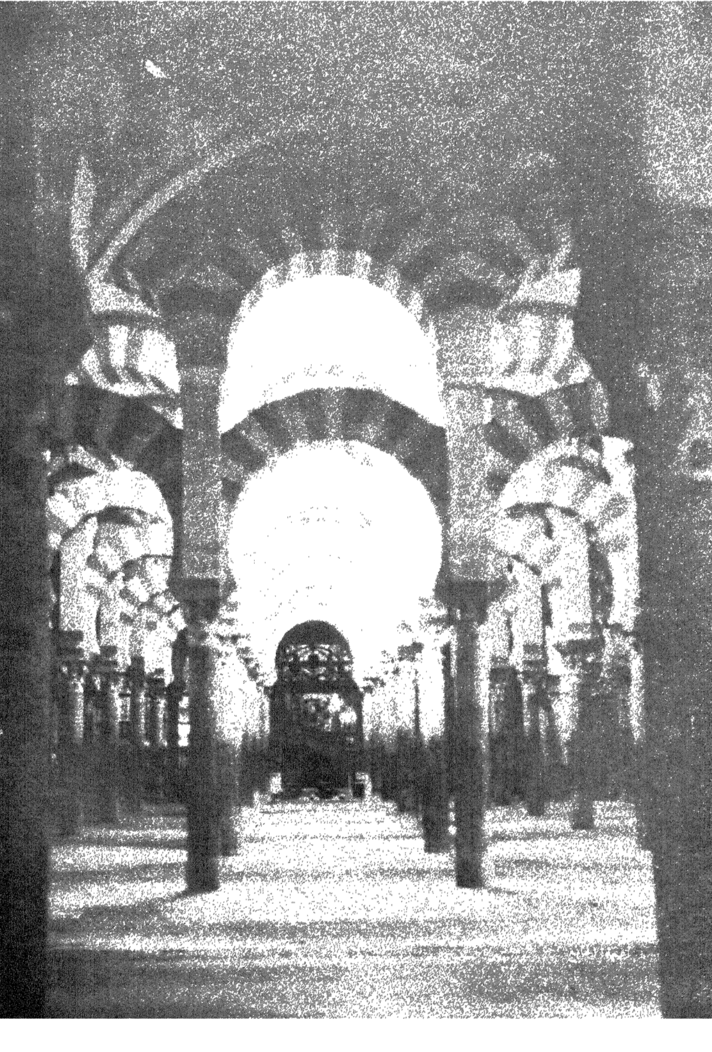


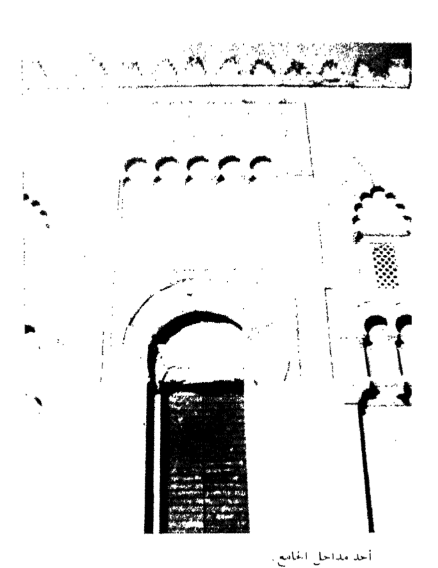


فسيفساء المحراب، هدية من الامبراطور البيزنطي.

غابة أعمدة في قلب الجامع

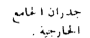




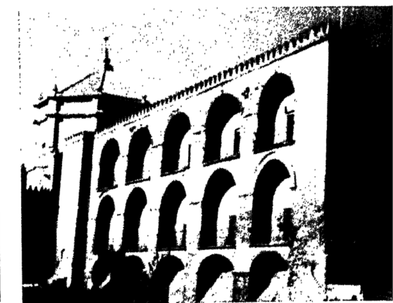


أحد مداخل الجامع.

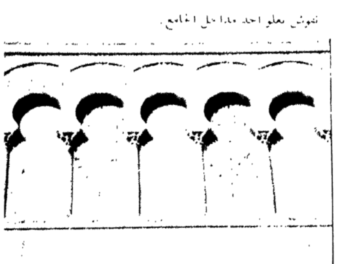
نقوش تعلو أحد مداخل الجامع

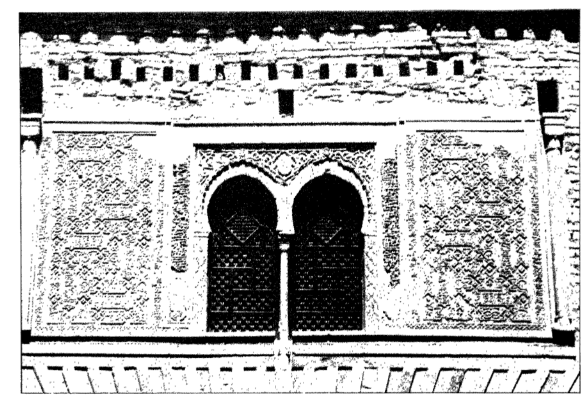


جدران الجامع
الخارجية.



نقوش تعلو أحد مداخل الجامع.





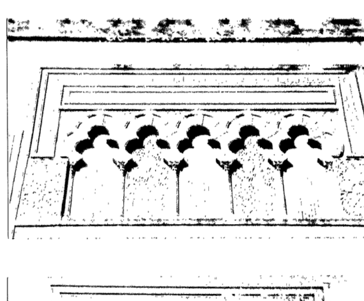
نقوش تعلو أحد مداخل الجامع القديم .

عقود متشابكة في الجامع



منصة في أحد أجنحة الجامع.

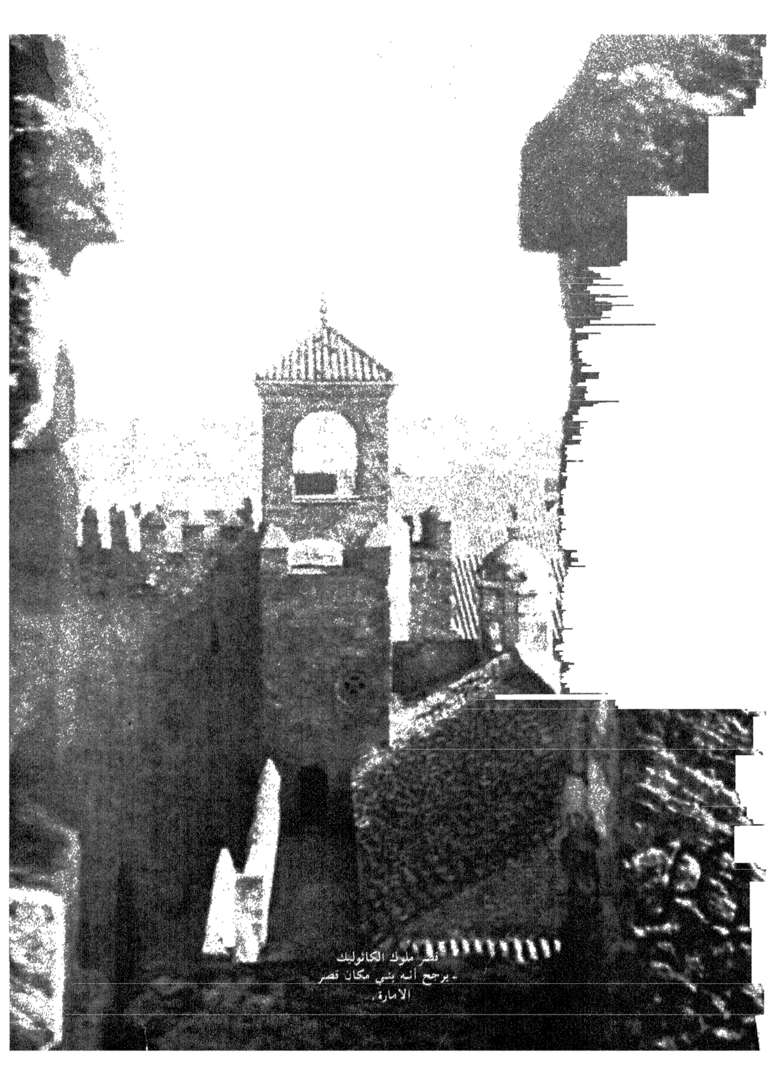
بوابات الجامع.









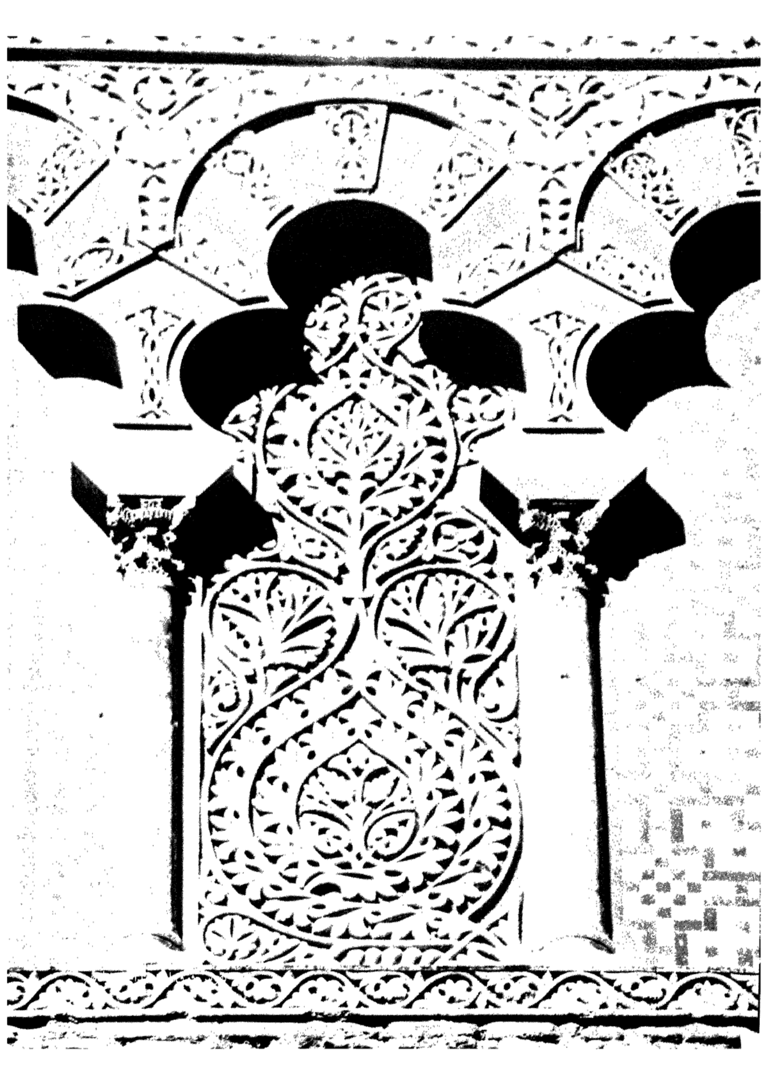


قصر ملوك الكاثوليك
- يرجح أنه بني مكان قصر
الامارة..

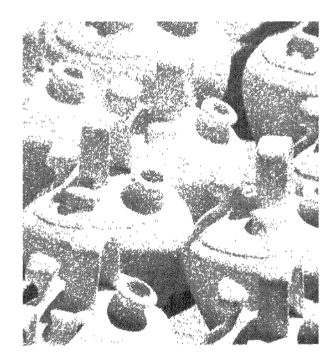




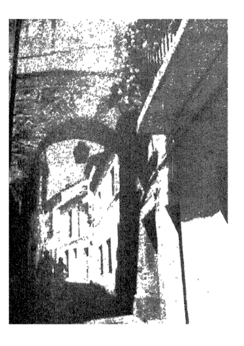
باحة أندلسية



باحتان اندلسيتان



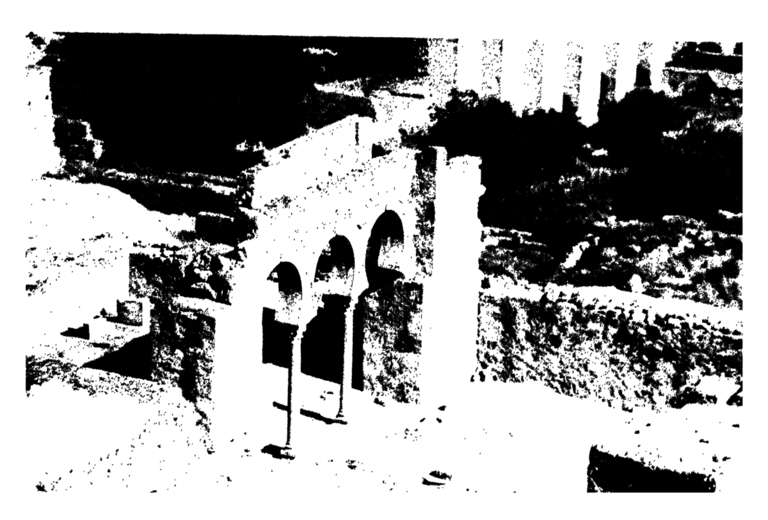
من الصناعات العربية الباقية .



أحد أزقة قرطبة .

وقفتُ بالزهراء، مُسْتَعْبِراً
مُعْتَبِراً أَنْدُبُ أشتاتا
فقلتُ: يا زهْرا، ألا فارجعي
قالت: وهل يرجع من ماتا؟
فلم أزلْ أبكي وأبكي بها
هيهات يُغني الدمعُ هيهاتا!
كأنما آثارُ من قد مضى
نوادبٌ يَنْدُبْن أمواتا

مدينة الزهراء. أحد مداخل القصر.



مدينة الزهراء يعاد بناؤها.

مدينة الزهراء: عقود القصر

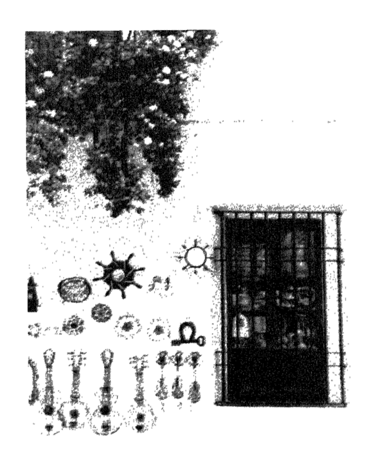

ـ تمثال ابن رشد في قرطبة


تمثال ميمونيدس في قرطبة


نصب يرمز إلى الصداقة العربية الاسبانية .


قرطبة ـ مدخل من سور المدينة

النهر من خلف اسوار قرطبة



مواد زينة مصنوعة من الحديد المطروق

اشبيلية ارملة طروب ، كما اسماها أحد الكتّاب ، بكت بعض الوقت ، ثم حنت الى قرع الدفوف ورنين الأوتار ، وسرعان ما تزينت لتستأنف لياليها الراقصة المرحة .

اشبيلية كانت أول عاصمة للدولة العربية في عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وآخر عاصمة للدولة العربية ، بعد ان عادت وحدة الأندلس ادارياً على يد المرابطين ثم الموحدين ، وخرجت من قبضة العرب نهائياً عام 1248/647 فسقطت بسقوطها الدولة العربية ، وانحسر الوجود العربي ، واقتصر على غرناطة .

واشبيلية كانت ، وما تزال ، اجمل بلدان اسبانيا واكثرها مرحاً وأظرفها سكاناً . ولعل سحر طبيعتها وخصال أهلها كانا من اهم العوامل التي جذبت اليها أهل الفن أيام العرب ، من شعراء ومغنين وموسيقيين وراقصين، حتى قال عرب الأندلس في ذلك ، « اذا مات عالم في اشبيلية ، واريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة . واذا مات مغن في قرطبة وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية » .

وفي الوقت الذي كانت تزخر فيه اروقة المسجد الجامع بقرطبة ، وأروقة المعاهد الدراسية الأخرى فيها بالعلماء والأدباء ، بين مدرس ودارس ، وتخرج الى العالم عباقرة العلوم والفلسفة والفقه والأدب ، كانت اشبيلية ترقص على أنغام الوتر ونقر الدفوف ، وتتأوه على اصداء القصيد والموشح ، وخاصة أيام بني عباد ، الذين كان همّ ملوكهم الأول نظم الشعر ، حتى انهم كانوا يخاطبون بعضهم البعض الآخر شعراً ، ويتراسلون مع أعدائهم شعرا ، ويستنجدون بأهل المغرب قصيداً. وكان أشهر هؤلاء الملوك الشعراء ، المعتمد الذي حلّق بشعره ليصبح واحداً من أرق شعراء الأندلس على الاطلاق .

وقد تألقت اشبيلية في مجال الشعر والغناء في عهده ، كما لم يتألق بلد آخر ، حتى قيل عن هذا البلد أيام حكمه ، ان بلداً ما لم يطرب كما طربت اشبيلية أيام المعتمد . . . ولم يبك بلد كما بكت اشبيلية يوم بارحها المعتمد الى منفاه . وقد بلغت اشبيلية قمة مجدها آنذاك فأصبحت هي وقرطبة أكثر بلدان اوروبا ازدهاراً .

غير أن اشبيلية لم تكن غارقة في المجون فقط . فقد اسهمت ، هي كذلك ، في العلوم والآداب والعمارة ، وان كانت قرطبة هي التي استقطبت معظم رجال الفكر والعلوم ، بوصفها حاضرة الدولة .

اما من ناحية العمارة ، فقد جاء عطاء اشبيلية متأخراً نوعاً ما ، باستثناء جامع عمر بن عدبس الذي أمر ببنائه عبد الرحمن الأوسط عام 830/214 ، وكان حينئذ من أعظم مساجد الأندلس وأفخمها . وقد اندثرت معالم هذا الجامع ، الذي أقام الاسبان في مكانه كنيسة السلفادور ، بعد استيلائهم على اشبيلية .

وكان الخليفة ابو يعقوب يوسف الموحدي قد أقام في عام 1172/567 مسجداً آخر ناله ، على يد الاسبان ، ما نال سابقه ، فأقاموا مكانه الكتدرائية العظمى ، التي تعد ثاني كتدرائية في العالم ، من حيث السعة والفخامة ، بعد كنيسة القديس بطرس بروما ، مما يشير الى ما كانت عليه مساحة الجامع قبل هدمه . فقد أقام الاسبان كتدرائيتهم على نفس مساحة الجامع ، بقصد طمس معالمه كلية . وقد استغرق بناؤها اربعة قرون ولحسن الحظ انهم ابقوا على برج الجامع العظيم الذي يعتبر اعظم برج أو مئذنة ابتناها العرب في تاريخهم .

وقد استغرق بناء الجامع الذي صممه المهندس احمد بن باسة نحو اربع سنوات، ولم يتوقف العمل في بنائه لا صيفاً ولا شتاء، وبلغت مساحته نفس مساحة

جامع قرطبة تقريباً، وجاء غاية في الابداع والجلال. وقد اسهب المؤرخون في وصف روائعه وعظمته، فقالوا ان ما وضع في أساساته تحت الأرض يفوق ما برز من بنائه فوقها، ولعل هذا ما يفسر وقوف البرج، الذي اسماه الاسبان لاخيرالدا (La Giralda) (أي الدوارة)، برغم الزلزال القوي الذي اتى على معظم اشبيلية عام 1504.

ويقول المؤرخون انه استخدم في بناء الجامع الحجر والجبس والأخشاب المطعمة بالعاج والصندل والابنوس وصفائح الفضة والذهب، وان منبره اتسم بغرابة الشكل وعظمة الصنعة، وانه كانت تصل بينه وبين القصر قنطرة يعبر السلطان فوقها للوصول الى الجامع. أما مئذنة هذا الجامع العظيم فقد ابقاها الاسبان، كما ذكرنا، واضافوا اليها برجاً للاجراس، تعلوه دوارة تشير الى اتجاه الريح وهذا هو السبب الذي جعل الاسبان يطلقون عليه هذا الاسم. ويبلغ ارتفاع المئذنة، أي ذلك الجزء الاسلامي منها ٧٦ متراً، وتتكون من سبعة طوابق، يصعد الفارس على حصانه الى اعلاها، ذلك انه اقيم، بدلاً من الادراج، ممر لولبي منحدر برفق يستعمل في الصعود والهبوط، وتنفتح في كل طابق منه شرفات عربية جميلة، تطل على جميع انحاء البلد. وكانت في مكان برج الأجراس، ايام العرب ثلاث تفافيح كبيرة مكسوة بالذهب يخترقها عمود من الحديد مثبت في قمة المئذنة، وتعلوها تفاحة رابعة اقل حجماً. وقد استخدم في صنع هذه التفافيح سبعة آلاف مثقال من الذهب، وركبت في احتفال مهيب في عام 1198، وهي مغطاة بكسوة من القماش للحفاظ عليها عند رفعها الى قمة المئذنة. فلما كشفت عنها هذه الكسوة، والتقت أشعة الشمس بالذهب الصقيل انطلق وهج يأخذ بالالباب، كان يشاهد من مسيرة يومين.

وعلى مقربة من الجامع يقع القصر، تحفة اشبيلية الخالدة، بناه ملوك الاسبان، في موقع القصر القديم، واستخدموا في بنائه المهندسين والبنائين والعمال المسلمين العرب المدجنين، الذين بقوا في اشبيلية، في ظل الحكم الاسباني، بتشجيع من الاسبان للافادة من مهاراتهم.

وقد بنوا هذا القصر لملوك أعدائهم على الطراز العربي الأصيل المطعم بلمسات قوطية، فجاء آية من الفن، نم عما في نفس الصانع العربي من شفافية واناقة ذوق وبديع خيال. ولا يسع المرء، وهو يشاهد بدائع الصنعة العربية الخلاقة في هذا القصر (Alcazar) إلا أن يشعر بالألم العميق، وهو يتصور كيف اضطر ذلك الصانع ان يصنع لعدوه ما كان يصنعه لملوكه وابناء جلدته، وان ينقش على جدران قصوره آيات قرآنية وعبارات تمجد ملوك اعدائه، وتدعو لهم بدوام عزهم وملكهم، بعد أن هدم هؤلاء مقدساته وقوضوا صروح اجداده وشتتوا اهله وبنيه.

وتتمثل اللمسة القوطية في تصميم هذا القصر الفريد، في تدبب الأقواس التي تستند على أعمدة عربية دقيقة جداً جاءت تجسيماً للرشاقة المعمارية التي اتصف بها الفن المعماري العربي. وتتدلى من هذه الأقواس زخارف رائعة من الجص تضفي على هذه الأقواس حركة وحياة، وتوحي بأنها طرحة من الدانتيل قد علقت عليها وأنها بانتظار هبوب نسمة لتحرك أطرافها المتدلية. واذا ما انعكست أشعة الشمس من الأفنية المفتوحة ظهرت كأنها تشتعل ناراً تضيء ما حولها من جدران.

والقصر مكون من طابقين. وفي الطابق الأرضي عدة قاعات لكل منها اسم، كبهو السفراء وقاعة العدل وفناء العذارى وفناء العرائس وجناح الملوك الاندلسيين، وجناح الملوك الكاثوليك، وبهو كارلو الخامس، وجناح فليب الثاني، وما الى ذلك. وتصل بين هذه القاعات ممرات تزينها أقواس متكررة تضفي عليها الحركة وتزيل عنها الجمود. ولعل أجمل ما في القصر، بهو السفراء الرحب، ذو القبة الشاهقة، التي تزهو بأبدع النقوش وأروع الرسوم، وفناء العذارى الفسيح المكشوف الذي تحيط به الأعمدة الرخامية الرشيقة.

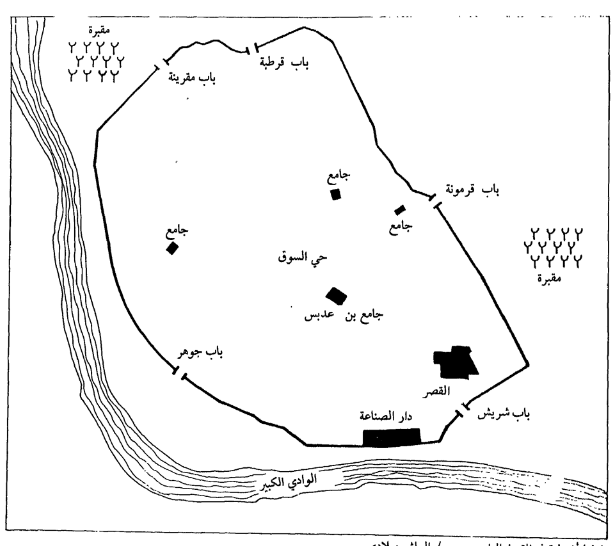
ومن المعالم العربية الرائعة في اشبيلية «برج الذهب» الذي كان يستخدمه العرب للحراسة ولمراقبة تحركات العدو. وقد بني على نحو يتيح للفارس الوصول الى قمته

راكباً .

ولعل من أجمل ما يشاهده المرء في اشبيلية حيها العربي القديم ، ويقال انه الحي اليهودي أيضاً الذي يطلق عليه اسم سانتاكروث (Santa Cruz) ، أي الصليب المقدس .

ولو سار المرء في ازقة هذا الحي وحاراته لجزم أنه يسير في بلد عربي .

وفي المساء ، كل مساء ، ترقص اشبيلية حتى الصباح تماماً كما كانت ترقص أيام الحكم العربي .



مخطط أشبيلية في القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي

1 ـ المدخل الرئيسي .
2 ـ فناء العذارى .
3 ـ بهو السفراء
4 ـ فناء ـ مكشوف

مخطط قصر أشبيلية

قيل في اشبيلية :

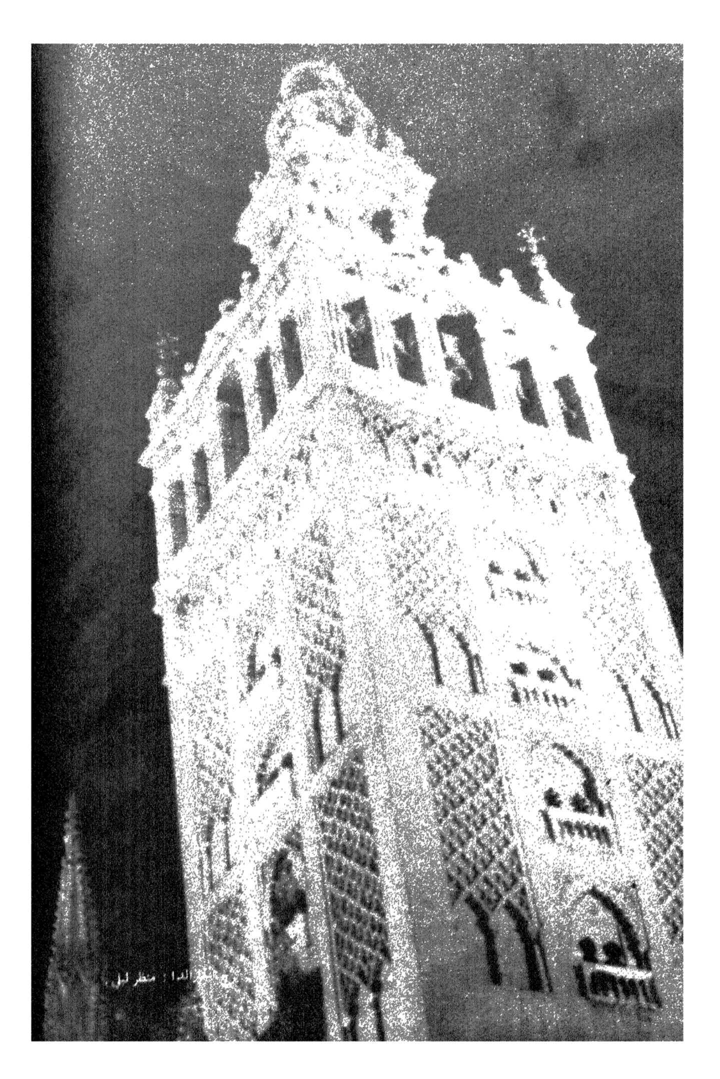
وايـن حمص ومـا تـحـويـه مـن نـزه
ونـهـرهـا الـعـذب فـيـاض ومـلآن

قيل في نهر اشبيلية :

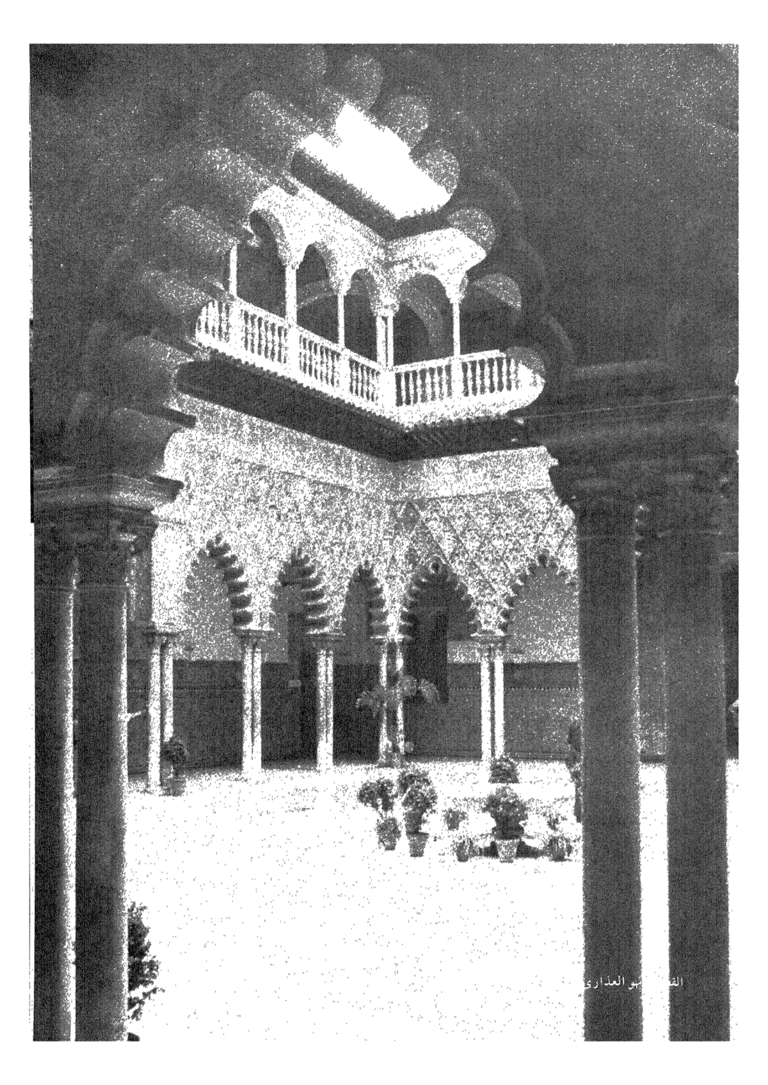
شـق النسـيم عـليـه جيـب قـمـيصـه
فـانـسـاب من شـطيـه يـطلب ثـاره
فـتضـاحـكت ورق الـحـمـام بـروحـهـا
هـزءاً فـضـم مـن الـحـيـاء ازاره

برج الخيرالدا (الـدوارة)
وكان مئذنـة المسجـد الجامع .

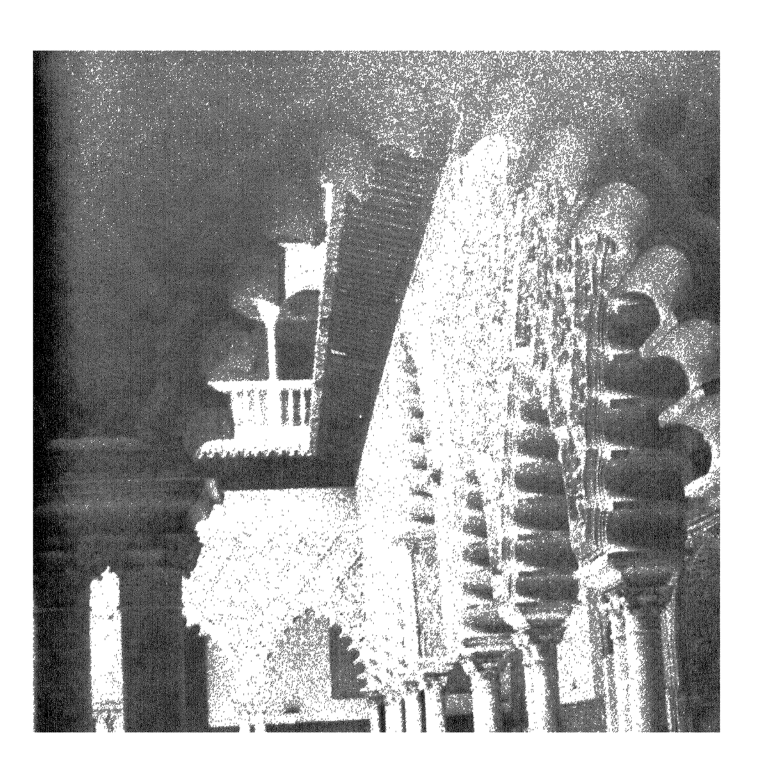




الدا : منظر ليلي



القـ ـهو العذارى



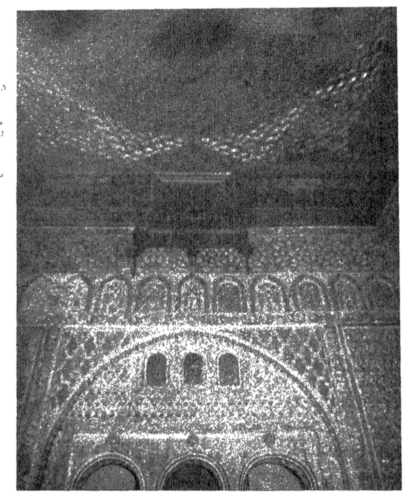
بهو السفراء .

بهو السفراء .

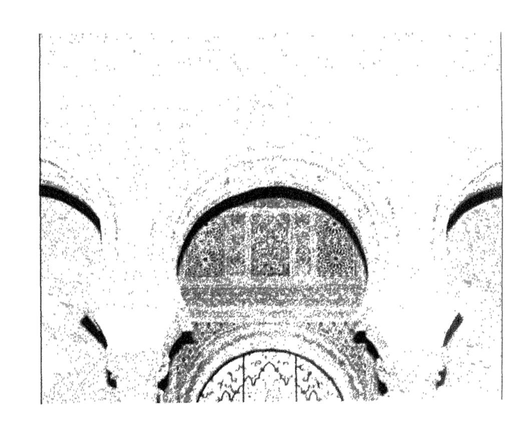
بهو السفراء .

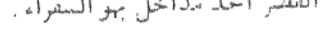
بهو السفراء .

ديارٌ عليها من بشاشة أهلها
بقايا تسرّ النفس أنساً ومنظرا
رُبوعٌ كساها المُزنُ من خِلَع الحيا
بُروداً، وحلاها من النَّور جوهرا
تبرّك دهراً، ثم تُمسيها تارة
وترتاح نائياً وتشجى تذكُّرا.

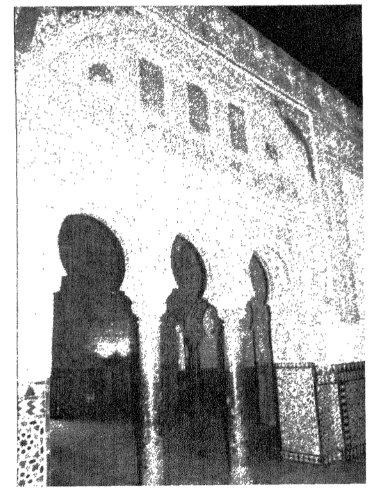


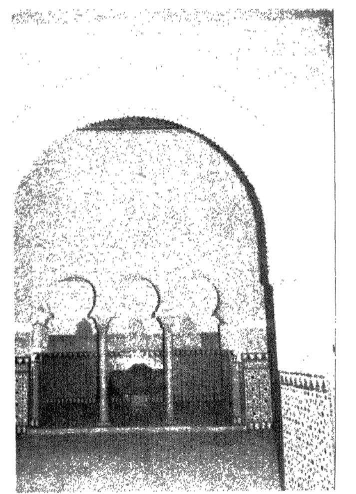
بهو السفراء.

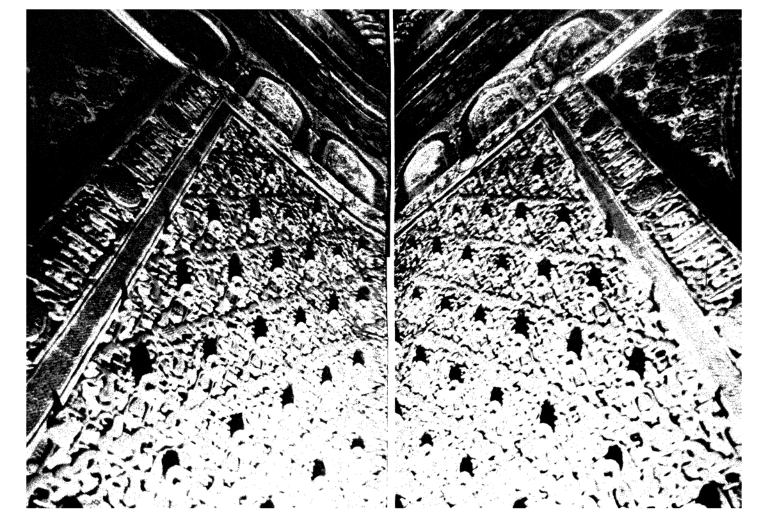


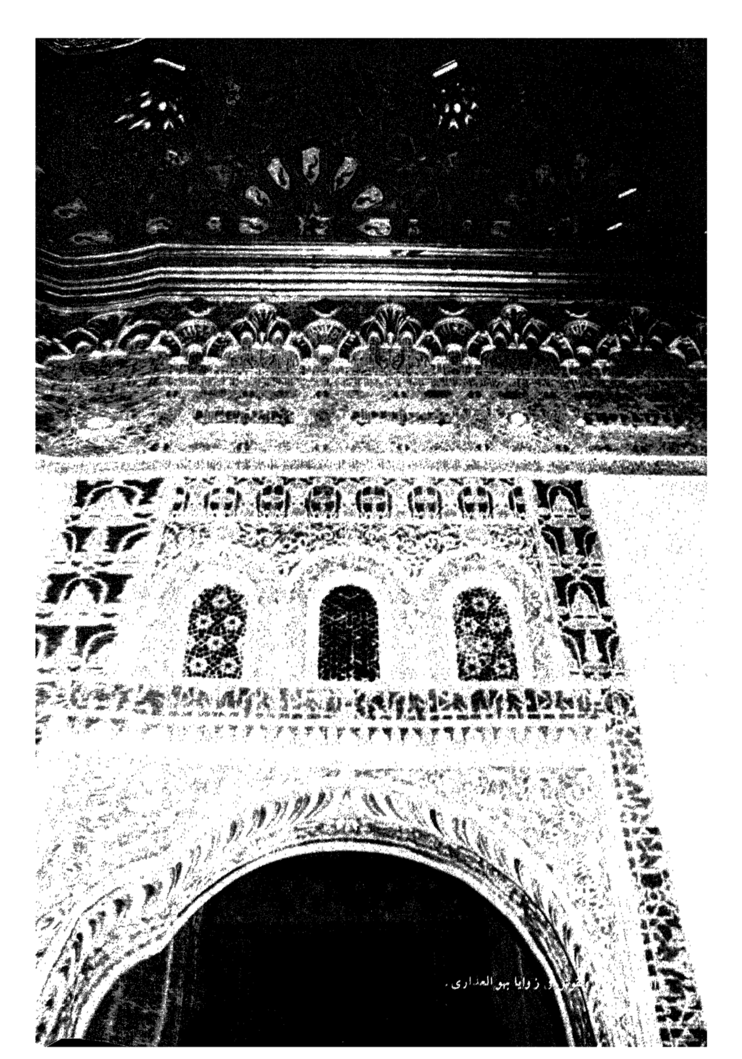

القصر أحد مداخل بهو السفراء .

القصر : مدخل أحدى القاعات المحيطة ببهو السفراء .

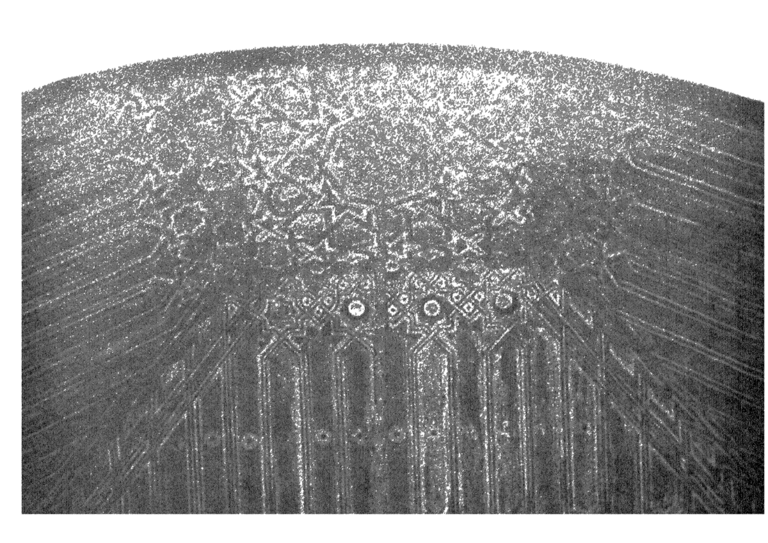


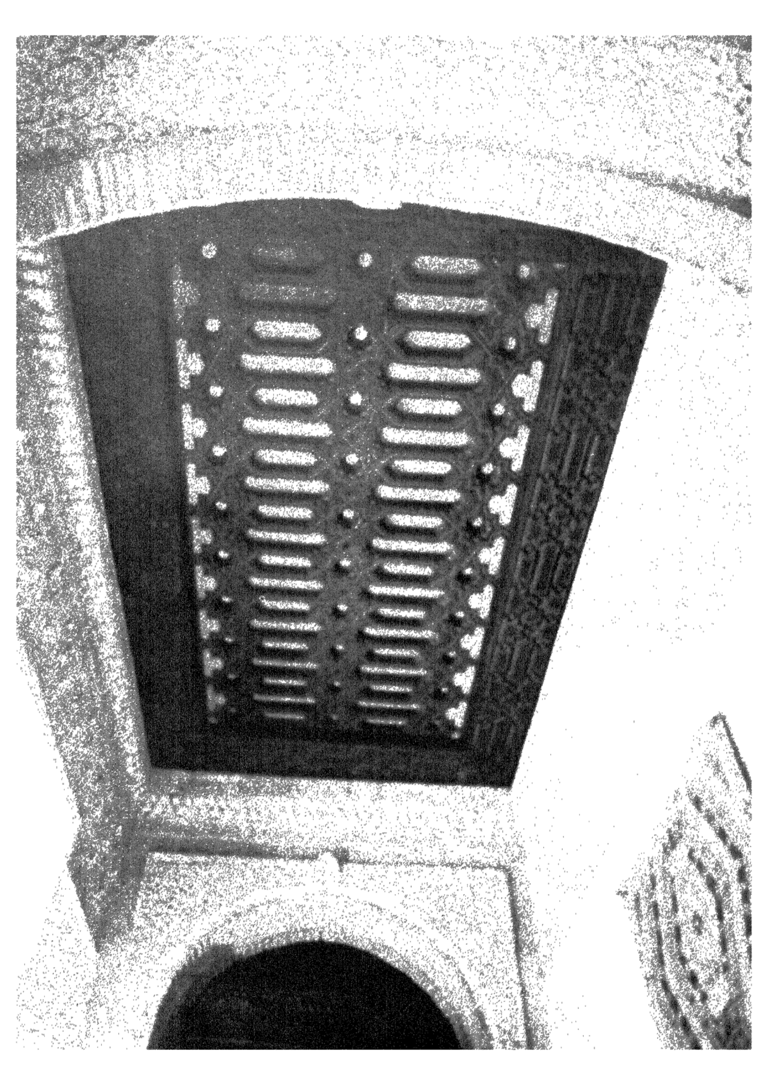


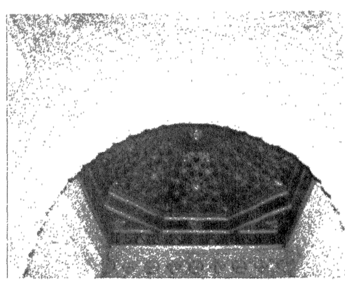


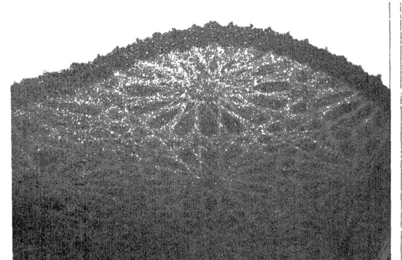


... زوايا بهو العذارى .

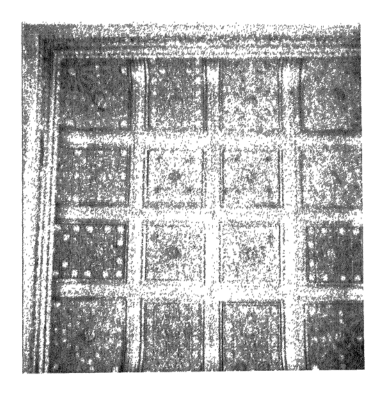


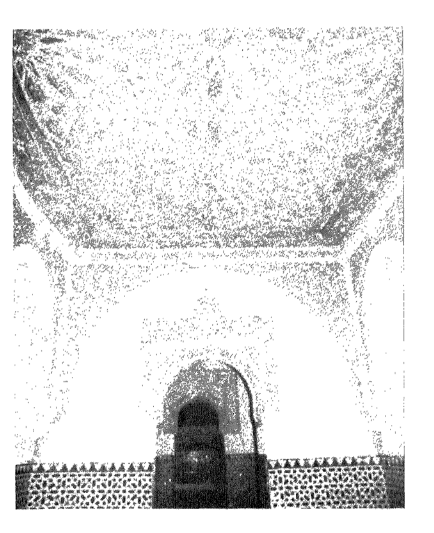


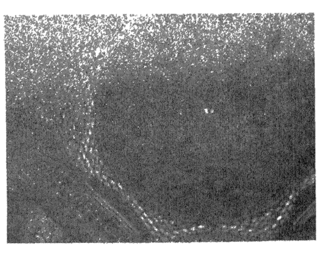


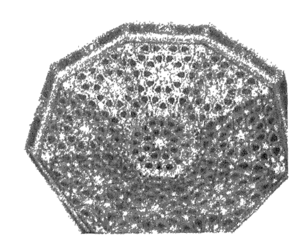


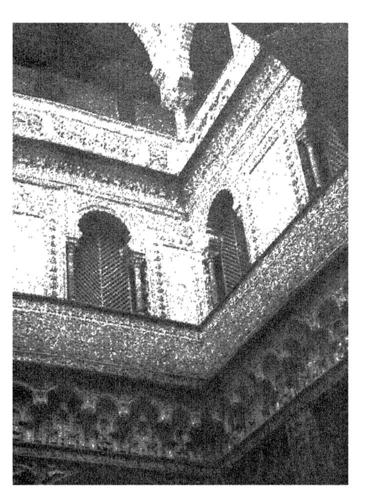
القصر : سقوف ممرات القصر .

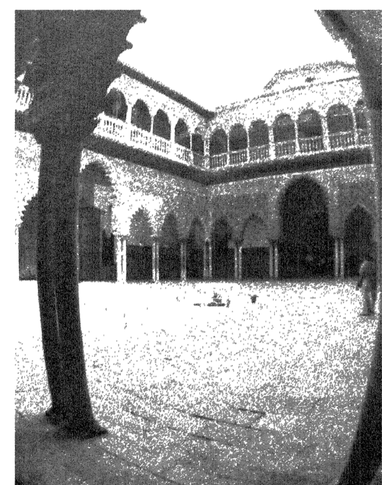






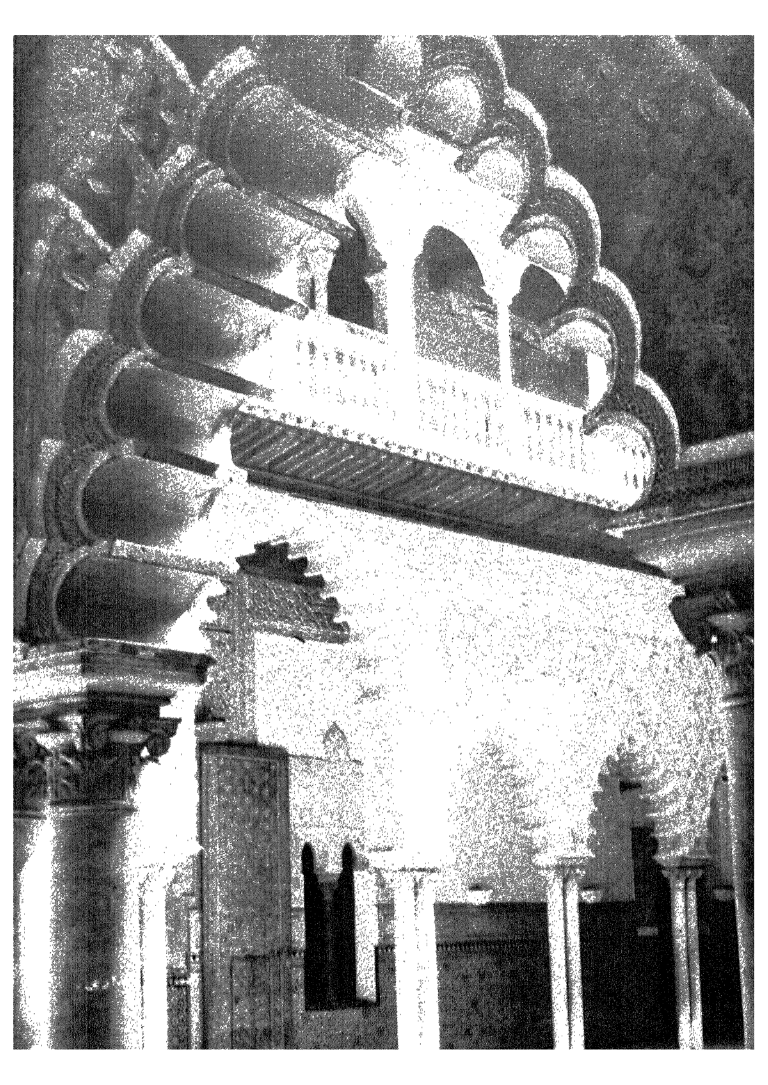






القصر : بهو العذارى

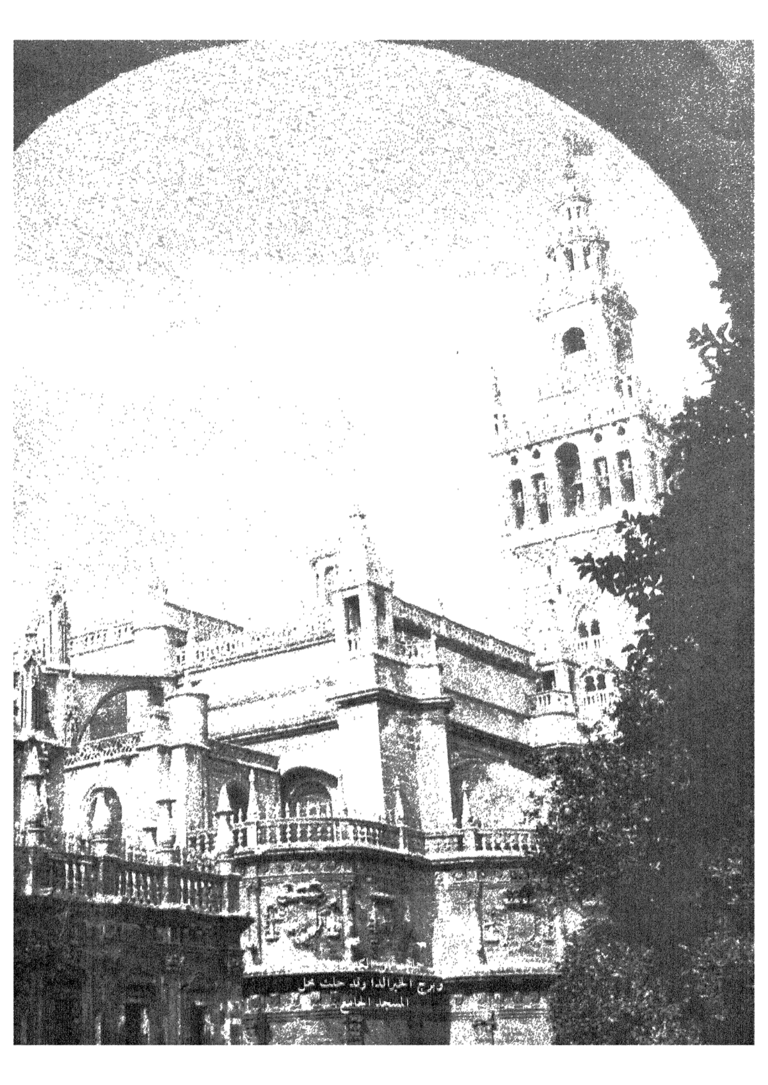
قصرٌ لوَ انـك قد كحلـت بنورهِ   أعمـى لعـاد إلى المقـام بصيرا
ومضـت على الـروم الدهـورُ ومـا بنْوا   لملوكهـم شَبَهـاً له ونظيرَا
أبصرتُـه فرأيتُ أبـدعَ منظرٍ   ثم انثنيتُ بناظـري مَحْسُورَا
وظننْـتُ أنـي حالـمٌ في جَنّةٍ   لما رأيتُ المُلْك فيه كبيرا



قاعة السفراء ـ القصر ـ أشبيلية

حدائق القصر

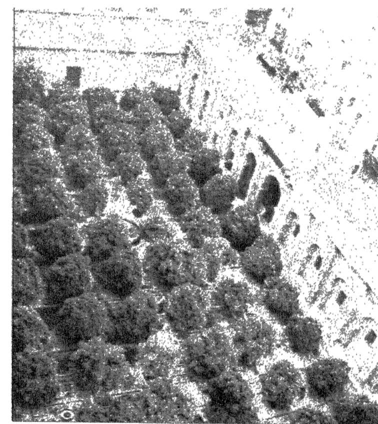




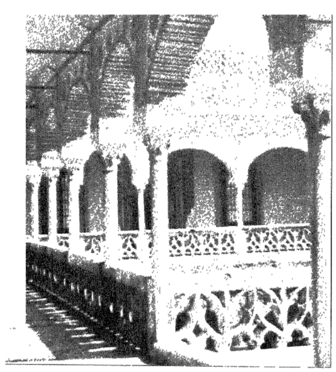
وبرج الخيرالدا وقد حلت محل
المسجد الجامع



برج الذه

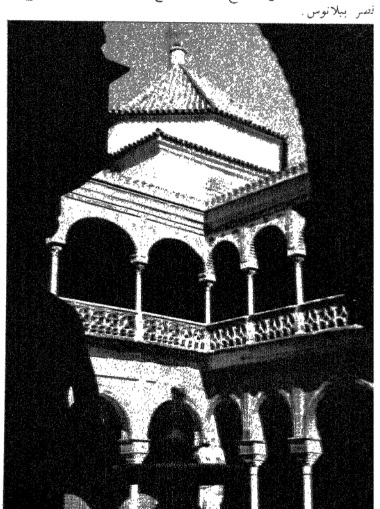


صحن الجامع: فناء النارنج وهذا ما تبقى من الجامع.

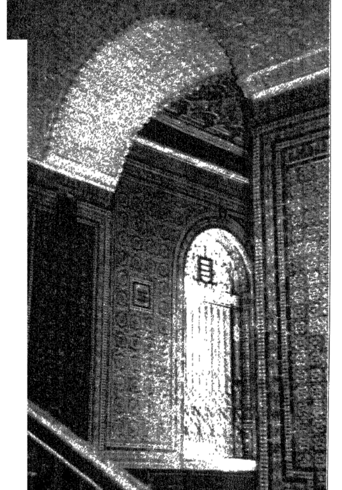


قصر بيلاتوس أنشأته أسرة مدينامالي على الطراز العربي عام ١٥٣٣م.

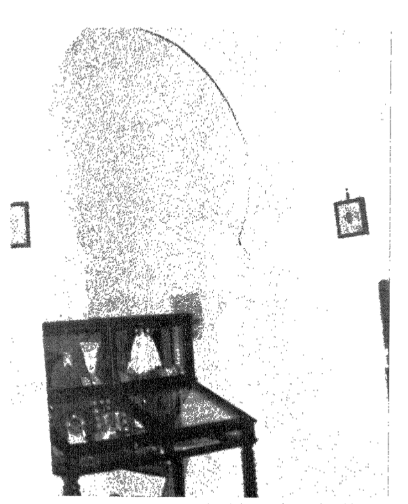
قصر بيلاتوس.



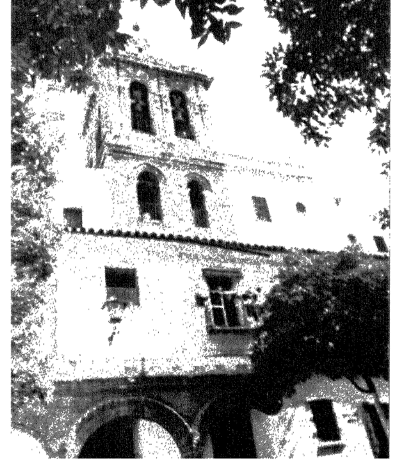
قصر بيلاتوس من الداخل.



[illegible] المساجد [illegible] ما
[illegible] إلا [illegible]
[illegible]
[illegible]



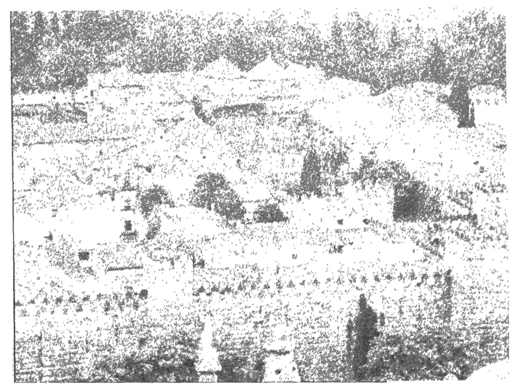
محراب الجامع الصغير الذي حول كنيسة.



منارة جامع حول إلى كنيسة.



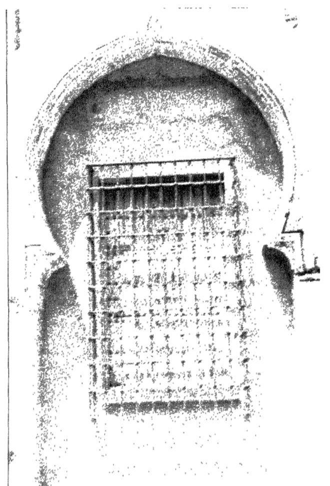
واجهة جامع عدبس أقدم جوامع اشبيلية وقد حول إلى كنيسة.



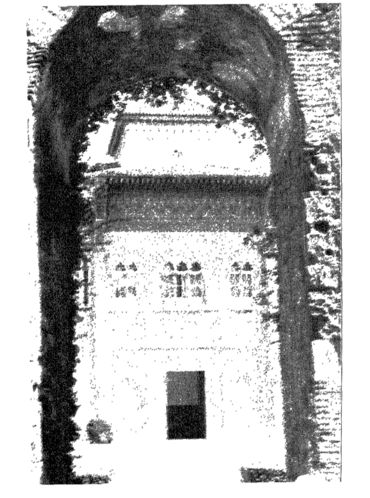
القصر : صورة من منارة الخيرالدا.

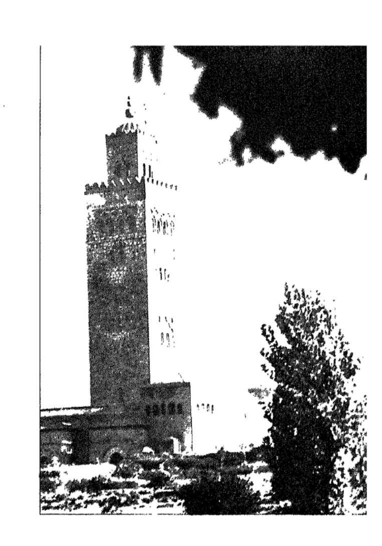


«أحد ابواب جامع اشبيلية جعل نافذة ثم سدت»



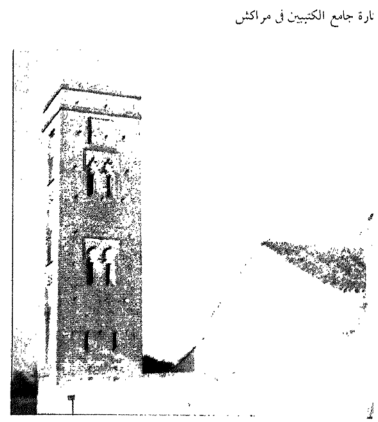
مدخل القصر أشبيلية



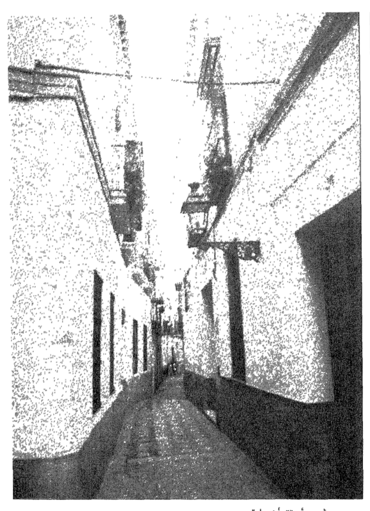


نارة جامع الكتبيين فى مراكش

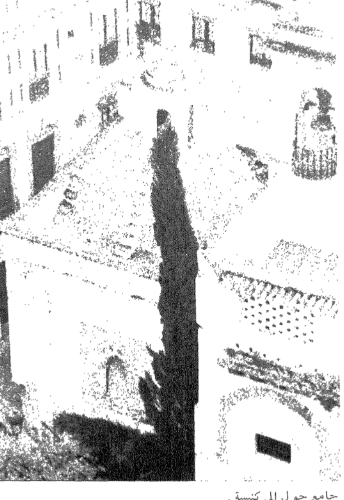
منارة حسان في الرباط



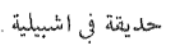
الخيرالدا منارة جامع اشبيلية



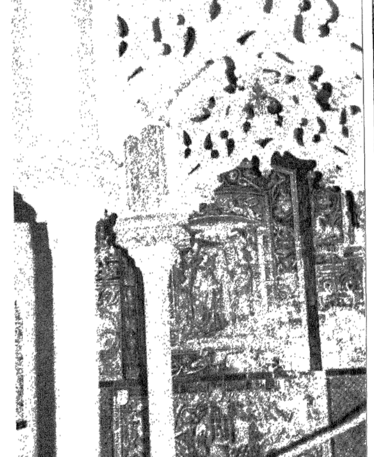
أحد أزقة أشبيلية .

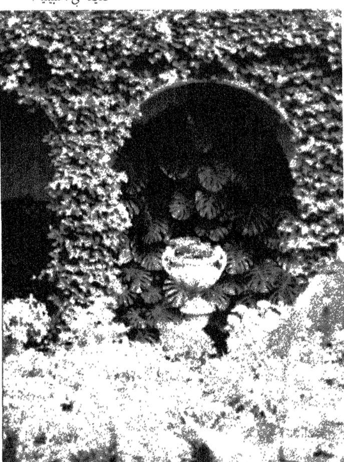


جامع حول إلى كنيسة .



حديقة في اشبيلية .







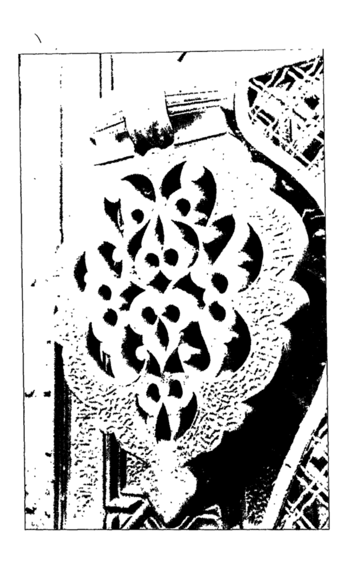
أشبيليه الراقصة

نموذج من الجمال العربي الاسباني





أندلسية ترقص بالكاستانيت



قارعة باب الجامع المؤدي الى فناء النارنج . . كل ما تبقى منه . . .

عندما انطفأت شموع العرب في الأندلس جميعها ، ظلت شمعة واحدة تضيء في ذلك الركن الجنوبي الشرقي من البلاد مدة قرنين ونصف قرن من الزمن ، تكونت خلالها تلك اللؤلؤة المعمارية الخالدة التي عرفت بقصر الحمراء .

لم تكن لغرناطة كبير أهمية بالنسبة الى اوائل الحكام العرب في الأندلس . ولذلك لا توجد فيها آثار عربية ترجع الى العهود الأولى من الوجود العربي . كان فيها حصن قديم استخدم أيام ملوك الطوائف ، ثم استولى عليه محمد بن نصر بن الأحمر اثر سقوط قرطبة وباقي المواقع العربية ، وزاد من تحصينه ، وابتنى فيه قصراً ، هدمه فيما بعد شرلكان، وأنشأ في مكانه قصراً لا يزال قائماً حتى اليوم ، اراد أن ينافس فيه قصر الحمراء العظيم ، فجاء منافياً للذوق الفني ، ومتنافراً مع ما حوله من طابع عربي ، فكان كجسم غريب وسط أسرة معمارية واحدة متناسقة .

أما القصر ، اللؤلؤة الفريدة ، الذي ما زال قائماً حتى اليوم ، باعجوبة يذهل لها المهندسون قبل المشاهدين العاديين نظراً لهشاشته ، فقد ابتناه سابع ملوك بني الأحمر ، وهو السلطان ابو الحجاج يوسف ، الذي دام ملكه مدة اثنين وعشرين عاماً ، 733-1333/755-1354 ، وزاد من عدد أجنحته خمسة سلاطين آخرين .

وكان لا بد ، لمن يقوم بابتناء مثل هذا القصر الحالم ، أن يتحلى بما تحلى به هذا السلطان من شاعرية وحساسية وشفافية . كل شيء في هذا القصر حالم ، نقوشه ، أعمدته ، جدرانه ، نوافيره ، ممراته ، ابوابه ، نوافذه . بل ان زائره يحس ، بعد ان يغادره ، انه كان في حلم ، حلم لذيذ ، لا يريد له ان ينتهي .

فموقع القصر، بحد ذاته، يهيّء له ميزة فريدة، إذ يشرف على المدينة من عل ، وتراه قابعاً في احضان جبل الشمس الذي ينحدر من جبال السييرا نيفادا (جبل الثلج) حيث تجلل قممها الثلوج طيلة السنة تقريباً . والى جانب القصر قلعة حصينة ، هي قصبة الحمراء التي كان يقيم فيها الجند . ويحيط بالحمراء سور عظيم له أبواب كبيرة أهمها باب الشريعة (Peurta de La Justicia) ، ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً ، وقد امر ببنائه ابو الحجاج يوسف عام 1348/749 ، وباب النبيذ (Peurta del Vino) ، وكان يعرف ايام العرب بباب الحمراء وباب الغدور (Peurta de las Pozas) وباب الطباق السبع (Peurta de Siete Suelos) وباب السلاح (Peurta de las Armas) .

ويشير البعض الى ان اسم الحمراء اطلق على هذا القصر بسبب لون جدرانه الخارجية ، في حين يقول آخرون ان السبب في ذلك كان يرجع الى ان بناء القصر كان يستمر ليل نهار وان ضوء المشاعل ليلاً كان يضفي عليه ذلك اللون الأحمر ، في حين قال آخرون انه اتخذ اسم بناته ، بني الأحمر . ويصر البعض ان الحصن كان يسمى بحصن الحمراء اصلاً قبل ان يتخذ منه بنو الأحمر مقراً لملكهم .

كما أن السائد لدى الكثير من الناس ان الحمراء هو القصر . فالقصر هو في الواقع جزء من الحمراء ، ويسميه الاسبان القصر العربي (Palacio Arabe) . فالحمراء ، ان شئت ، مجمع ، فيه القصور والقصبة وعدد من الابراج المتناثرة أهمها برج الحراسة في القصبة (Alcazaba) وبرج قمارش (Torre de Comarex) وبرج المتزين (Torre del Peinador) وبرج العقائل (Torre de las Damas) وبرج الآكام (Torre de los Picos) وبرج الاسيرة (Torre

وبرج الاميرات (Torre de las Infantas) وتتخللها جميعاً الحدائق وتقبع فيها جنة العريف الساحرة.

ويلج الزائر قصر الحمراء من باب الشريعة الذي يفضي الى ميدان الجب (أي الصهريج) ، (Plaza de los Aljibes) .

ويتكون قصر الحمراء من جناحين اساسيين هما جناح قمارش ، ويشتمل على قاعة السفراء ويعلوه برج قمارش ، وجناح الأسود حيث بهو الاسود الشهير . ويمتد أمام برج قمارش ، الذي يعلو قاعة السفراء ،فناء واسع مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة ماء تحيط بها أشجار الريحان ، واسمه فناء الريحان (Patio de los Arrayanes) ويسمى أيضاً بفناء البركة (Patio de Alberca) .

اما قاعة السفراء (Sala de Embajadores) فمستطيلة الشكل فسيحة تعلوها قبة عالية من الخشب المحفور يزيد ارتفاعها عن ثلاثة وعشرين متراً . وتزخر جدران القاعة بالنقوش العربية ، التي جددها الاسبان بعد ان طمستها يد التعصب اثر سقوط غرناطة ، وكستها بطبقة من الكلس لطمس معالم الأثر العربي فيها . وثمة نقوش لابيات من الشعر ولآيات قرآنية في جميع انحاء القاعة .

وينفتح من فناء الريحان باب يؤدي الى قاعة الاختين ، وقد سميت كذلك لوجود قطعتين متساويتين فريدتين من الرخام في أرضها . وينفتح منها باب يؤدي الى بهو السباع العجيب .

ويرجع الفضل في انشاء هذا البهو ، الذي يعتبر درة تاج قصر الحمراء ، الى السلطان محمد الغني بالله الخامس (755-793/1354-1391) ، بل ربما كان أجمل الاثار الباقية من التراث المعماري الذي تركه العرب في اسبانيا او في أي مكان آخر . ومن العبث الاسترسال في وصف جمال هذا الفناء . فجميع نعوت اللغة ، أية لغة ، لا يمكن ان تفيه حقه ، حتى ان أشهر الفنانين والمصورين يشعرون بالعجز عند محاولة التعبير عن جماله بريشاتهم وعدساتهم ، ولا بد للمرء من مشاهدته بنفسه ليشعر بالسحر والرهبة ازاء ذلك الابداع العبقري .

ولعل الرشاقة هي أبرز صفاته ، بل الشفافية ، بل ربما كانت الجاذبية التي تشد اليه الزائر ، فلا يقوى على مبارحته ، يظل واقفاً مشدوهاً يسرح بخياله ، ينتظر عبور السلطان بجبته الفضفاضة وعمامته المرصعة ، بل جواريه الحسان بثيابهن الزاهية وهي ترقص طرباً فوق اجسادهن الغضة ، على أنغام خرير المياه المتدفقة من النافورة التي يحملها اثنا عشر اسداً ينفثون هم كذلك الماء من أفواههم ، فيختلط هذا كله بتغريد البلابل في سمفونية خالدة رائعة النغم .

وبهو الاسود او السباع هذا مكشوف مستطيل الشكل ، طوله نحو خمسة وثلاثين متراً ، وعرضه نحوعشرين ،تحيط به أروقة ذات عقود جصّية اشبه ما تكون ، في زخرفتها وخفتها بأغشية رقيقة شفافة من « دانتيلة » صنعتها أنامل ملائكية ، وربطت اطرافها المتدلية بأعمدة رخامية رقيقة جاءت تجسيماً للرشاقة والخفة والهَيَف .

وفي نهايتي الفناء خميلتان تعلوهما قبتان مزخرفتان تستندان الى أعمدة كالأعمدة التي تستند اليها الاروقة ، وتكوّن معها ، غابة من الأعمدة الرقيقة التي يحار البصر في جمال صنعتها ورشاقتها . وقد نقشت على حافة النافورة ابيات من شعر ابن زمرك في وصف الحمراء ، وشعار بني الأحمر « ولا غالب الا الله » وهو الشعار الذي يتكرر نقشه في جميع أنحاء الحمراء .

وفي أحد جوانب البهو ، أي في مقابل بهو الاختين باب يؤدي الى قاعة بني سراج (Sala de los Abencerrajes) التي تعلوها قبة تتدلى منها مقرنصات رائعة اشبه بالعناقيد ، وتحيط بها اقواس مزخرفة وتتوسطها بركة صغيرةمضلعة . وهي من اجمل قاعات قصر الحمراء . وبنو سراج هؤلاء كانوا خصوم بني الأحمر ، وتقول اسطورة يرددها الكثير ، بأن احد سلاطين بني الأحمر دعاهم الى القصر ، وقتلهم واحداً بعد الآخر تخلصاً

من سنافستهم له ، ويدلل مرددو الاسطورة على ذلك بوجود بقع داكنة من الدماء ما زالت عالقة في أرض القاعة . ولعل هذه واحدة من مئات الاساطير التي رددها الاسبان ، بعد الاسترداد ، حين أخذت الكنيسة تتسلط على عقول الناس ، وتحشوها بالكثير من الخزعبلات والخرافات .

والى الجنوب من بهو السباع مدخل يفضي الى قاعة الملوك ، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة تنتصب فيها اقواس مدببة متعاقبة تتدلى منها زخارف جصية كما في القاعات الأخرى . وفي سقف القاعة رسم على الجلد يقال انه يمثل سلاطين بني الأحمر ، أغلب الظن انها من رسم فنانين نصارى . وجدرانها ، كبقية جدران القصر مزخرفة أجمل زخرفة وعليها نقوش في صورة ابيات من الشعر .

وفي القصر قاعات عديدة اخرى منها منظرة السلطانة (Mirador de Lindaraja) وهي قاعة جميلة تشرف على فناء مكشوف كثير الخضرة تتوسطه نافورة صغيرة .

ومن المعالم المهمة في القصر ، الحمّام العربي الجميل الذي يضم عدداً من الاحواض التي كانت تصل اليها المياه الساخنة والباردة في أنابيب ما زالت موجودة . وتتوسط الحمام العربي قاعة استراحة ، لها مصطبة مرتفعة عن سطح الأرض ، يكسوها بلاط قيشاني ذو رسوم عربية ، وامامها نافورة . ولهذه القاعة سلم جميل يصلها بالقصر .

ويشير الاعتناء بتجميل هذه القاعة الى مدى اعتناء العرب بالاستحمام والنظافة ، في الوقت الذي لم يكن أهل أوروبا ، وحتى الرومان الذين اخترعوا هذه الحمامات ، يعرفون الاستحمام ، بعد ان حرمته الكنيسة باعتباره مخالفاً للطبيعة ، وبالتالي كان الاستحمام يعد ضرباً من ضروب الهرطقة والكفر . حتى ان قصر فرساي العظيم ، بجوار باريس ، الذي جاء تجسيداً للابهة والفخامة لم يكن فيه مكان واحد للاستحمام .

ولم تقتصر الناحية الجمالية على القصر وحده . ففي حدائقه ابراج لا تقل زخرفتها وجمالها عما في القصر ذاته ، ومن هذه الابراج برج الأسيرة (Torre de la Cautiva) وبرج الاميرات (Torre de las Infantas) ، وهي اسماء اطلقها عليها الاسبان فيما بعد وأوحت لهم بالعديد من الأساطير والقصص الخيالية التي كانت تدور حول حياة القصور ، وبممارسات العرب للسحر والشعوذة ، والتي وضع الكاتب الامريكي واشنطن ايرفنغ عنها كتابه الشهير « قصص من الحمراء » .

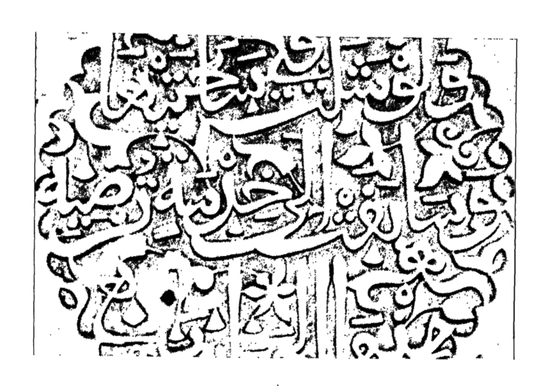
أما الحدائق المحيطة بالقصر فهي اشبه بالجنة ، ولا عجب أن اطلق عليها اسم جنة العريف (أي المهندس) . وثمة بناء آخر بمحاذاة القصر اسمه البرطل (Partal) وامامه بركة ماء فسيحة تحيط بها الأشجار والزهور .

أما جنة العريف فتقع على هضبة تشرف على قصر الحمراء وهي عبارة عن حدائق رائعة يتوسطها قصر مكون من طابقين ابتنى الاسبان الطابق العلوي منها فيما بعد . وتصور هذه الحدائق الرائعة مدى عشق العرب للمياه الجارية ، الذي ربما يرجع الى حرمانهم منها تاريخياً . ولعل في صور هذه الحدائق أجمل تعبير عن روعتها وجمالها .

ويطول الحديث عن الحمراء وعن غرناطة وعن التراث الذي خلفه اجدادنا في تلك البلاد الجميلة . واذا تجول المرء في غرناطة ، في حي البيازين وسوق القيصرية يصعب عليه أن يصدق أنه في بلد غير عربي . حتى ان اشكال الناس تغريه بمخاطبتهم بالعربية .

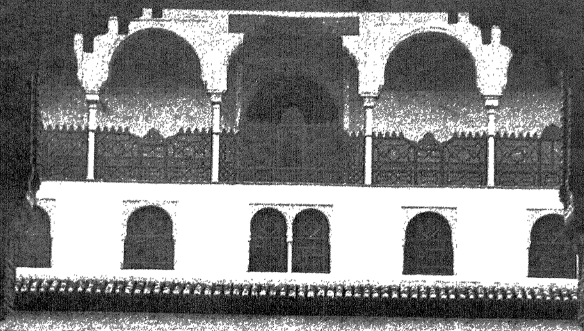
1 ـ المدخل الحالي
2 ـ ساحة الجب
3 ـ [illegible]
4 ـ بهو ماتشوكا
5 ـ برج ماتشوكا
6 ـ المشور
7 ـ بهو القاعة المذهبة
8 ـ القاعة المذهبة
9 ـ فناء الريحان
10 ـ قاعة السفراء
11 ـ الحمام
12 ـ بهو المشربية
13 ـ برج متزين الملكة
14 ـ حديقة دار عائشة
15 ـ منظرة دار عائشة
16 ـ قاعة الأختين
17 ـ بهو السباع
18 ـ قاعة المقرنصات
19 ـ قاعة الملوك
20 ـ قاعة بني سراج
21 ـ قصر كارلوس الخامس

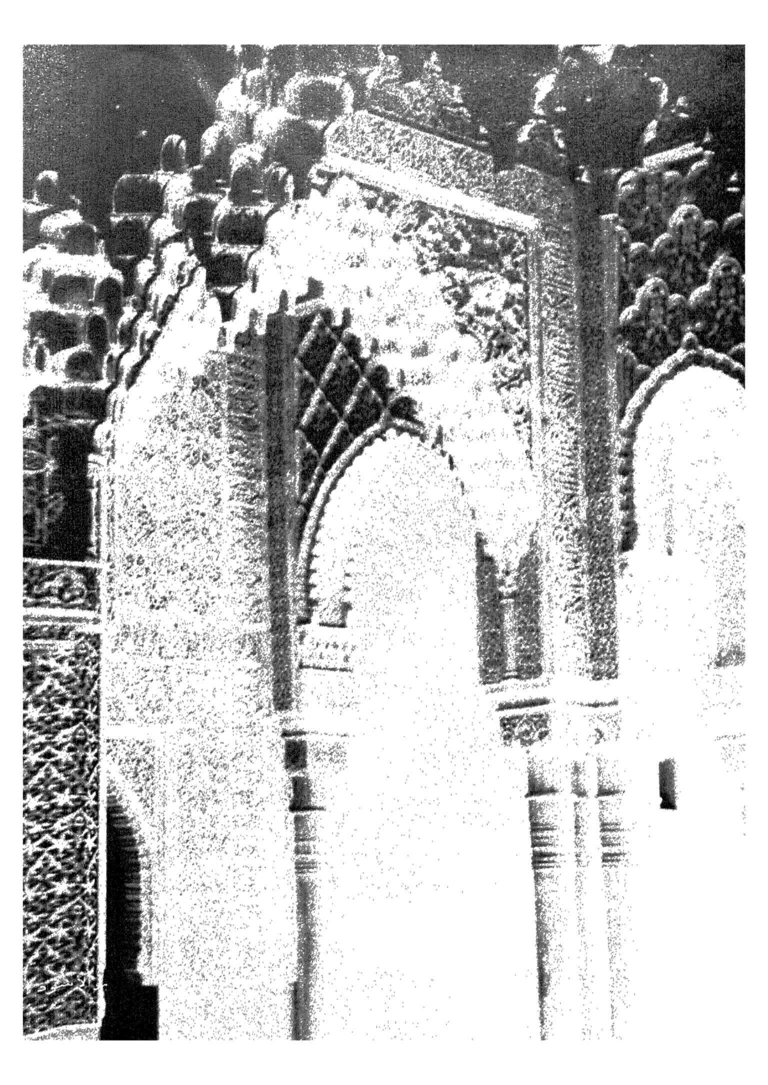


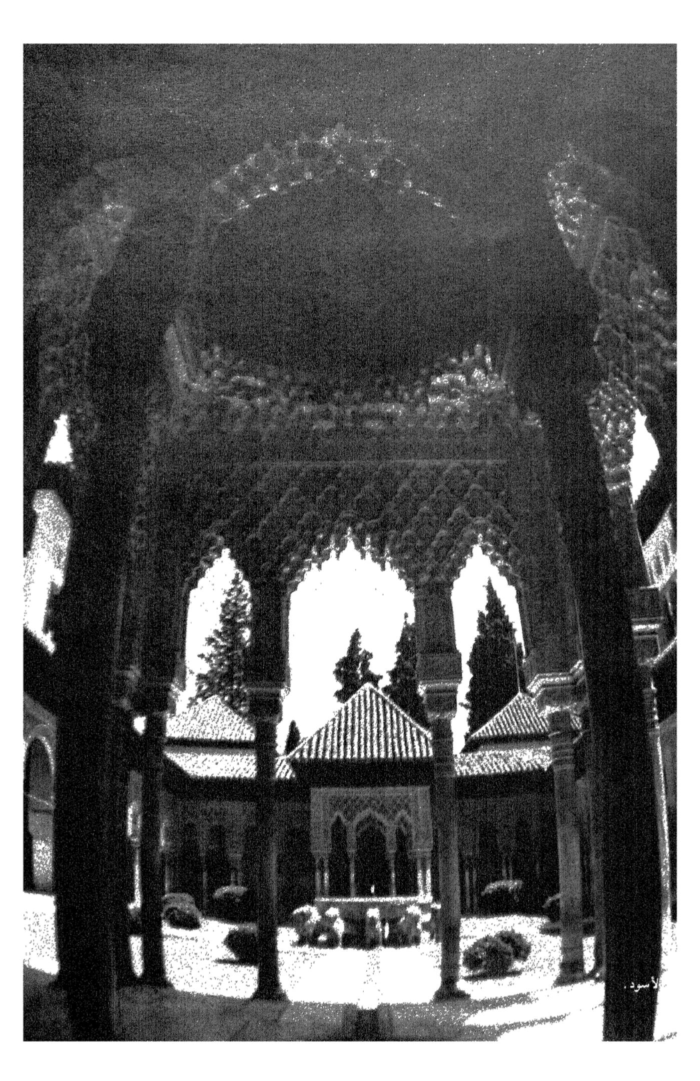


نقوش خارج قاعة حمارش تمثل جزءا من احدى قصائد ابن زمرك

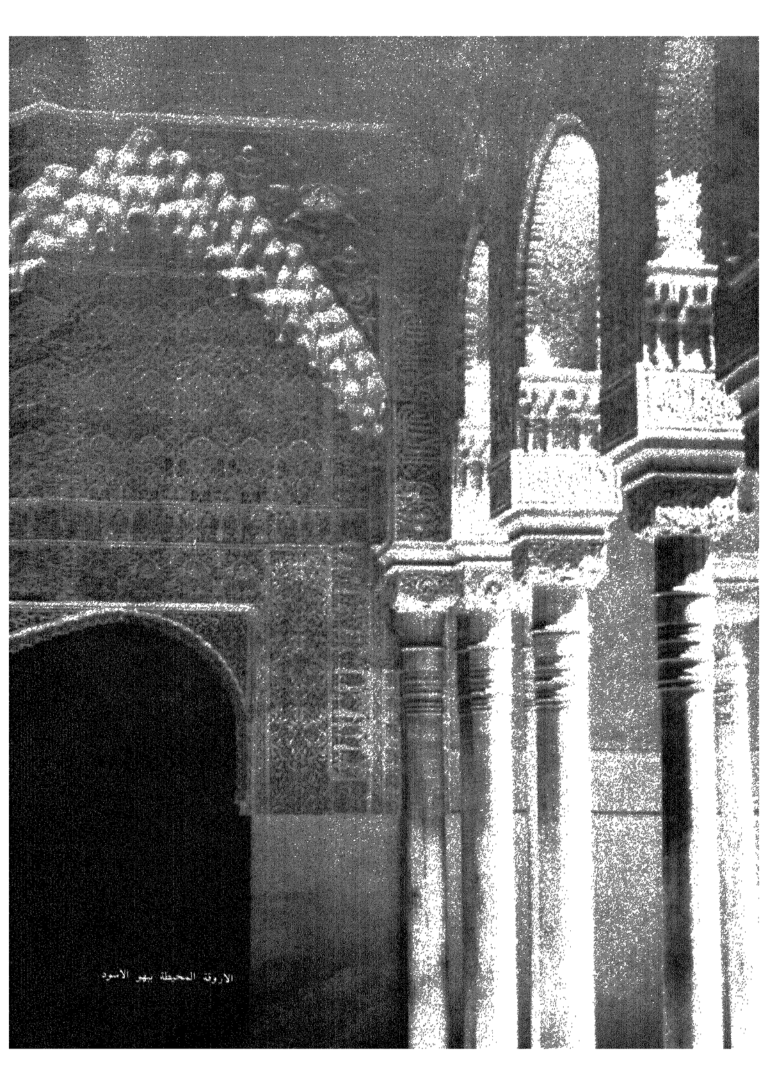
رعى الله من غرناطة متبوّأ
يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى
مسارحها بالثلج عاد جليدا
هي القصر صان الله من أهلت به
وما خير ثغر لا يكون برودا





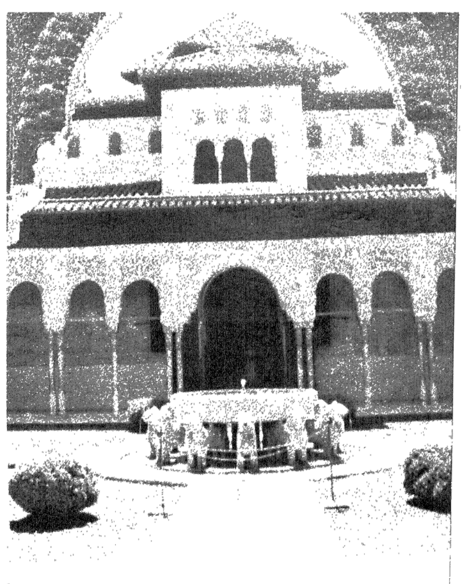
لأسود.



الاروقة المحيطة ببهو الاسود

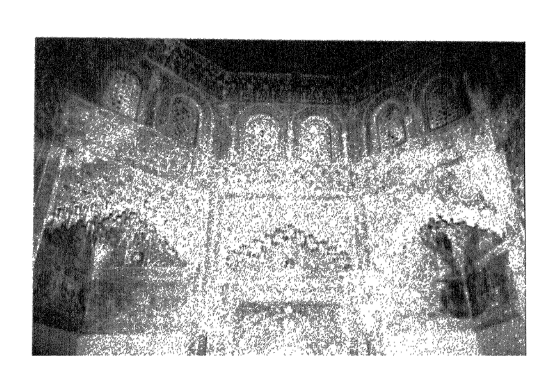
قبة قاعة السفراء.

مدخل قاعة السفراء.



[illegible]

ـهو الأسود



قاعه السفراء .

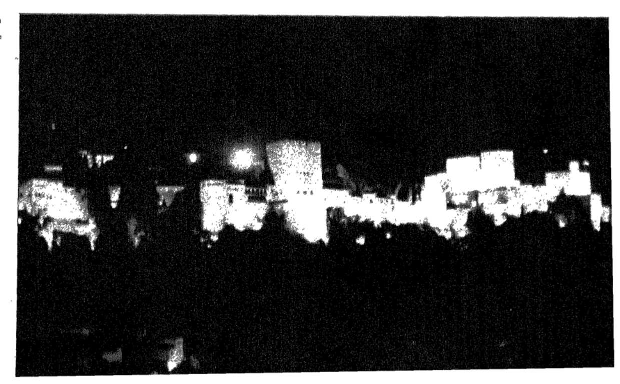
قصور الحمراء .



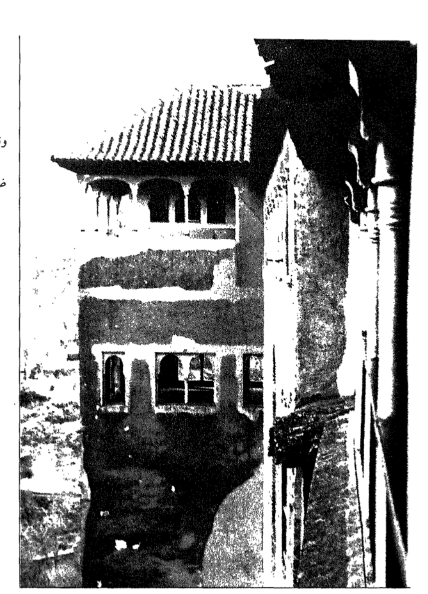
رعى الله بالحمراء عيشاً قَطعتُه ذهبت به للأنس، والليل قد ذهب

ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

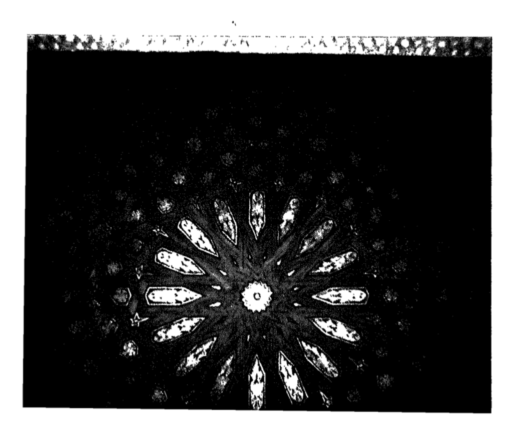
قصور الحمراء :
منظر ليلي .



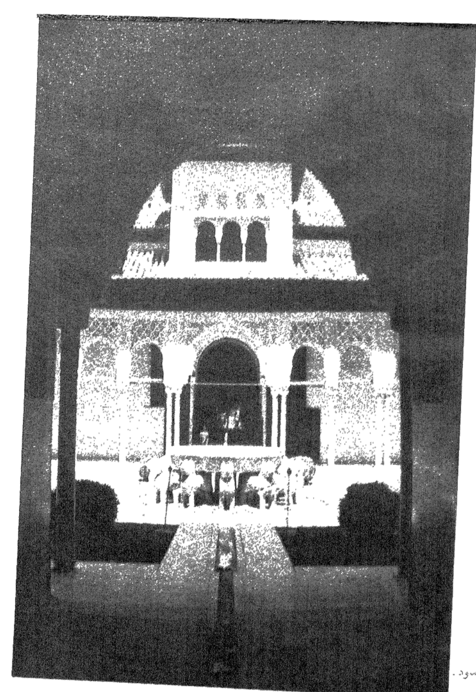
وتـريك في الصهـريج موقـع قطرها
فـوق الزبرجـد لؤلـؤاً منثورا
ضحـكت محاسنـه إليك كأنما
جعلـتْ لهـا زهـر النجـوم ثغورا



أحد أجنحة
قصر الحمراء.

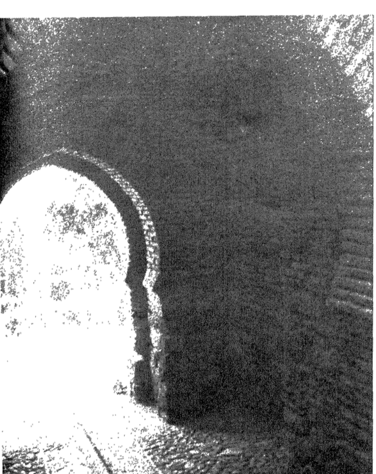


سقف قاعـة العـدل
مصنـوع من خشـب الأرز
المذهب.



بهو الأسود.

وترى مجلس السباع خلاء　　مقفر القاع من ظباء وخنس
لا (الثريا) ولا جواري الثريا　　يتنزلن فيه أقمار إنس
مرمر قامت الأسود عليه　　كلة الظفر لينات المجس
تنثر الماء في الحياض جمانا　　يتنزى على ترائب ملس



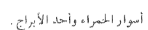
الباب المؤدي إلى القصبة .



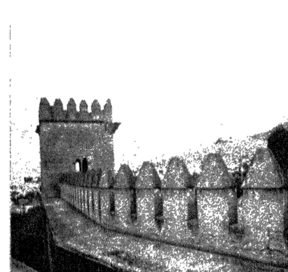
باب الشريعة (ويسمى بالاسبانية باب النبيذ)
وهو المدخل الرئيسي للقصور .

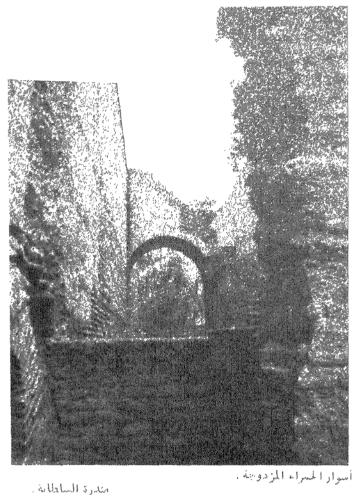


برج العذارى .

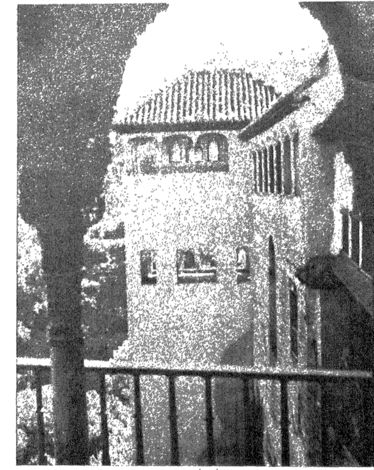


أسوار الحمراء وأحد الأبراج .



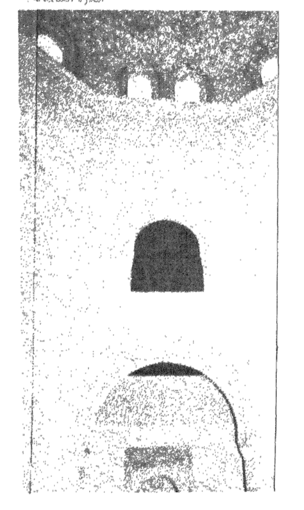


أسوار الحمراء المزدوجة .

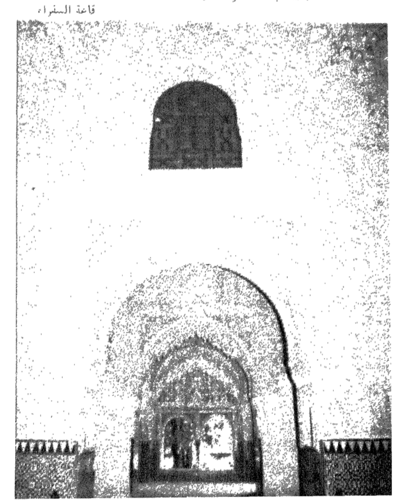


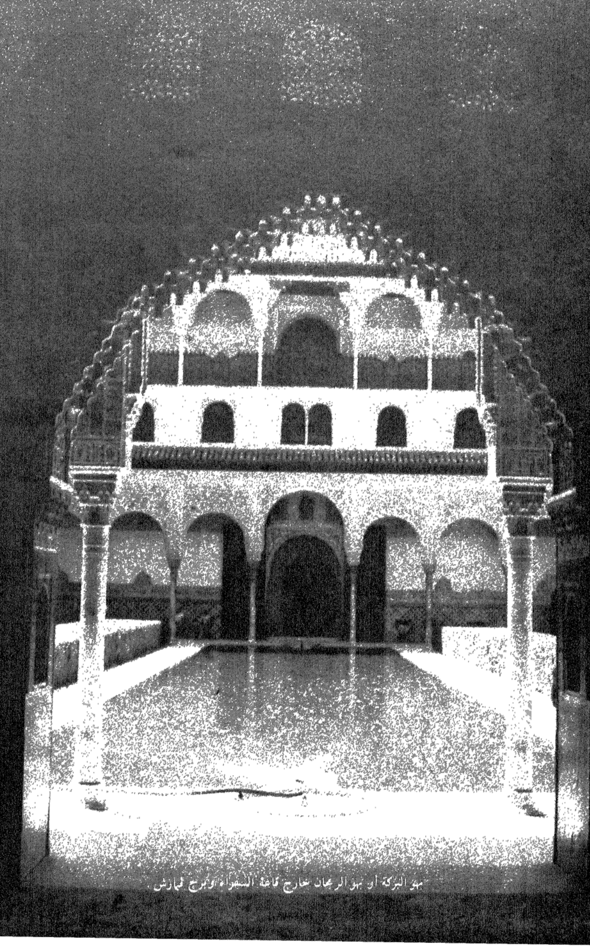
أحد أجنحة قصر الحمراء .

مئذنة السلطانة .

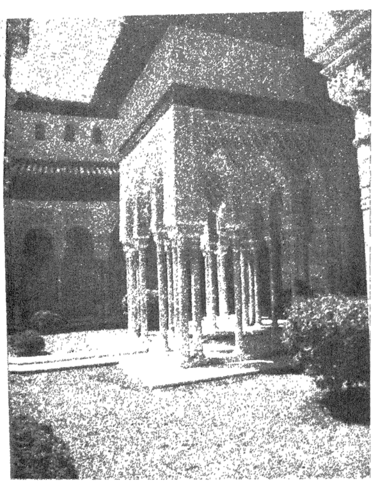


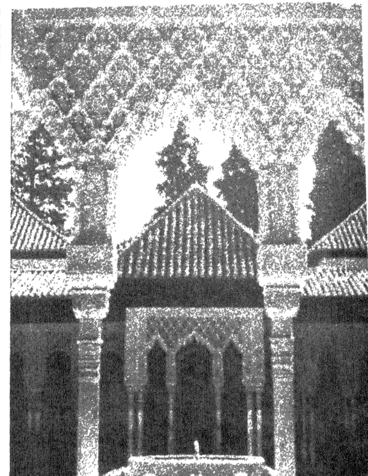
قاعة السفراء

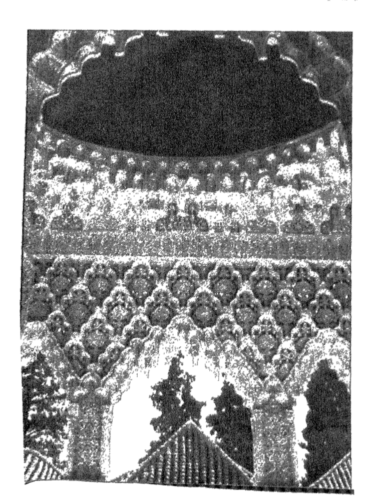


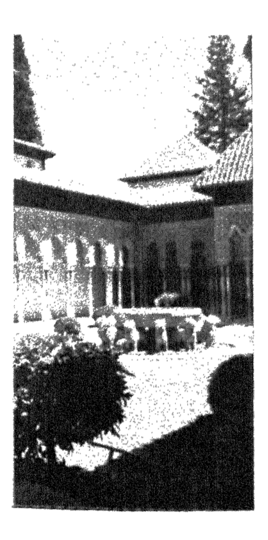


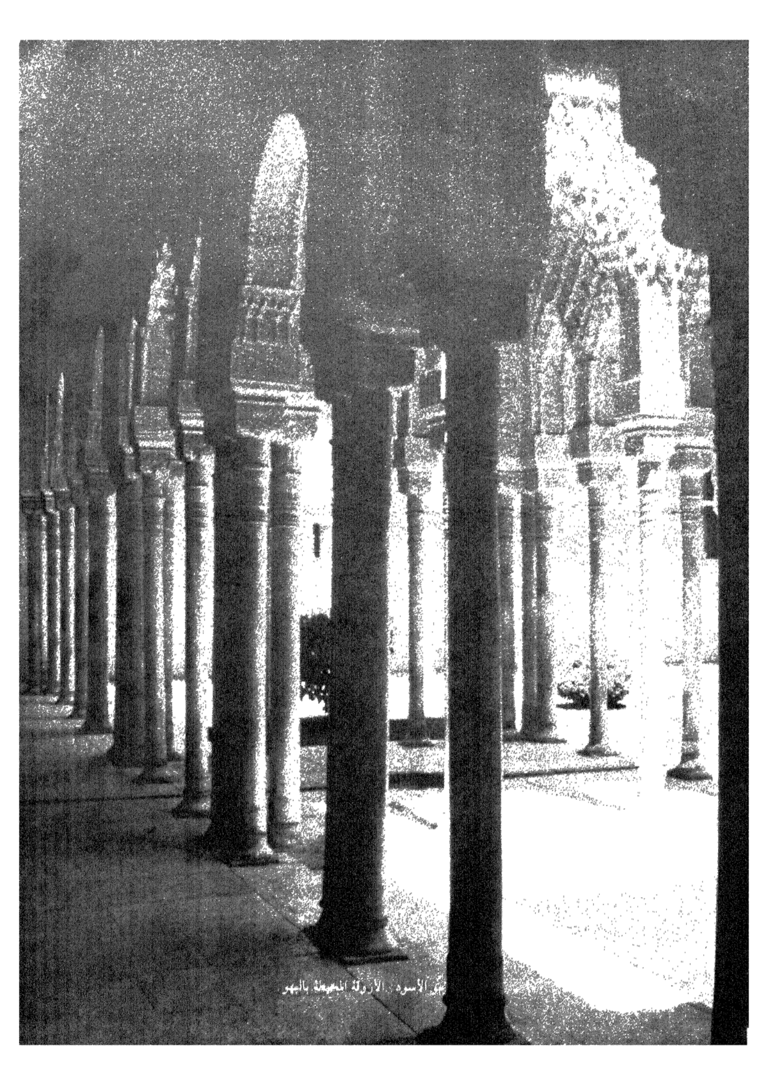
بهو البركة أو بهو الريحان خارج قاعة السفراء وبرج قمارش.



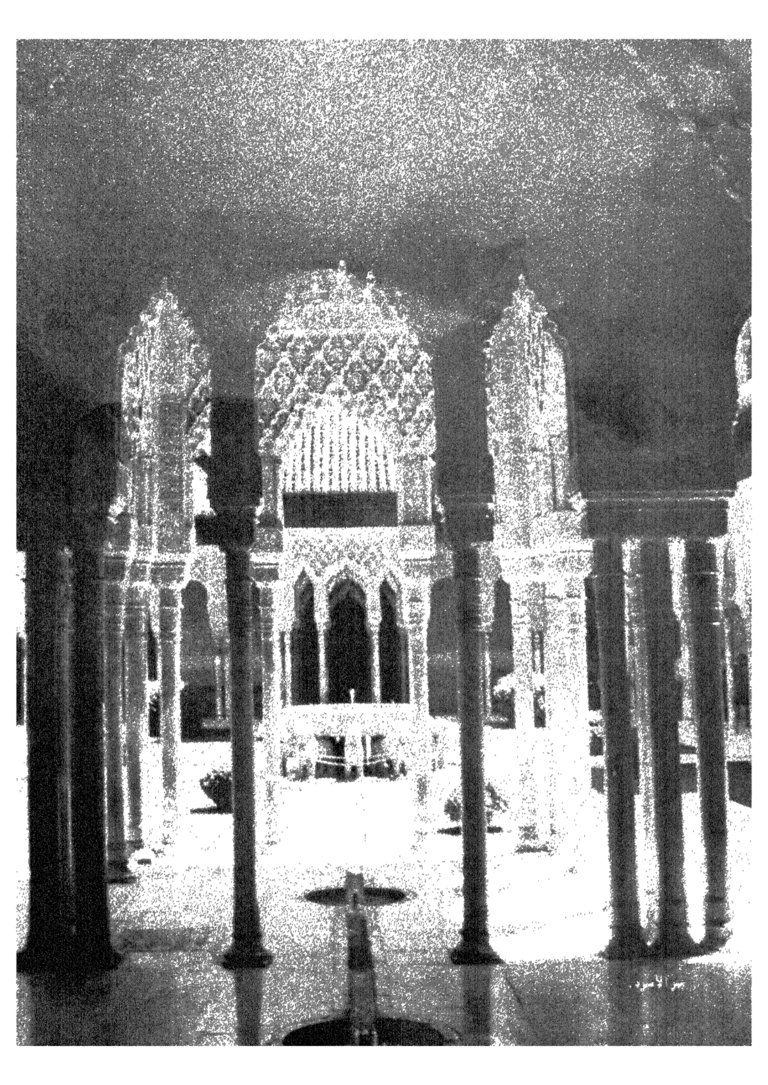


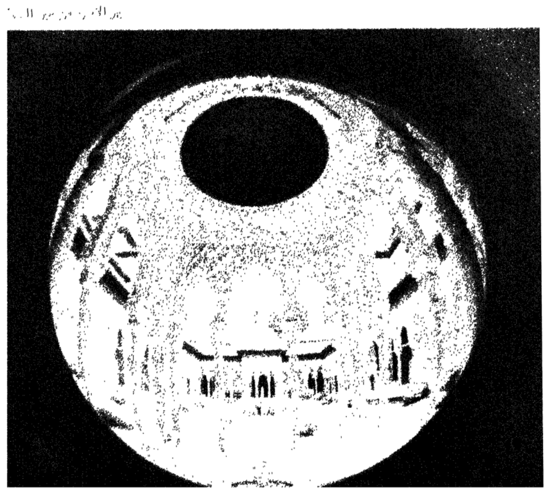


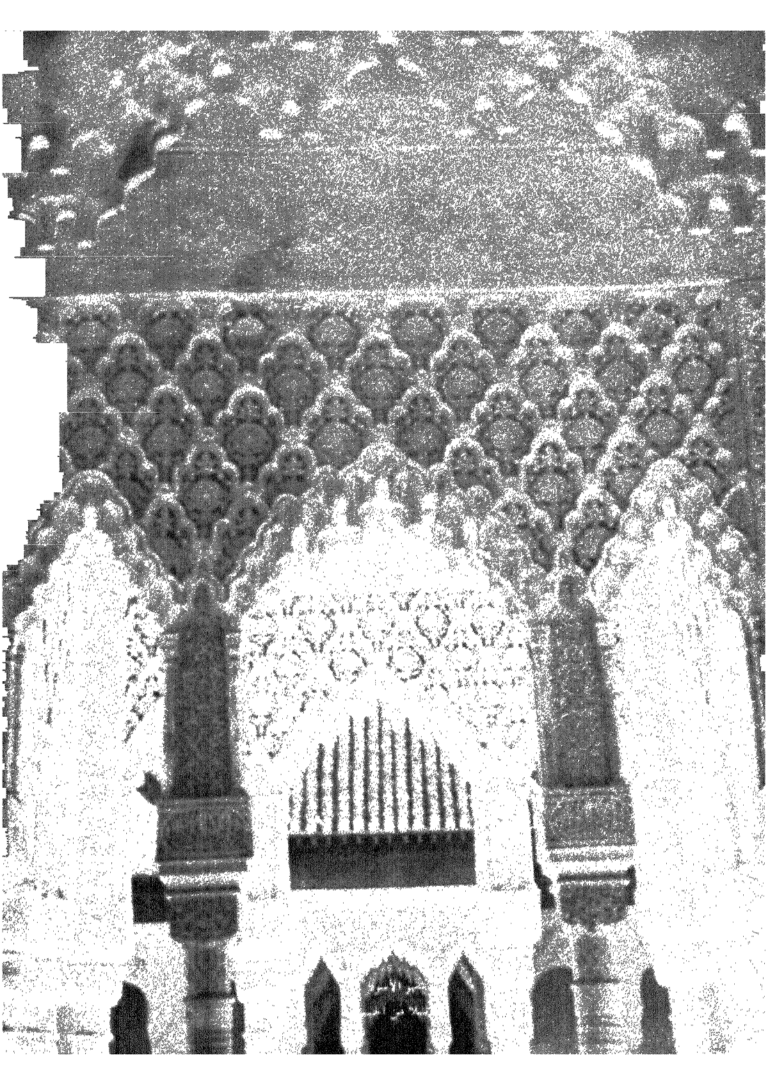


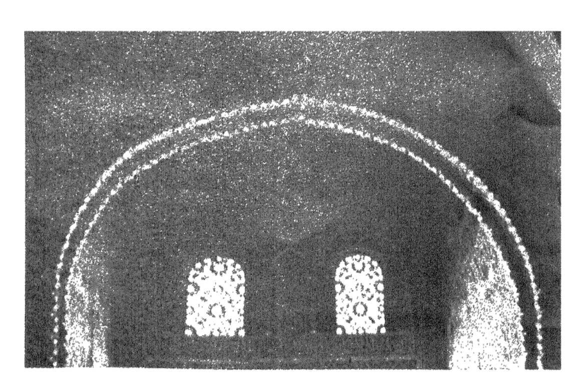


الأسود . الأروقة المحيطة بالبهو

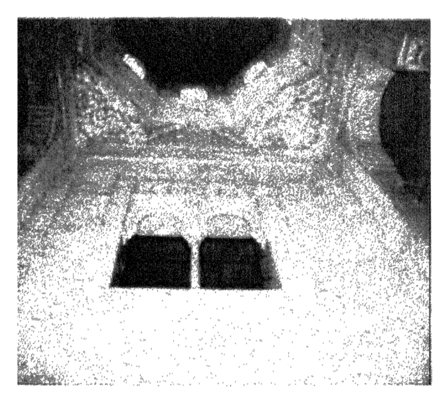






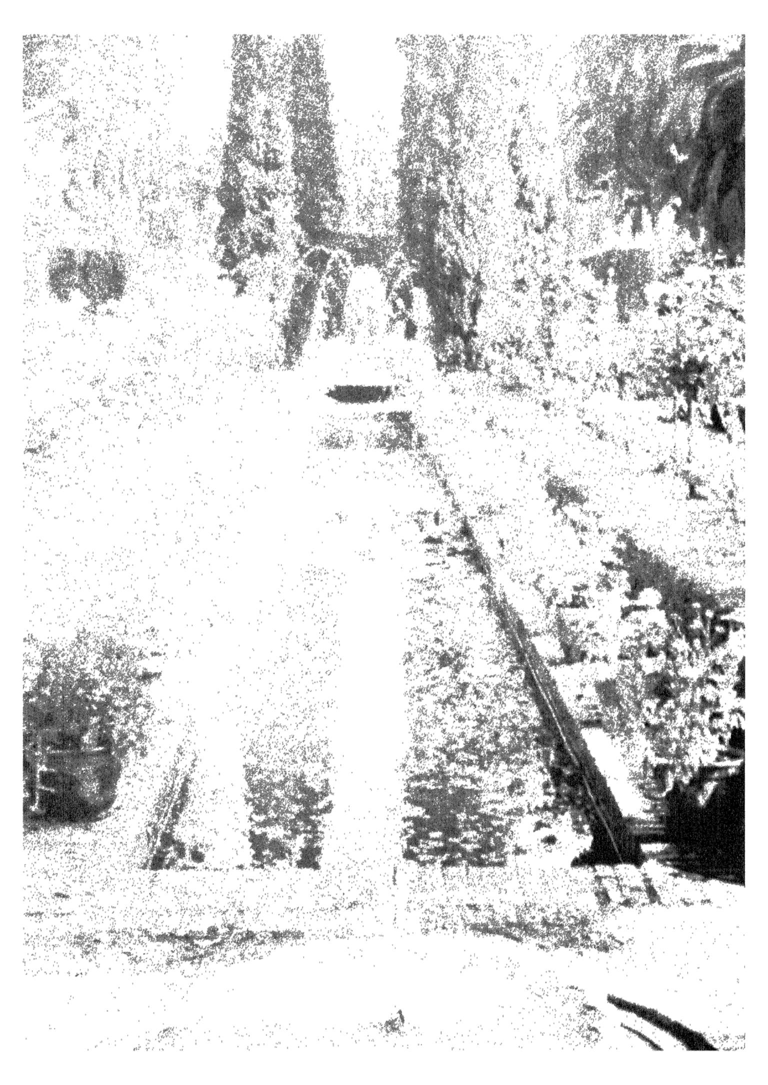


قاعة السفراء.



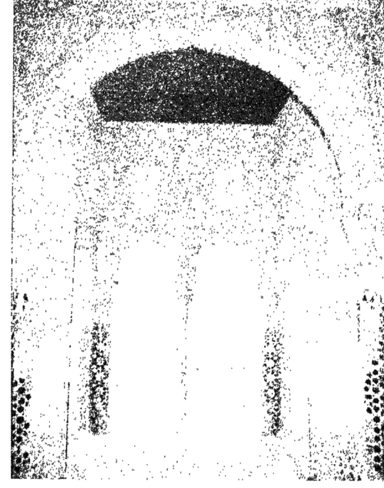
برج العذارى.

أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا [illegible] أهواء





جنة العريف.

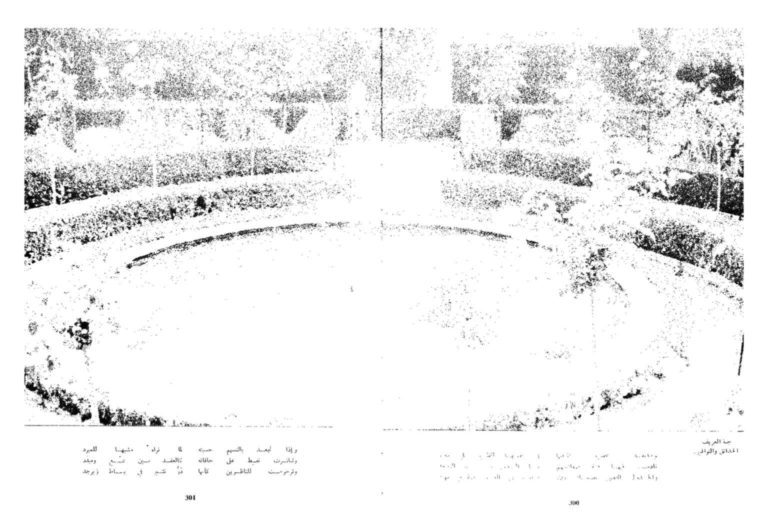


برج العذارى.

وتريك في الصهريج موقع قطرها
فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
تحكي محاسنه السماء كأنما
جعلت لها زهرُ النجوم ثغورا



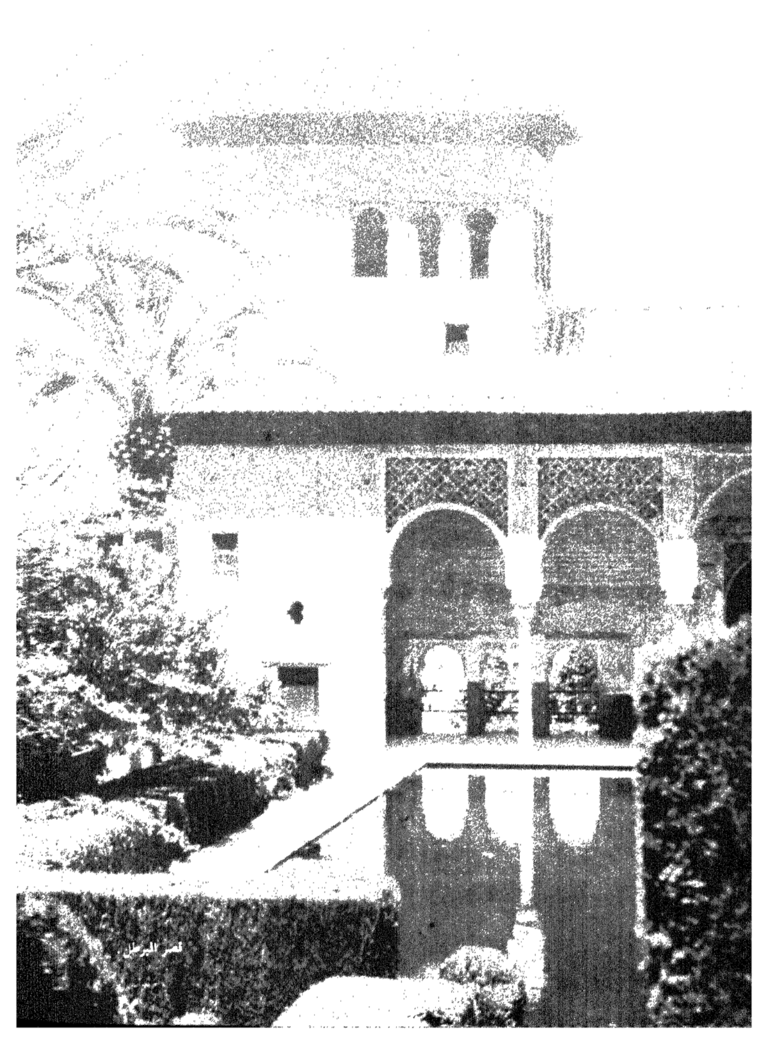
قصر جنة العريف.



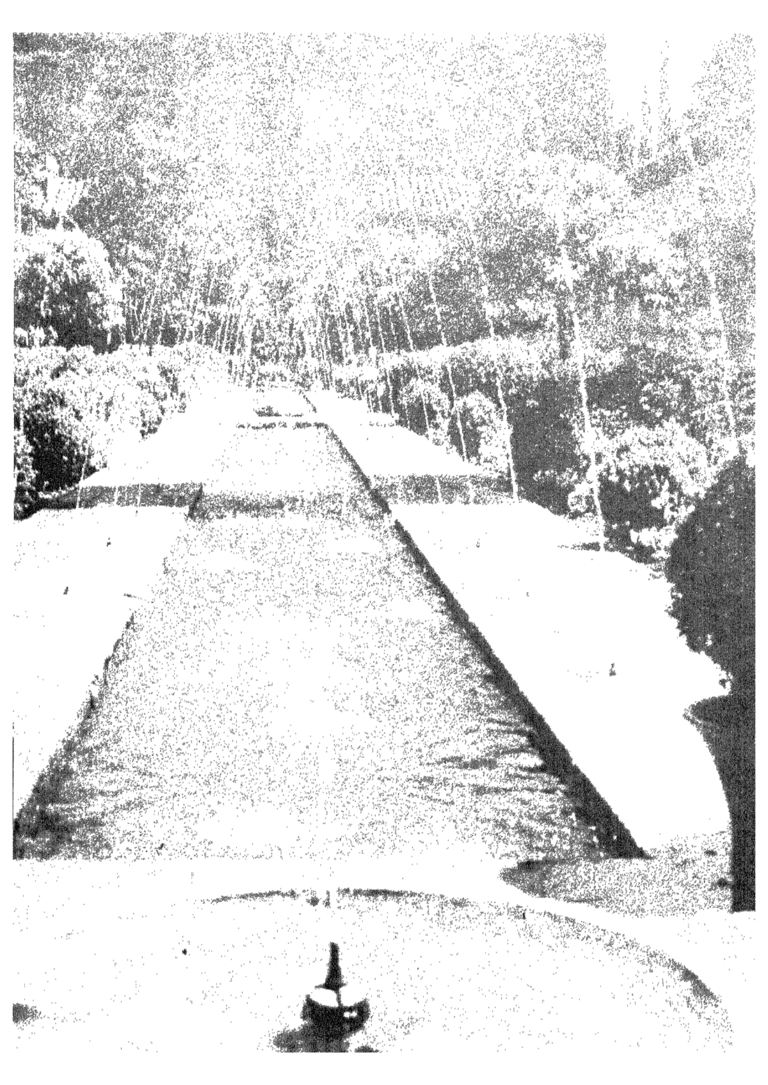
جنة العريف
الحدائق والنوافير

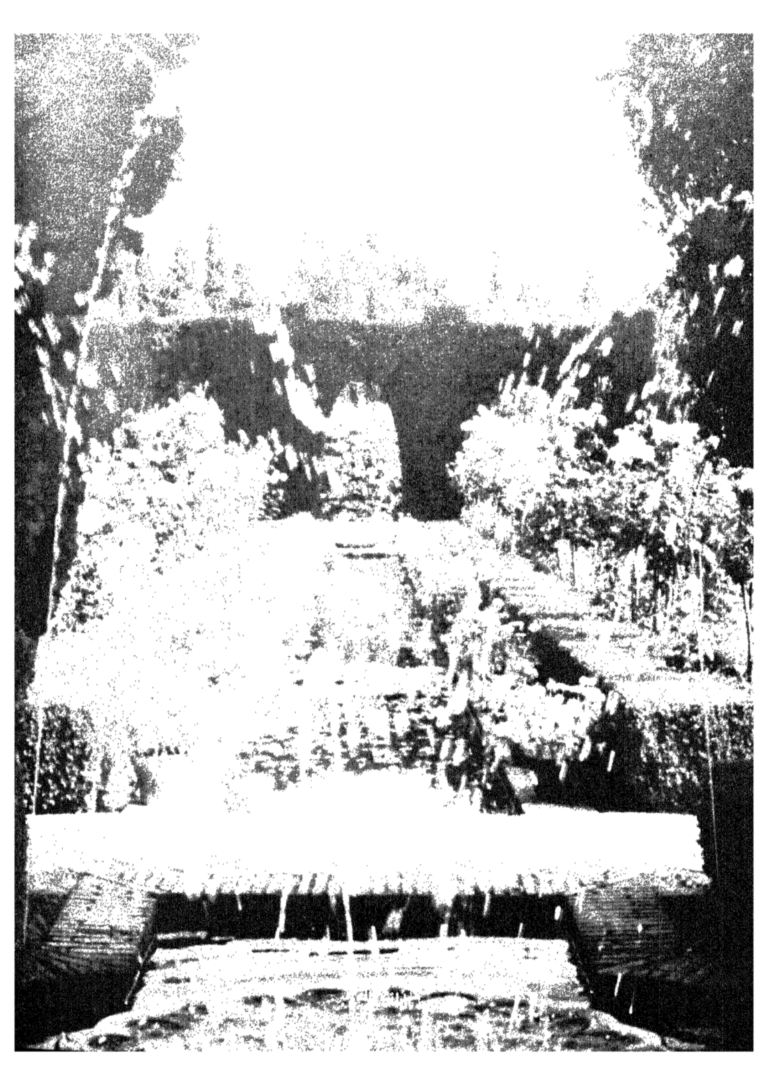
[illegible]

وإذا تعهد بالنسيم حسبه لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته كالعقد بين مرصع ومبدد
وترجرجت للناظرين كأنها ذوب تشع في بساط زبرجد



قصر البرطل







جنة العريف مدخل القصر.



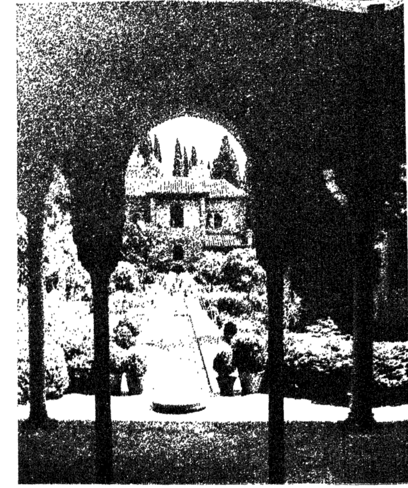
مدخل قصر الإمارة

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها «لا أنت أنت ولا الديار ديار»

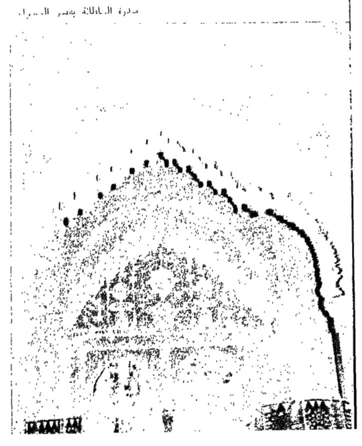


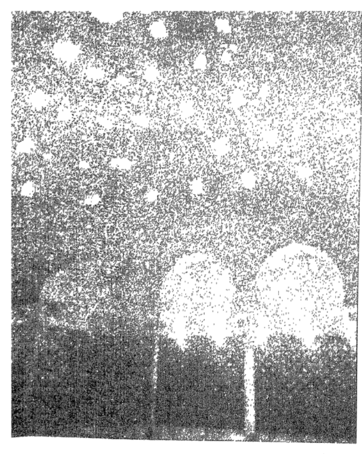
جنة العريف في قصر الحمراء

[illegible]

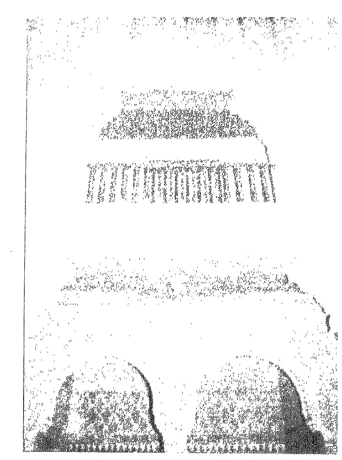


[illegible] بقصر الحمراء

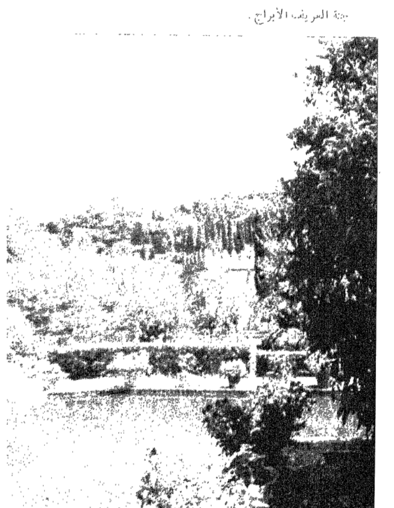




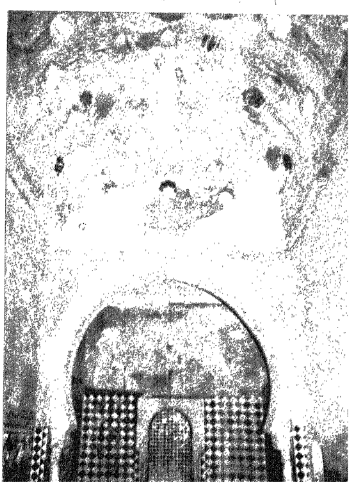
حمام القصر.



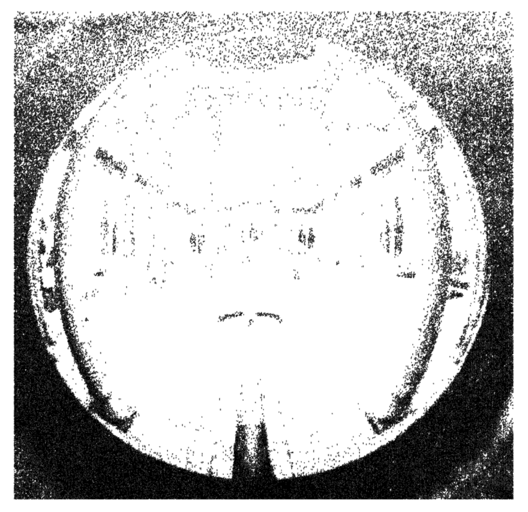
حمام القصر [illegible]



جنة العريف، الأبراج.

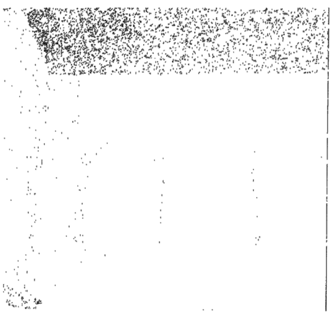


حمام القصر [illegible]

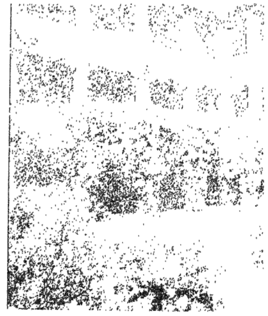


[illegible] ـبو الأسو

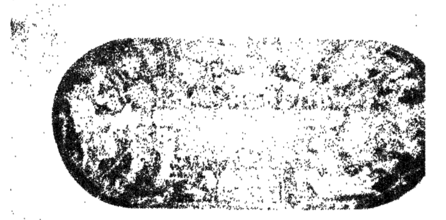
حام العصر: الاستراحة.



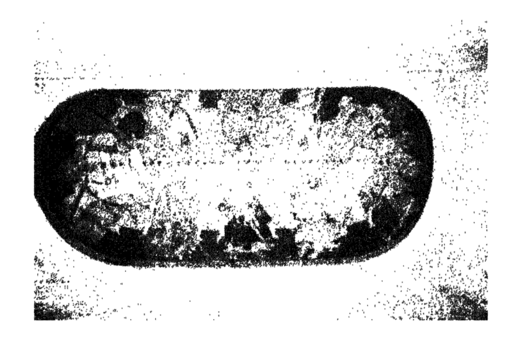
قاعة السفراء

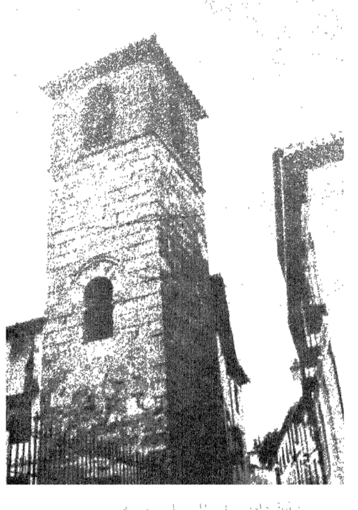


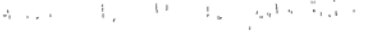
باحة الريحان

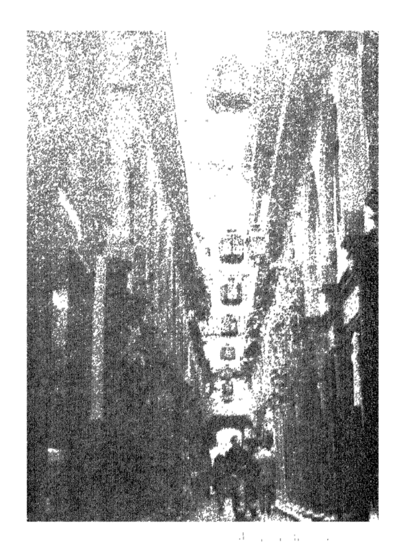


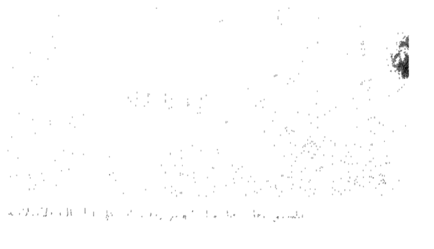
صورتان تمثلان ملوك بني الأحمر
مرسومة على سقف قاعة
الملوك في قصر الحمراء



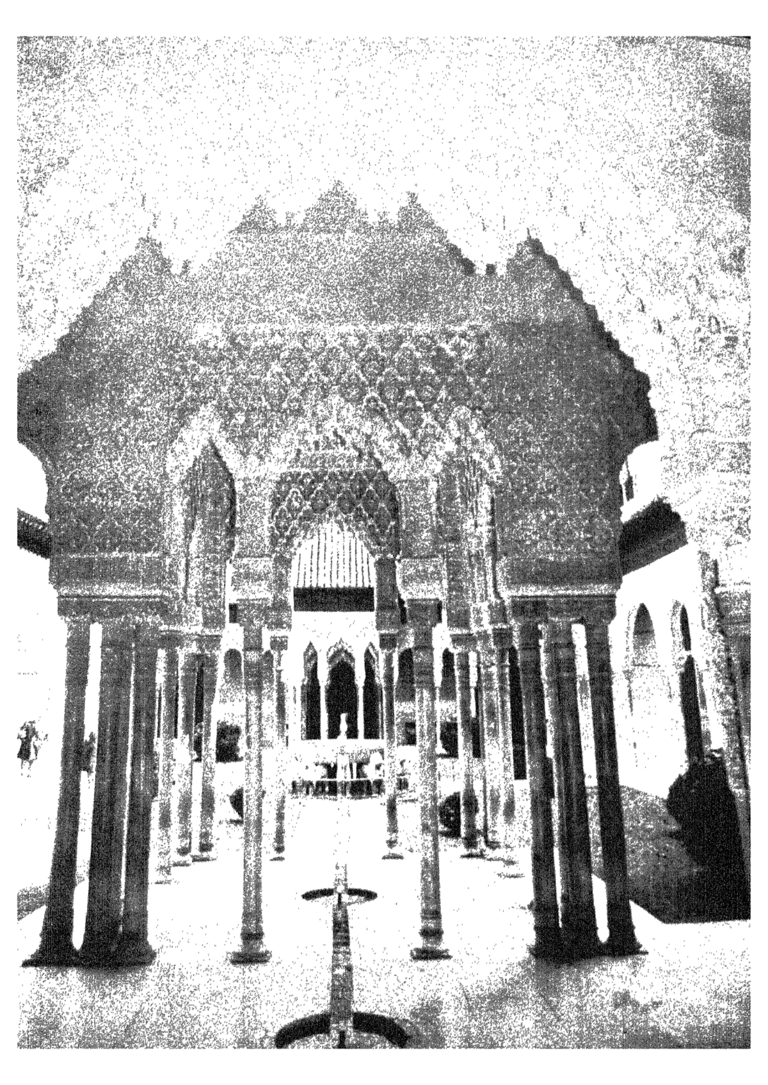


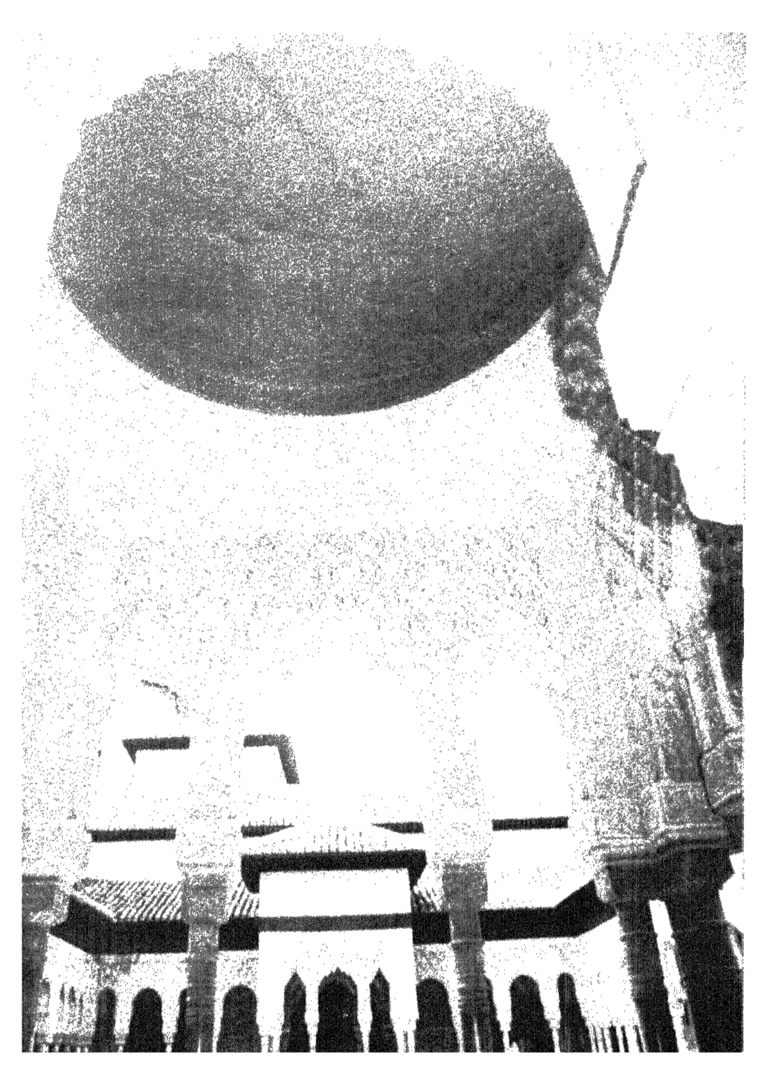








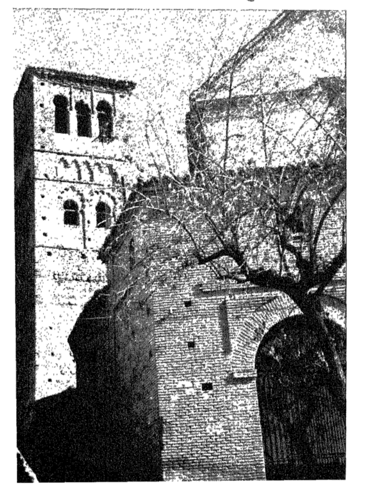




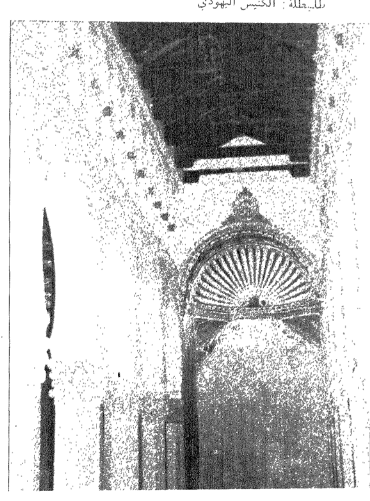


طليطلة : منظر عام .

أصبحت طليطلة معطلة من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر

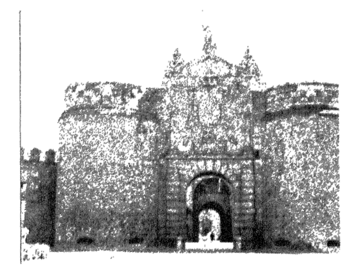


طليطلة : مئذنة جامع حول إلى كنيسة .

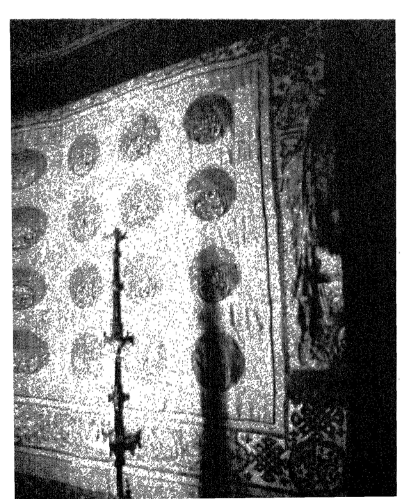


طليطلة : الكنيس اليهودي

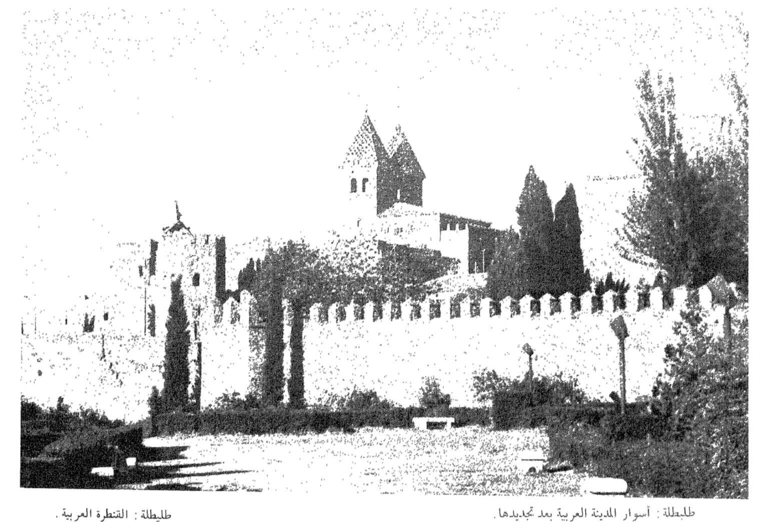
طليطلة : ثورة زيتية في الكتدرائية تمثل ابا عبدالله الشقي وهو يسلم مفاتيح غرناطة إلى الملكين فرناندو وايزابيلا



طليطلة . البوابة الرئيسية .



طليطلة . علم السلطان أبي الحسن المريني غنمه الاسبان عندما هزموه عام 741 / 1340 في جزيرة طريف عند نزوله فيها لنجدة مسلمي الأندلس . وهو معروض في الكتدرائية .

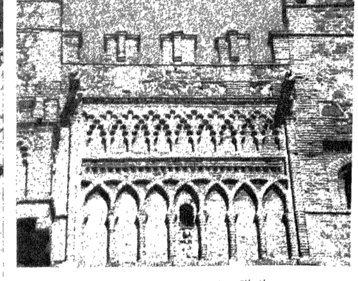


طليطلة : أسوار المدينة العربية بعد تجديدها.

طليطلة : القنطرة العربية.

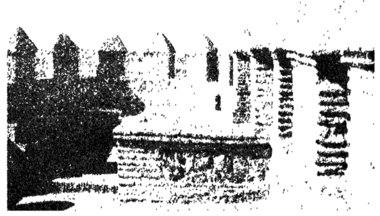
طليطلة : منظر من فوق أسوار المدينة .





طليطلة : واجهة جامع حول إلى كنيسة .

طليطلة الكاتدرائية
وقد بنيت محل المسجد الجامع .



طليطلة : أحد أبراج الحراسة

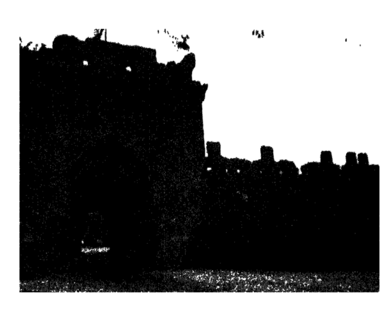
طليطلة : داخل أسوار المدينة





قرمونة : أطلال القصبة .

منازلُها مصدورةٌ وبطاحُها
مدائنُها موتورةٌ وثُغورُها
نهائمُها مفجوعةٌ ونُجودُها
وأحجارُها مصدوعةٌ وصُخورُها
وأحياؤُها تُبدي الأسى وجمادُها
يكاد لفرْطِ الحُزن يبدو ضميرُها



قرمونة : مدخل القصبة
وقد أنشىء داخلها فندق كبير .

قرمونة: باب قرطبة.

قرمونة: جامع حول إلى كنيسة.

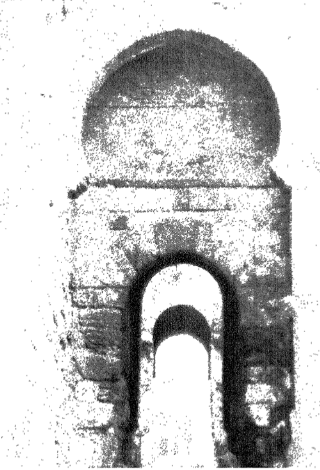


قرمونة : مئذنة جامع حول إلى كنيسه .

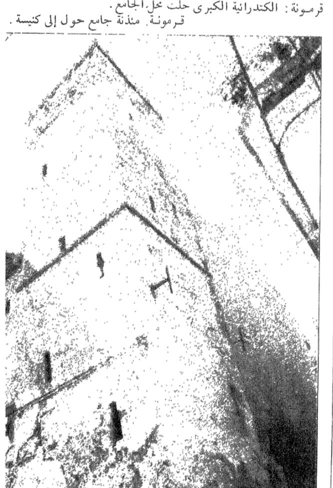


قرمونة : الكتدرائية الكبرى حلت محل الجامع .

قرمونة : باب اشبيلية .



قرمونة. مئذنة جامع حول إلى كنيسة .





المئذنة الوحيدة الباقية .



قرمونة : مئذنة جامع حول إلى كنيسة .

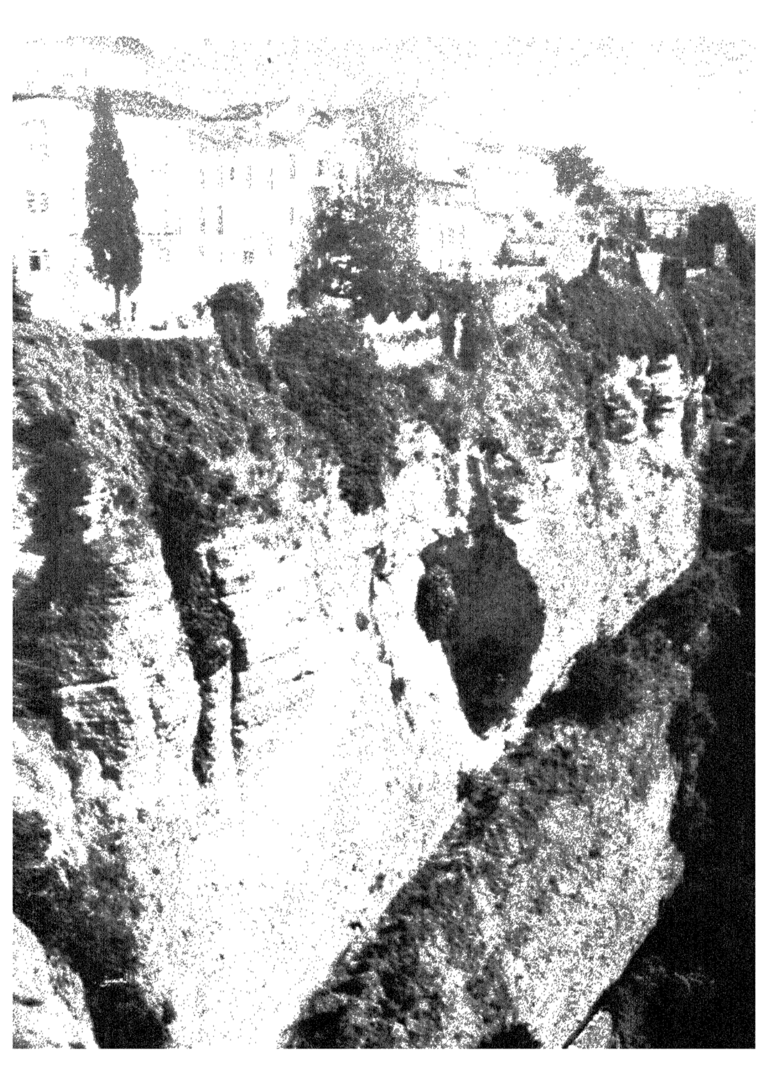


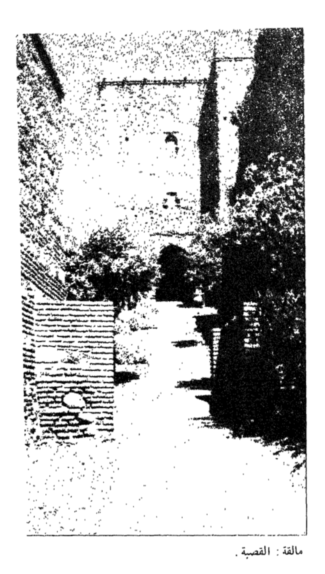
قرمونة : مئذنة جامع حول إلى كنيسة .

احقّا حليلي أنّ رُندةَ أقفرت
وأزعِج عنها أهلُها وعشيرُها
وهُدّت مبانيها وثُلّتْ عُروشُها
ودارتْ على قطب النفرُّق دُورُها
تسلّمها حزبُ الصليب وقادها
وكانت شرَوداً لا يُقادُ نفُورُها
فباد بها الإسلام حتى تقطّعتْ
مناسبها واستأصلَ الحقَّ زُورُها
وأصبحت الصُّلبانُ قد عُبدتْ بها
تماثيلُها دُون الإلهِ وصُورُها

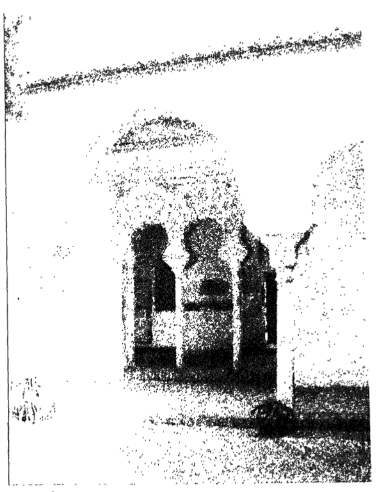


رُنده : قصر الامارة .





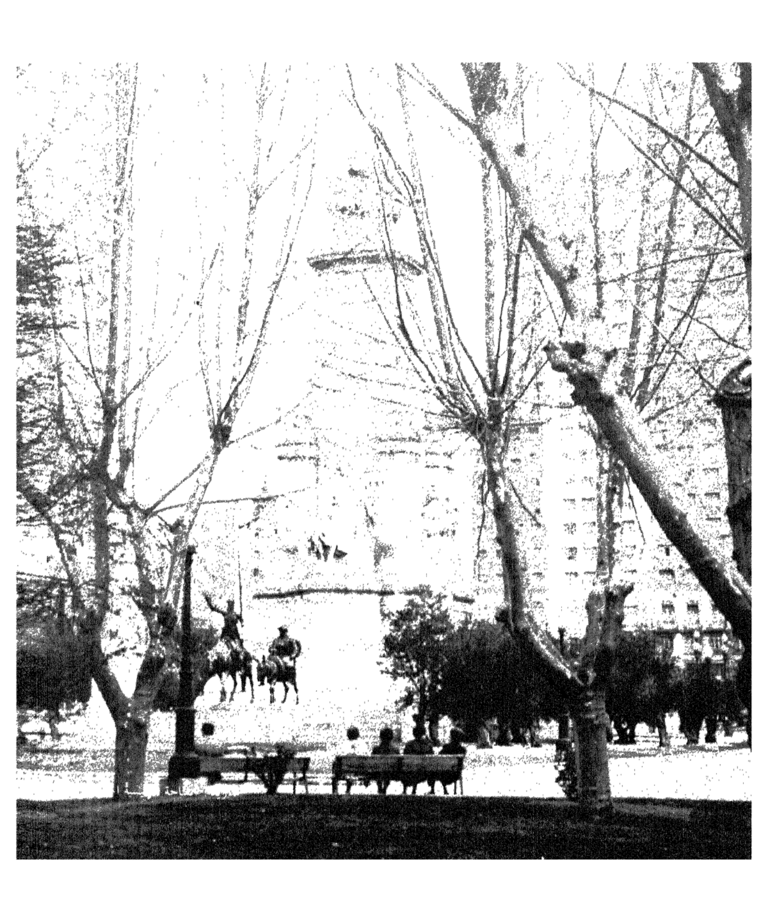
مالقة : القصبة .

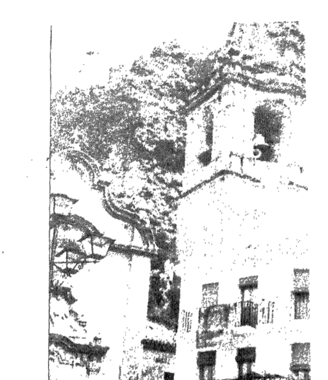


مالقة القصبة جانب من داخلها .

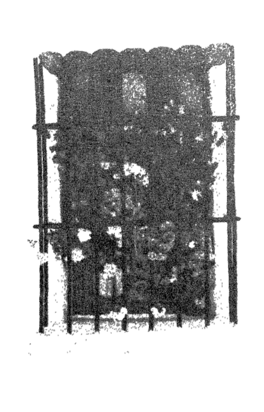


شنتمرية الغرب (البرتغال) :
احدى بوابات المدينة .



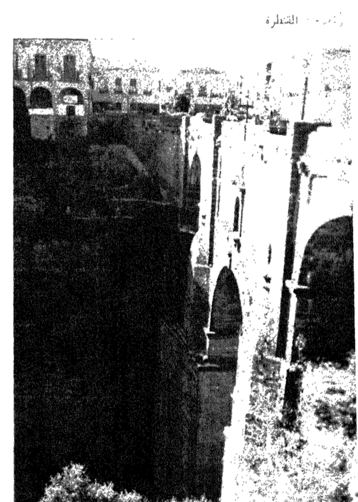


... ابنة زهرة الجبل بالقرب من رَندة



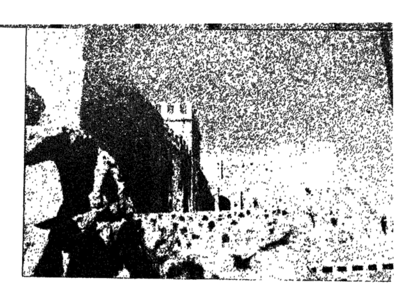
نافذة في مدينة زهرة الجبل

... القنطرة

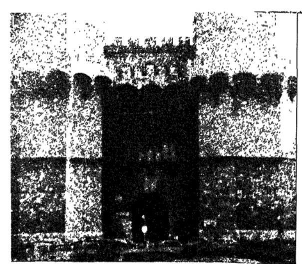


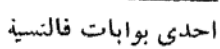
بيت عربي في يابسة



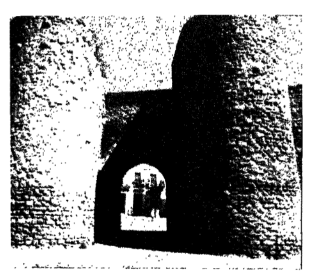


قلعة طريف

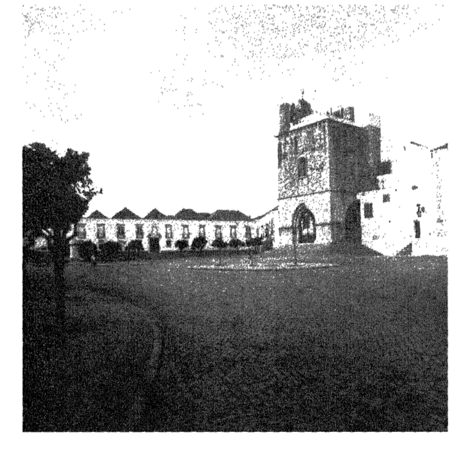




احدى بوابات فالنسية

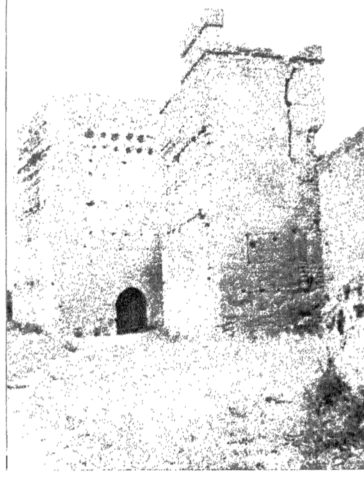


احدى بوابات رندة

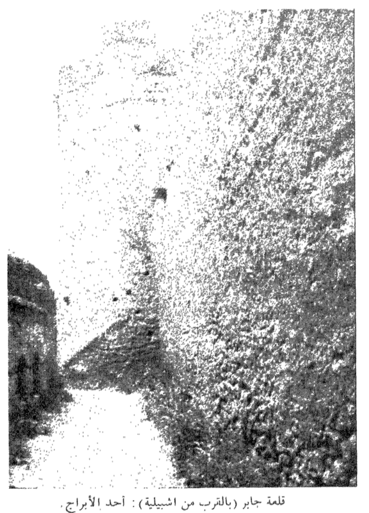


الفارو (البرتغال):
جامع حول إلى كنيسة.

زهرة الجبل (بالقرب من رُنده): القلعة العربية تطل على البلد.

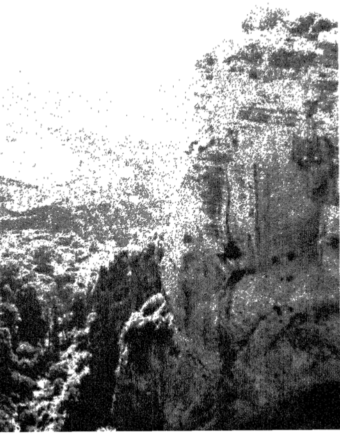


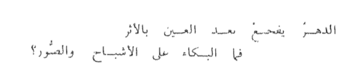
قلعة جابر (بالقرب من اشبيلية) : احدى البوابات .



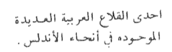
قلعة جابر (بالقرب من اشبيلية) : أحد الأبراج .

يفصل بن شقيها هذا الوادي السحيق





الدهرُ يفجعُ بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصُّور؟



احدى القلاع العربية العديدة
الموجوده في أنحاء الأندلس .



احد شواطىء يابسة

يابسة

«أسماء بعض المدن والمواقع بالعربية والاسبانية»

«ألف»

أبلة	AVILA
أشترو	ASTRO
أبال	OVEJO
إبره (نهر)	EBRO
ابنيون	AVIGNON
أبذة	UBEDA
ارنيط	ARNEDO
أربونة	NARBONNE
أريولة	ORIHUELA
أرجونه	ARJONA
أندوجر	ANDUJAR
أرش	URCI
إرش	ERCO
أرشذونه	ARCHIDONA
أرغون	ARAGON
الأرك	ALARCOS
إركتبه	ERCAVICA
إركش	ERCOS de la Frontera
الأرل	ARLES
أرية	ORENSE
إستجة	ECIJA
إشبيلية	SEVILLA
إشتبين	SAN ESTEBAN
أشتوريش	ASTURIAS
أشتيرقية	ASTORGA
أشونه	OSUNA
أطريره	UTRERA
إصطبة	ESTEPA
افراغة	FRAGA
أقليش	UCLES
إقليم الشرف	AJARAFE
إقليم طشانة	TOCINA
إقليم قرطسانة	CARTUJANA
إقليم المسنستير	ALMONASTER
أكشونبة	OCSONOBA
أليه	ALAVA
إلبيره	ELVIRA
إلش	ELCHE
أماية	AMAYA
أنبوريش	AMPURIAS
أنده	ONDA
أندرة	ONDARA
أندرش	ANDARAX
أوريط	ORETO
أونبة	HUELVA
أوقة	OCA
أيّة	ELLO
إيرية	IRIA

«باء»

باجه	BEJA
باغة	PRIEGO
ببشتر	BOBASTRO
بايش	BAEZA
بجانة	PECHINA
بربشتر	BARBASTRO
برجة	BERJA
برذيل	BORDEAUX
برذيش	PRADANOS
برشانة	PURCHENA
برشلونة	BARCELONA
برغش	BURGOS
بريّانة	BURRIANA
بزليانة	BEZMILIANA
بشطه	BAZA
بشكنس	BASQUE
بطرير	PETREL

بطليوس	BADAJOZ
بلتيرّه	VALTIERRA
بلد الوليد	VALLADOLID
بلكونه (حصن)	PORCUNA
بلور	VALOR
بلنسية	VALENCIA
بلنتلة	VALENTILLA
بنبلونه	PAMPLONA
بني قاسم	BENICASIM
بنشكلة	PENISCOLA
البونت	ALPUENTE
بوثال	PUZAL
بلاي (صخرة)	PENA de PELAYO
بليسانة	BELICENA
بليارش	PALLARES
بياسة	BAEZA
بيانة	BAENA
بيران	BAIREN
بيونة	BAYONA

«تاء»

تاجة (نهر)	TAJO (Rio)
تاكرنة	TAKURRUNNA
تدمير	TUDMIR
ترجالة	TRUJILLO
تطيلة	TUDELA

«جيم»

جبل الشارات	SIERRA MORENA
الجزيرة الخضراء	ALGEÇIRAS
جليقية	GALICIA
جلق (نهر)	GALLEGO
جنجالة	CHINCHILLA
جيان	JAEN
جيانة	JAYENA
جبل طارق	GIBRALTAR
جبل الشرف	AJARAFE
جرندة	CERONA
جرنيق	GUERNICA
الجزائر الشرقية	ISLAS BALEARES
جنة العريف	GENERALIFE

«حـاء»

حصن بلاي	POLEY
حصن طلياطة	TABLADA
حصن الحنش	ALANJE
حصن كركر	CARCAR
حصن شنت أقروج	SANTA CRUZ DE LA SIERRA
حصن استبه	ESTEPA
حصن الروطة	ROTA

«خـاء»

الخندق (بحيرة)	JANDA
خيخون	GIJON

«دال»

دانية	DENIA
دروقة	DAROCA
دلاية	DALIAS
دويره (نهر)	DUERO (RIO)

«راء»

ركانة	RAQUENA
ركلة	RICLA
الرملة	LA RAMBLA
رميلة	ROMILLA
رندة	RONDA
روطه	ROTA
رنشفالة (ممر)	RONCESVALLES

رية	REYYO
ريمبة	REIYMO

«زاي»

الزلاقة	SAGROJAS

«سين»

سبتمانية	SEPTIMANIA
سبطران	SOPETRAN
سبته	CEUTA
ساجنتو	SAGUNTO
سرقسطة	ZARAGOZA
سمورة	ZAMORA
سوخرة	ZUJAR

«شين»

شاطبة	JATIVA
شبرانه	CHIPRANA
شجس	BAX
شريش	JEREZ de la FRONTERA
شرين	SORRION
شرطانية	CERDANA
شذونه	SEDONA
شقر	JUCAR
شقنده	SECUNDA
شقوبية	SEGOVIA
شقورة	SEGURA de la SIERRA
شلب	SILVES
شلمنقة	SALAMANCA
شلوبانة	SALOBRENA
شنتجالة	CHINCHILLA
شنترة	CINTRA
شنترين	SANTAREN
شنتمرية الغرب	SANTAMARIA de ALGARVE
شنت برية	SANTAVER
شنت يعقوب	SANTIAGO
شوذر	JODAR
شنت ملوط	MONSALUD

«ضاد»

الضيعة	ALDAYA

«طاء»

طالقة	ITALICA
طبيرة	TAVIRA
طراحة	TARREGA
طرسونه	TARAZONA
طُراش	TORROX
طركونه	TARRAGONA
طراطوشة	TORTOSA
طريانه	TRIANE
طريف	TARIFA
طشانه	TOXANA
طلبيره	TALVERA de la REINA
طلمنكة	TALAMANCA
طلياطة	TABALDA
طليطلة	TOLEDO
طرسكونة	TARASCON
طليوشه	TOLOSA

«عين»

علج	ELCHE
العقاب	LASNAVASDEETOLOSA

«غين»

غالة (بلاد الفرنجة)	GAULE
غرناطة	GRANADA
غرب الأندلس	ALGARVE

«فاء»

فج طارق	BUITROGO
فج موسى	VALMUSA
فحص البلوط	LOS PEDROCHES

فرغبوش	HORNACHUELOS
الفرنتيرة	FRONTIERA
فنيانة	FINANA
الفهمين	ALFAMIN

«قاف»

قادس	CADIZ
قبطور	ISLA MAYOR
قبره	CABRA
قبطيل	CAPTEL
قرباقة	CARAVACA
قربليان	CREVILLENTE
قرطبه	CORDOBA
قرمونة	CARMONA
قرطشانة	CARTUJANA
قرطاجنة	CARTAGENA
قرقشونة	CARCASSONA
قسطلة دراج	CASTELLAR
قشتالة	CASTILLA
قصر أبي دانس	ALCAZAR de SAL
قلشانه	CALSENA
قطلونة	CATALUÑA
قلعة أيوب	CALATAYUB
قلعة بحصوب	CALAT LA REAL
القلعة الحرة	CALAHORRA
قلعة رباح	CALATRAVA
قلعة الحنش	ALANGE
قلمرية	COLBRA
قمارش	COMARES
قنبانية	CAMPIÑA
قنبيل	CANBIL
قورية	CORIA
قبيجاطة	QUESODA

«كاف»

كنتش معافر	CANTOS
الكرس (حصن)	ALCARAZ
الكدية	ALCUDIA

«لام»

لاردة	LARIDA
لبلة	NIEBLA
لقنت	ALICANTE
لشبونه	LISBOA
لورقة	LORCA
لوشة	LOJA
ليون	LEON
لاخندة (بحيرة)	LAGO de JANDA

«ميم»

مارتش	MARTOS
مارتله	MERTOLA
ماردة	MERIDA
مجريط	MADRID
المدور (حصن)	ALMODAVAR del RIO
مدينة الزهراء	AZAHARA
مدينة الزاهرة	AZAHIRA
مدينة سالم	MADINCELLI
مربلة	MARBELLA
مربيطر	MURVIEDRO
مرسانة	MARCHENA
مرسية	MURCIA
المركوين	MALACUERA
المرية	ALMERIA
مرسى سهيل	FUENGIROLA
مقلونه	MAGUELONNE
منت شلوط	MONSALUT
منتيشة	MENTESA
منت شقند أو شاقر	MONTEJICAR
مندوجر	MONDUJAR
منرقة	MENORCA
الملاحة	LAMALA
المنكب	ALMUNECAR
مورور	MORON

مورينة	MORENA
مولة (إقليم)	MULA
ميورقة	MALLORCA
ميرتلة	MERTELA

«نـون»

نبره	NAVARRA
التاج (نهر)	TAJO (RIO)
نهارون (نهر)	NAHARON
نيمس	NIMES

«واو»

وادي آش	GUADIX
وادي الطين	GUADATIN
وادي الحجارة	GUADALAJARA
وادي الرملة	GUADARRAMA
وادي القنال	GUADALCANAL
وادي شنيل	GENIL
وادي القصر	GUADALCAZAR
وادي الكبير	GUADALQUIVIR
وادي القطن	GUADALGOTON
وادي سليط (لكة)	GUADALETE
وادي المعرض	ALMARAZ
والمو	HUELAMO
وانحة	HUENEJA
وبزة	HUETE
وشقة	HUESCA
وقش	HUECAS
ولبة	HUELVA

«يـاء»

يابرة	EVORA
يابسة	IBIZA
ينشتة	INIESTA

مراجع مختارة

المراجع العربية

- ابن حيان - المقتبس في تاريخ الأندلس، باريس 1937 .
- ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبّربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، القاهرة 1867 .
- ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان القاهرة 1956 .
- الطبري - بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس، مدريد 1885 .
- ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق عبد المنعم عامر.
- ابن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت.
- ابن عذارى المراكشي - بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
- ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد 1926 .
- الحميري - كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1937 .
- العبادي، أحمد مختار - في التاريخ العباسي والأندلسي، القاهرة 1971 .
- العبادي، عبد الحميد - المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، 1964 .
- عباس، د. إحسان - تاريخ الأدب الأندلسي، بيروت.
- عنان، محمد عبدالله - دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة 1969 .
- ــــ - الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال القاهرة 1961 .
- مؤنس، د. حسين - رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، القاهرة 1963 .
- فجر الأندلس، القاهرة 1959 .
- المقري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968 .
- فتح العرب للمغرب، القاهرة 1947 .
- بيضون، د. إبراهيم - الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، بيروت 1976 .
- الصوفي - د. خالد - الأدب العربي في الأندلس، عصر الإمارة طرابلس الغرب 1980 .
- عتيق، د. عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس، بيروت 1976 .

- سيسالم، د. عصام سالم - جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار بيروت 1984 .
- الكعاك، عثمان - الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط، القاهرة 1965 .
- سالم، د. عبد العزيز - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزءان، بيروت 1971 و 1972 .
- الحجى، د. عبد الرحمن علي - تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة القاهرة 1983 .

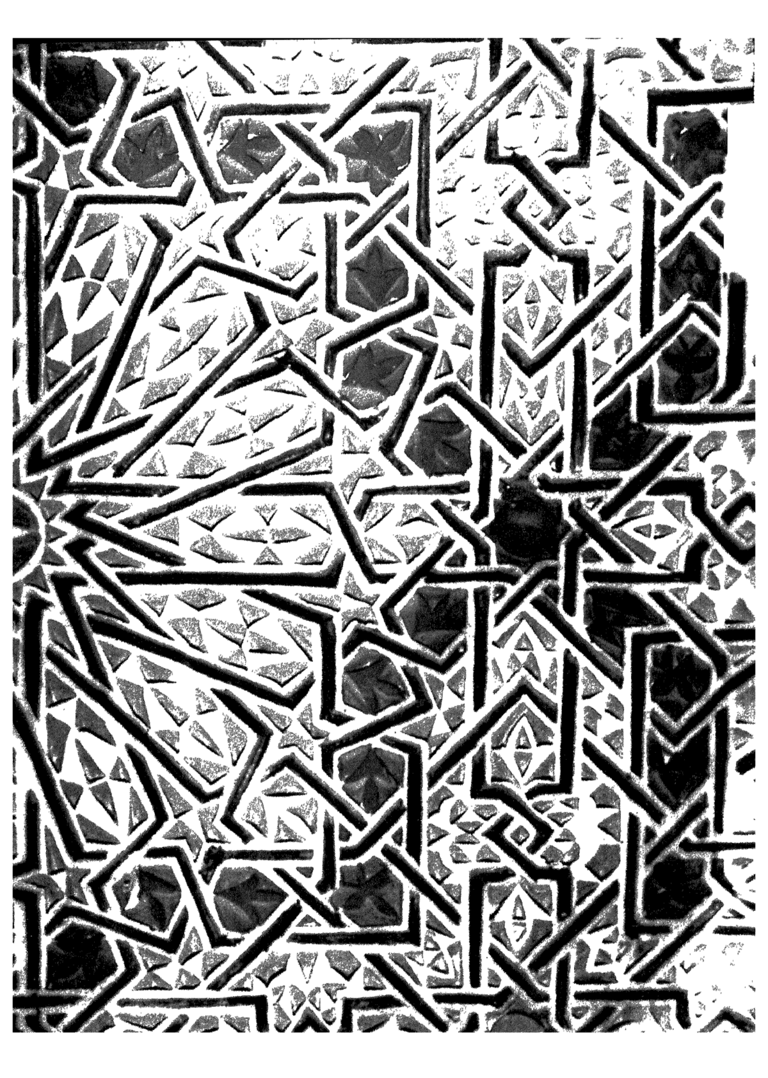
المراجع الأجنبية:

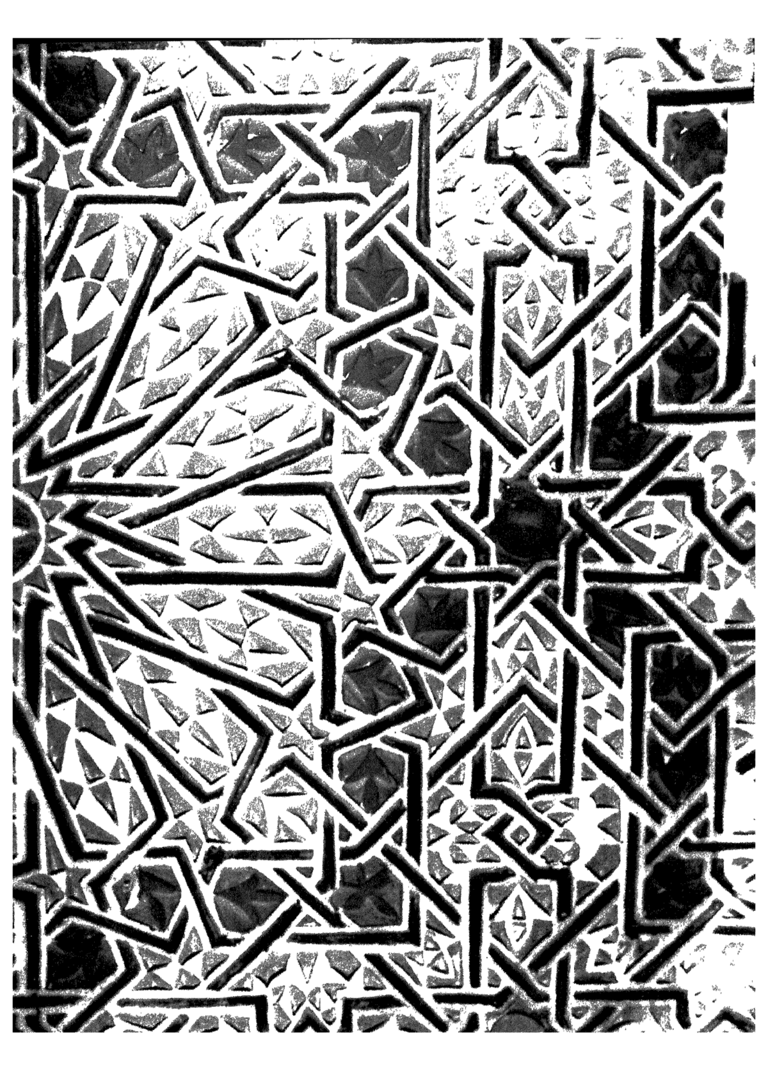
- غرسية غومس - الشعر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة 1957 .
- جوبنزالز بالنثيا - تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس القاهرة 1955 .
- ليفي بروفنسال - سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ألقاها عامي 1947 و 1848 ترجمة محمد عبد الهادي شقير القاهرة 1951 .
- دوزي - تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة 1963 .
- جب، هاملتون - دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، بيروت 1979 .
- سيريو، ل. م. - تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر 1969 .
- غوستاف لوبون - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر 1969
- هونكة، زيجريد - فضل العرب على اوروبا، ترجمة وتحقيق د. فؤاد حسنين علي.

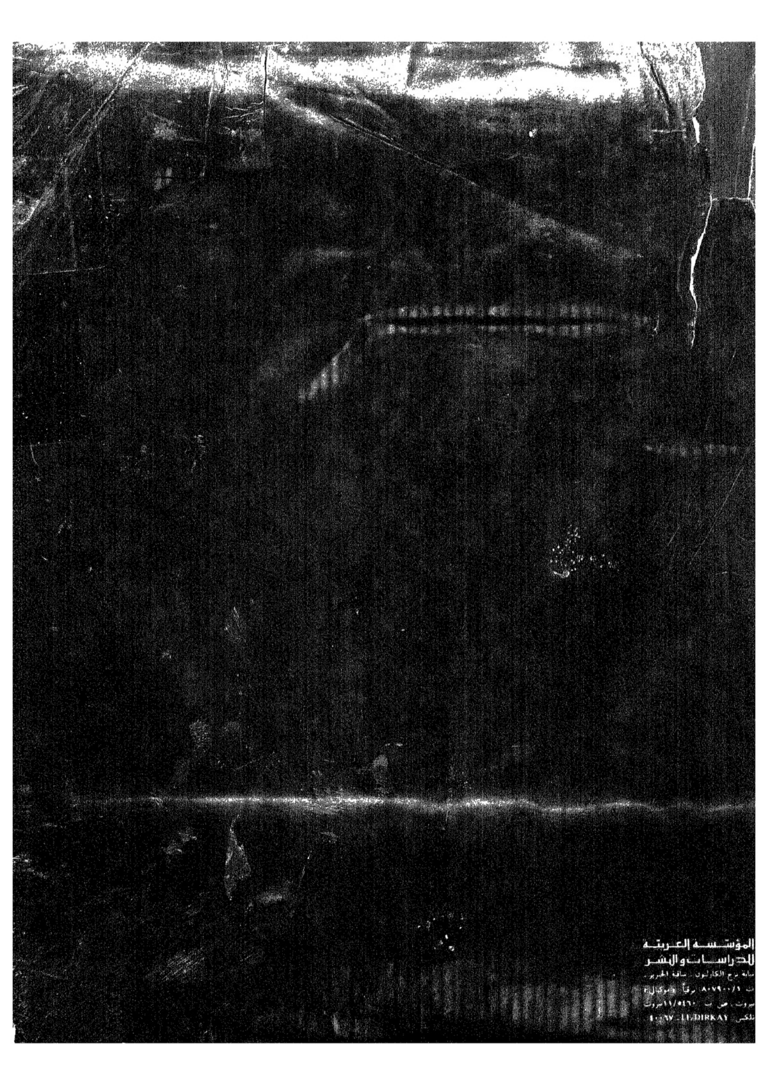
— BRETT, Michael — I MORI, L'islam in Occidente Avora. 1980
— CRESPI, Gabriele — Gli Arabi in Europa, Milano, 1980
— GABRIELI, Francesco — Gli Arabi in Italia, Milano, 1979
— BENNASSAR, Bartolome — L'inquisiziòn Espagnol XVe-XIXe SIECLE. Paris, 1980
— RICE, David Talbat — Islamic Art, London 1979
— WATT, W. Montgomery — The Majesty That Was Islam, London 1976
— DUNLOP, D.M. — Arab Civilization, to AD 1500, London 1971
— HITTI, Philip K. — History of The Arabs, London 1937
— LEWIS, Bernard — The Arabs in History, London 1950
— GIBB, Sir Hamelton — Studies on the Civilization of Islam, London 1962
— Arabic Literature, 2 nd Ed. Oxford 1963.
— WATT, W. Montgemery — The Influence of Islam on Medieval Europe, Edinburgh, 1972
— TOYNBEE, Arnold J. — A Study of Histtory, Oxford, 1947
— The World of Islam Chapters contributed by:
— LEWIS, Bernard — The Faith and the Faithful (The Land and Peoples of Islam).
— ETTINGHAUSEN, R. — The man-made setting (Islamic Art and Architecture)
— GRABER, O. — Cities and Citizens (The Growth and Culture of URBAN Islam)
— MEIER, Fritz — The Mystic Path (The Sufi Tradition)
— PELLAT, Charles — Jewlers with words, (The Heritage of Islamic literature).
— SHILOAH, A — The Dimention of Sound (Islamic Music Philosophy, Theory and Practice.)
— SABRA, A.I. — The Scientific Enterprise (Islamic Contribution to the Development of Science)
— BOSWORTH, Edmund — Armies of the Prophet, Strategy, Tactics and Weapons in Islamic Warfare.
— GOMEZ, Emilio Garthia — Moorish Spain, The Golden Age of Gordoba and Granada
— and others.

المحتـويات

الباب الثاني






المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً موكيالي
بيروت ص. ب ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧